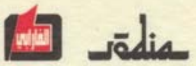
سلسلة فسيفساء

ياسمينة خضرا

الصّدمة

رواية

ياسمينة خضرا

الصدمة

رواية

ترجمة: نهلة بيضون



الفارابي ــ سيديا


الصدمـــة


Twitter: @ketab_n

Yasmina Khadra

L'Attentat

Roman

الكتاب: الصدمة
المؤلف: ياسمينة خضرا
الترجمة: نهلة بيضون
تصميم الغلاف: ڤينوس نادر

الناشران
* دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: farabi@inco.com.lb
www.dar-alfarabi.com

* سيديا (SEDIA) فرع مجمع هاشت الفرنسي في الجزائر
ت: 21 00 48 21 (213) ـ 82 14 60 21 (213)
فاكس: 84 14 60 21 (213)
www.sedia-dz.com

الطبعة الأولى 2007
ISBN: 978-9953-71-249-9 ـ لبنان
ISBN: 978-9961-704-86-8 ـ الجزائر
Dépôt légal: 1169-2007

لا أذكر أنني سمعتُ دوياً. ربما كان صفيراً، أشبه بصريف قماش يتمزق، ولكني لا أستطيع الجزم. كان يستحوذ على انتباهي ذلك الإله الذي تحلقت حوله زمرة من المريدين فيما راح حراسه الشخصيون يشقّون له طريقاً إلى سيارته. "أفسحوا الطريق، من فضلكم. من فضلكم، إبتعدوا." تدافع المؤمنون ليلمحوا الشيخ عن قرب، ويلمسوا قميصه، والشيخ الجليل يلتفت بين الفينة والأخرى، ملقياً التحية على أحد المعارف أو شاكراً أحد المحازبين. كان محياه الزاهد يلتمع بنظرة حادة مثل نصل خنجر. حاولتُ الإفلات من الأجساد المنخطفة التي كانت تسحقني إنما لم أفلح. ركب الشيخ سيارته، ولوَّح بيده خلف الزجاج المصفَّح بينما كان حارساه الشخصيان يستقران إلى جانبه... ثم لا شيء. ثمة جسم اخترق السماء وومضَ وسط قارعة الطريق، مثل البرق. أصابني ارتداد الصدمة إصابة مباشرة، مفرّقاً الجمع الذي أبقاني أسير هيجانه. في أقل من ثانية، انهارت السماء، وانقلب الشارع الذي كان منذ وهلة عامراً بالورع رأساً على عقب. اجتازت

الدوار الذي أصابني جثة رجل أو فتى، مثل وميض غامض. ما هذا؟...اجتاحني سيلٌ من الغبار واللهيب، وقذف بي من خلال ألف شظية. يعتريني إحساسٌ ملتبسٌ بأنني أتنسَّلُ وأذوبُ في لفح الانفجار... على بعد أمتار قليلة، أو سنوات ضوئية، تشتعل سيارة الشيخ. تبتلعها مجسَّاتٌ شرهة، باعثةً في الجو رائحة حريق فظيعة. لا بد أن طنينها مروِّع ولكنني لا أسمعه، فقد خطفني من أصوات المدينة صممٌ صاعق. لا أسمع شيئاً، لا أحس بشيء؛ أحلِّق، وأحلِّق فقط. أستغرقُ دهراً في التحليق قبل أن أهوي أرضاً، مترنحاً، منحلاً، إنما واعياً على نحو يدعو للعجب، وقد أصبحت عيناي أكثر اتساعاً من الرعب الذي أطبق للتو على الشارع. لحظة ارتطمت بالأرض، تجمدت كل الأشياء، اللهب فوق السيارة المخلَّعة، الشظايا، الدخان، الهرج والمرج، الروائح، الزمن... وحده صوت سماوي يشرف على الصمت المستغلق للموت، يغني: سنرجع يوماً إلى حيّنا. لم يكن صوتاً بالضبط، بل أشبه بالخرير، بعلامة تتراءى بين السطور... ارتدَّ رأسي في مكان ما... صرخ طفل: أمي. صرخته واهنة إنما واضحة ونقية. تأتي من بعيد جداً، من مكان آخر مستكين... ترفض ألسنة اللهيب التي تلتهم السيارة أن تتحرك، والشظايا أن تهوي... تبحث يدي عن نفسها وسط ركام الحصى؛ أظن أنني أصبت. أحاول أن

أحرك ساقيَّ، وأن أرفع عنقي، فلا تسعفني عضلة واحدة. يصرخ الطفل : أمي... أمين، أنا هنا... وها هي ستارة من الدخان تنشقّ فتظهر أمي. تتقدم وسط الأنقاض المعلقة، والحركات المتحجرة، والأفواه المفتوحة على الهاوية. لوهلةٍ، أخالها مريم العذراء بحجابها الحليبي ونظرتها المعذبة. لطالما كانت أمي على هذا النحو، مشرقةً وحزينةً في آن، مثل شمعة. حين تضع يدها على جبيني المحموم، تمتص منه كل الحمى وكل الهموم ...وها هي هنا؛ لم تضعف قواها السحرية. تسري في بدني رعشة من رأسي إلى أخمص قدمي، محرِّرةً الكون، مطلقةً العنان لكل أشكال الهذيان. تستأنف ألسنة اللهب رقصتها الجنائزية، والشظايا مسارها، والهلع فيضانه... يحاول رجل يرتدي أسمالاً، اسودَّ وجهه وذراعاه، الاقتراب من السيارة التي تحترق. ومع أنه مصاب بجروح بليغة، يجهد مستميتاً، بعناد غريب، كي يغيث الشيخ. كلما وضع يده على باب السيارة، أبعدته قذيفة من اللهب. كانت الأجساد الحبيسة داخل السيارة تحترق. يتقدم شبحان مُضرَّجان بالدماء من الجهة الأخرى، يحاولان أن يفتحا الباب الخلفي. أراهما يزعقان أوامر أو يزعقان من الألم، ولكني لا أسمعهما.على مقربةٍ مني، يحدِّق إلي رجل عجوز مخبولاً؛ يبدو أنه لا يدرك أن أحشاءه خرجت من معدته، وأن دمه يتدفق في جدول من

الوحول. يزحف جريحٌ على الأنقاض، وفي ظهره لطخةٌ هائلة يتصاعد منها الدخان. يمر بمحاذاتي، متأوهاً ومرعوباً، ويمضي ليلفظ أنفاسه على مسافة غير بعيدة، مفتوح العينين على كامل اتساعهما، كما لو أنه لا يستطيع أن يسلِّم بما جرى له، له هو. يفلح الشبحان أخيراً في تحطيم الزجاج الواقي من الريح، وينقضّان داخل السيارة. يصل ناجون آخرون لإعانتهما. بأيديهم العارية، يفككون السيارة المحترقة، يحطمون الزجاج، ينهالون على الأبواب، وينجحون في إخراج جثة الشيخ. تحمله عشرات الأذرع، وتبعده عن الأتون قبل أن تمدده على الرصيف فيما راح سربٌ من الأيدي يصارع لإخماد النيران التي تلتهم ثيابه. يدب الخدر دبيباً في حوضي. يكاد سروالي يختفي؛ ووحدها بعض النتف المحترقة تسترني من هنا وهناك. ترقد ساقي على خاصرتي، بشعةً ومريعة؛ يصلها بفخذي حبل رفيع من اللحم. تتخلى عني كل قواي دفعة واحدة. أحسُّ أن أليافي تتفكك الواحدة عن الأخرى، وتتحلل... يتناهى إلى مسمعي أخيراً نعيق سيارة إسعاف؛ وشيئاً فشيئاً، تستعيد أصوات الشارع مسارها، تغمرني، تذهلني. ينحني أحدهم على جسدي، يعاينه سريعاً، ويبتعد. ألمحه يقرفص أمام كومٍ من اللحم المحروق، يجس نبضها ثم يومئ إلى المسعفين. يقترب رجل آخر فيجسُّ معصمي قبل أن يتركه يهوي... "هذا قضي عليه، لن

نستطيع إنقاذه...". أرغب أن أستبقيه، أن أرغمه على تبديل رأيه؛ ولكن ذراعي يتمرَّد، ويتنكر لي. ينادي الطفل مجدداً: أمي... أبحث عن أمي وسط البلبلة...لا أرى سوى بساتين على مدِّ النظر... بساتين جدي... كبير العائلة... بلاد أشجار البرتقال التي يأتي فيها الصيف كل يوم... وصبي يحلم في أعلى قمة. السماء زرقاء شفافة. أشجار البرتقال لا تكف أياديها تتعانق. الصبي في الثانية عشرة وقلبه هشٌّ كالخزف. في هذه السن، سن الغرام من النظرة الأولى، لمجرد أن ثقته كبيرة بحجم أفراحه، يود أن يقضم القمر مثل فاكهة، وكله يقين أنه سيقطف سعادة الكون بأسره حالما يمد يده... وهنا، تحت ناظريَّ، رغم المأساة التي أتت تشوِّه إلى الأبد ذكرى ذلك النهار، رغم الأجساد المحتضرة على قارعة الطريق، والنيران التي دفنت سيارة الشيخ أخيراً، يثب الصبي، وينطلق، وقد بسط ذراعيه مثل جناحي صقر، عبر الحقول التي تجسد فيها كل شجرة مشهداً أخاذاً... تسيل دموعي على وجهي.... اعترف لي أبي، إذ ألفاني منهاراً في الغرفة التي سُجيَّ فيها جثمان كبيرنا: "إن من قال لك إن الرجل الذي لا يبكي، يجهلُ ما هي الرجولة، فلا تخجل من البكاء يا بني، لأن الدموع أرقى ما نملك". ولما كنت متشبثاً بيد جدي أرفض التخلي عنها، قرفص أمامي واحتضنني: "لا داعي للبقاء هنا. الأموات ماتوا وانتهوا، وتطهَّروا

من ذنوبهم. أما الأحياء، فما هم إلا أطياف استبقوا ساعتهم...". حملني مسعفان وكوّماني على نقالة. وصلت سيارة إسعاف يرجع بها سائقها إلى الخلف، وقد شرَّعت بابيها. تجذبني بعض الأذرع إلى داخلها، تكاد ترميني وسط جثث أخرى. في اختلاجة أخيرة، أسمع نفسي أنتحب..."يا رب، إذا كان كابوساً مروِّعاً، فأيقظني منه، وعلى الفور...".

1

مرَّ مديرنا عزرا بن حاييم بمكتبي بعد انتهاء العملية الجراحية. إنه رجل نشيط ويقظ مع أنه تخطى الستين وبدأ كرشه يتكوَّر. في المستشفى، يلقبونه بالرقيب لفرط استبداده الذي تزيده سوءاً روح دعابة لا تتلاءم دائماً مع موضوع الحديث، ولكنه أول من يشمِّر عن ساعديه في الحوادث الأليمة وآخر من ينصرف.

قبل حصولي على الجنسية الإسرائيلية، حين كنت جراحاً شاباً، لا أدخر وسعاً لأتثبت في الوظيفة، وقف إلى جانبي. كان لا يزال رئيس قسم متواضعاً، ولكنه وظَّف النفوذ القليل الذي يمنحه إياه منصبه لإبعاد خصومي. في ذلك الحين، كان من الصعب على شاب عربي أن ينضم إلى أخوية النخبة الجامعية بدون أن يثير الاشمئزاز؛ فجميع زملائي في دفعتي من اليهود الأثرياء الذين يضعون في معصمهم سلسلة ذهبية ويركنون في

المرأب سيارتهم المكشوفة، يتعالون عليّ، ويعتبرون كل إنجاز من إنجازاتي انتهاكاً لمقامهم الرفيع. ولذلك، حين يستفزني أحدهم، لا يحاول عزرا حتى أن يعرف من البادئ، بل يتضامن معي تضامناً منهجياً.

دفع الباب بدون أن يقرعه أولاً. نظر إلي من جانب، وقد علت شفتيه ابتسامة خفيفة. كان ذلك أسلوبه في الإعراب عن رضاه. ولما استدرتُ بمقعدي لأواجهه، نزع نظاراته، ثم مسحها بمقدمة ردائه الأبيض، وقال:

ـ يبدو أنك ذهبت إلى المطهر لإرجاع مريضك.

ـ أرجوك، لا تبالغ.

وضع نظاراته على أنفه القبيح المنخرين، ثم هزَّ رأسه برفق؛ وبعد تأمل وجيز، استعادت نظرته صرامتها.

ـ هل تأتي إلى النادي هذا المساء؟

ـ لا أستطيع، فزوجتي تعود اليوم.

ـ وثأري؟

ـ أي ثأر؟ لم تفز عليّ بشوطٍ واحد.

ـ أمين، أنت لست شهماً. تستغل دائماً تمريراتي السيئة لتسجل النقاط، وتتهرب اليوم لأنني بكامل نشاطي.

انكفأتُ على مسند مقعدي لأتفرَّس في وجهه ملياً.

ـ أتعلم يا عزيزي عزرا؟ لقد فقدتَ فعاليتك الغابرة، وسألوم نفسي لو استغللتُ هذا الوضع ضدك.

ـ لا تتعجل وتحفر قبري. سأفلح أخيراً في إفحامك نهائياً.

ـ لا تحتاج للقيام بذلك إلى مضرب، يكفيك توقيفي عن العمل.

وعد أن يفكر بالأمر، ورفع إصبعه إلى صدغه في تحية مرحة، وعاد لتأنيب الممرضات في أروقة المستشفى.

حاولت، إذ بقيتُ وحدي، أن أتذكر ما كنت أفعله قبل أن يقتحم عزرا خلوتي، وتذكرتُ أنني كنت أهمُّ بمكالمة زوجتي. رفعت سماعة الهاتف، وطلبت رقم بيتي، ثم أقفلت الخط بعد الرنة السابعة. أشارت ساعتي إلى الساعة 13:12. لو أقلت سهام حافلة الساعة التاسعة، لكانت وصلت منذ وقت طويل.

سمعت الدكتورة كيم يهودا تبادرني، وهي تقتحم خلوتي: ـ لا تشغل بالك كثيراً!

وأضافت على الفور:

ـ لقد قرعتُ الباب قبل أن أدخل. أنت الذي كُنتَ شارداً...

ـ أعذريني، لم أسمعك تدخلين.

بددّت اعتذاري بيدٍ أبية، ورصدتْ حركة حاجبيَّ، ثم استفسرت:

ـ أكنت تتصل بالبيت؟

ـ لا يخفى عليك شيء.

ـ وبالطبع، لم ترجع سهام بعد؟

تزعجني فطنتها، ولكني تعلمت التعايش معها. أعرف كيم منذ أيام الجامعة. لم نكن في الدفعة نفسها ـ فقد كنت أسبقها بثلاثة أشواط ـ، ولكن كلاً منا استلطف الآخر منذ لقاءاتنا الأولى. كانت جميلة وعفوية، لا تتردد في المواقف التي يأبى ويحجم فيها الطلاب الآخرون عن طلب ولعةٍ لسجائرهم من قداحة طالب عربي، ولو كان هذا الطالب شاباً متفوقاً ووسيماً. كانت كيم مرحة وسخية، ومغازلاتنا مؤثرة بسبب سذاجتها. تألمتُ كثيراً حين جاء إله روسي شاب، وفدَ حديثاً من الكومسمول(*)، واختطفها مني. لم أعترض لأنني أتقبل الهزيمة برحابة صدر. تزوجتُ بسهام لاحقاً، وقفل الروسي عائداً إلى دياره بدون سابق إنذار، غداة انهيار الإمبراطورية السوفياتية؛ فبقينا صديقين حميمين، ونسجت زمالتنا الوطيدة حولنا انسجاماً رائعاً.

أشارت: ـ اليوم، يعود الناس من الإجازة،

(*) الكومسمول منظمة كانت تتولى الإعداد العقائدي للشبيبة في الإتحاد السوفياتي. (المترجمة).

والطرقات مزدحمة. هل حاولت الاتصال بها عند جدتها؟

ـ لا يوجد خط هاتفي في المزرعة.

ـ اتصلْ بها على هاتفها المحمول.

ـ لقد نسيته مرة أخرى في البيت.

بسطت ذراعيها دليلاً على مشيئة القدر:

ـ هذا مؤسف.

ـ مؤسف لمن؟

رفعت حاجبها البديع، وبإصبعها، حذرتني:

ـ مأساة بعض النوايا الحسنة أنها لا تتحلى لا بشجاعة التزاماتها ولا بالمتابعة في أفكارها.

نهضت قائلاً: ـ إنها ساعة الشجعان. كانت العملية الجراحية مضنية، وعلينا أن نجدِّد قوانا...

أمسكتُ بمرفقها ودفعتها برفق إلى الرواق.

ـ سيري أمامي يا حلوتي. أريد أن أرى كل الروائع التي تجرُّها أذيالك.

ـ هل تجرؤ أن تقول لي ذلك في حضرة سهام؟

ـ وحدهم الأغبياء لا يبدلون رأيهم.

صدحتْ ضحكة كيم في الرواق مثل إكليلٍ من الزهور أضاءَ مأوى للعجزة.

انضم إيلان روس إلينا في مقصف المستشفى لحظة

فرغنا من تناول الغداء. جلس إلى يميني قبالة كيم، حاملاً صينيته المترعة. بمريلته المفتوحة على كرشه الهائل وخديه المتهدلين، شرع أولاً بالتهام ثلاث شرحات من اللحم البارد قبل أن يمسح فمه بفوطة من الورق.

سألني، وهو يتلمظ تلمظاً نهماً: ـ هل ما زلت تبحث عن بيت صيفي؟

ـ هذا يتوقف على موقعه.

ـ أظن أنني وجدت ضالتك، على مقربة من عسقلان. إنها فيلا صغيرة جميلة فيها ما يكفي للاستجمام والاسترخاء.

كنا نبحث، أنا وزوجتي، عن بيت صغير على شاطئ البحر منذ أكثر من عام. تعشق سهام البحر. وكل إجازة أسبوعية أو أخرى، حين يسمح لي دوامي، نستقل سيارتنا إلى شاطئ البحر. بعد أن نسير طويلاً على الرمال، نتسلق كثيباً ونتأمل الأفق حتى ساعة متأخرة من الليل. لطالما انبهرت سهام بساعة الغروب انبهاراً لم أفلح في إدراكه أبداً.

سألته: ـ أتظن أن سعرها يناسبني؟

ضحك إيلان روس ضحكة مقتضبة ارتعش بسببها عنقه القرمزي مثل الهلام.

ـ بعد كل هذا الوقت الذي لم تعد تمد فيه يدك

إلى جيبك يا أمين، أظن أن لديك ما يكفي ويفيض لتحقيق نصف أحلامك...

فجأة، دوَّى انفجارٌ هائلٌ اهتزت له الجدران وارتجَّت الواجهات الزجاجية في المقصف. تبادل الجميع النظرات، وقد اعترتهم الحيرة، ثم نهض الجالسون قرب الواجهات الزجاجية والتفتوا صوب الخارج. هرعنا، أنا وكيم، إلى أقرب نافذة. كان الناس المنصرفون إلى أشغالهم في باحة المستشفى قد تسمّروا في مكانهم، والتفتت رؤوسهم نحو الشمال، إلا أن واجهة المبنى المقابل حجبت عنا الرؤية أبعد من ذلك.

قال أحدهم: ـ إنها عملية تفجيرية حتماً.

هرولنا، أنا وكيم، إلى الرواق. كان فريق من الممرضات يصعد من الطابق تحت الأرضي ويجري نحو بهو المستشفى. نظراً إلى قوة الذبذبة، من المفترض أن يكون موقع الانفجار قريباً. شغَّل أحد الحراس جهازه اللاسلكي الذي يحمله ليستعلم عن الوضع. أجابه محاوره أنه لا يملك المزيد من المعلومات. اقتحمنا المصعد. حين وصلنا إلى الطابق الأخير، هرولنا إلى الشرفة المطلة على الجناح الجنوبي للمستشفى. وصل بعض الفضوليين قبلنا، وبسطوا كفهم فوق حاجبهم يتحرُّون الأفق. راحوا ينظرون إلى سحابة

من الدخان ترتفع في السماء على بعد عشرات البيوت من المستشفى.

أفاد أحد الحراس في جهازه اللاسلكي: ـ إنه قادم من جهة (حكيرية). إنها قنبلة أو انتحاري. لعلها سيارة مفخخة. ليست لدي معلومات. ألمح فقط دخاناً يتصاعد من الموقع المستهدف...

قالت لي كيم: ـ يجب أن ننزل.

ـ أنت محقة. علينا الاستعداد لاستقبال الجرحى الذين سيصلون.

بعد انقضاء عشر دقائق، بدأت التقارير الأولية تفيد عن مجزرة حقيقية. أفاد بعضهم عن حافلة تعرضت لهجوم، وبعضهم الآخر عن انفجار مطعم. يكاد المقسم الهاتفي ينفجر. إنها حالة إنذار.

أعلن عزرا بن حاييم إنشاء خلية أزمة. انضم كل الممرضات والجراحين إلى قسم الطوارئ حيث وضعت عربات ونقالات في حركة محمومة إنما منظمة. إنها ليست المرة الأولى التي تهز فيها عملية تفجيرية مدينة تل أبيب، وعمليات الإسعاف تجري تدريجياً بفعالية متزايدة. ولكن العملية التفجيرية تبقى عملية تفجيرية. يمكن إدارتها استنزافياً من الناحية التقنية إنما ليس من الناحية الإنسانية. فالإنفعال والذعر لا يتعايشان مع

رباطة الجأش. وحين يضرب الرعب، يستهدف دائماً القلب بالدرجة الأولى.

قصدتُ بدوري قسم الطوارئ. كان عزرا هناك، ممتقعاً، وهاتفه المحمول ملتصق بأذنه. يحاول بيده أن يدير الاستعدادات العملية.

قال لي: ـ لقد فجَّر أحد الانتحاريين نفسه في مطعم. سقط العديد من القتلى، والكثير من الجرحى. أخلوا الغرفتين 3 و4، واستعدوا لاستقبال الضحايا الواصلين، فسيارات الإسعاف في طريقها إلى هنا.

لحقت بي كيم التي كانت قد قصدت مكتبها للاتصال هاتفياً إلى الغرفة 5 التي ستستقبل المصابين بجروح بليغة. أحياناً، حين لا تستطيع غرفة العمليات استيعاب المزيد من الجرحى، تُجرى عمليات بتر الأعضاء في هذه الغرفة. تفقدنا، مع أربعة جراحين آخرين، أجهزة الجراحة. وانهمك بعض الممرضات بخفة ودقة حول مناضد العمليات.

أخبرتني كيم وهي تبادر إلى تشغيل الأجهزة: ـ سقط أحد عشر قتيلاً على الأقل.

في الخارج، تولولُ صفارات الإسعاف. تجتاح سيارات الإسعاف الأولى باحة المستشفى. تركتُ كيم تهتم بالأجهزة ووافيتُ عزرا في البهو. تعلو صرخات الجرحى في الصالة. تتلوى امرأة، شبه عارية، حجمها

بضخامة هلعها، على نقالة. يتعذر على النقالين الذين يساعدونها أن يهدّئوا روعها. تمر أمامي منفوشة الشعر وجاحظة العينين. فور مرورها، يصل الجسد المضرَّج لأحد الفتيان، مسود الوجه والذراعين، كأنه خارج من منجم فحم. أمسكت بالعربة التي تنقله وأزحتها جانباً لإخلاء الممر. أتت إحدى الممرضات لمساعدتي.

صرخت: ـ اقتلعت يده.

نصحتها قائلاً : ـ ليس الوقت مناسباً للانهيار. ضعي له مضغطةً لوقف النزيف، وانقليه فوراً إلى غرفة العمليات. لا وقت لدينا نضيعه.

ـ حسناً، دكتور.

ـ أأنت واثقة أنك على ما يرام؟

خلال ربع ساعة، تحول بهو قسم الطوارئ إلى ساحة معركة. تكوَّم فيه ما لا يقل عن مئة جريح، أغلبهم مُسجَّى على الأرض. كل العربات محملة بأجساد مُخلَّعة الأوصال، تخترقها الشظايا اختراقاً مروِّعاً، وبعضها محترقٌ في مواضع عديدة. يتدفق النحيب والعويل في كل أنحاء المستشفى. بين الحين والآخر، تطغى صرخة على الضجيج، تنبئ بوفاة أحد الضحايا. تموت ضحية بين يدي بدون أن تدع لي الوقت لأعاينها. تخبرني كيم أن غرفة العمليات مكتظة، وأنه لا بد من نقل الحالات الخطرة إلى الغرفة 5.

يطالب أحد الجرحى بأن يحصل على الرعاية فوراً. ظهره مسلوخ بالعرض، وقد نتأ جزء من عظمة الكتف. وإذ لم يلمح أحدهم يهب لنجدته، قبض على ممرضة من شعرها. تطلب الأمر تدخل ثلاثة رجال أقوياء كي يرخي قبضته. على مقربةٍ من هذا المشهد، يعولُ جريح محتجز بين عربتين نقالتين، متلوياً كمن أصيب بمسٌ. انتهى به الأمر أن هوى أرضاً لفرط ما تقلب واختلج. راح يسدِّد لكماتٍ في الهواء، وكان جسده مثخناً بالجراح. تبدو الممرضة التي تهتم به حائرة في ما تفعل. أشرقت عيناها حين لمحتني:

ـ دكتور أمين، بسرعة، بسرعة...

وفجأة، تصلَّب المريض: تأوهاته، واختلاجاته، ورفساته، تجمد كل جسده، وتهالكت ذراعاه على صدره، على غرار دمية متحركة قطعت الحبال التي تحرِّكها. بأقل من لمح البصر، تحرَّرت ملامحه المحتقنة من ألمها، واستبدلت بتعبير معتوه قوامه الغضب البارد والتقزز. لحظة انحنيتُ عليه، هدَّدني بعينيه، وقلب شفتيه في تكشيرة مغتاظة.

زمجر وهو يدفعني بيد حقودة قائلاً: ـ أفضل الموت على أن يلمسني عربيّ.

قبضتُ على معصمه، وأطبقتُ ذراعه بحزمٍ على خاصرته.

قلتُ للممرضة: ـ لا تفلتيه. سأعاينه.

تذمَّر الجريح : ـ لا تلمسني. إياك أن تضع يديك عليّ.

بصق عليّ، ولكن بصاقه الواهن تساقط على ذقنه، مرتعشاً ومطاطياً، فيما بللت دموعٌ ساخطة رموشه. أزحتُ سترته. بطنه مجرد عصيدة إسفنجية تنضغط لدى أقل جهد يبذله. فقد الكثير من دمائه، وصرخاته تزيد النزيف.

ـ يجب أن يخضع لعملية جراحية في الحال.

أومأتُ إلى أحد الممرضين أن يساعدني لنضع الجريح ثانية على النقالة، ثم أبعدتُ العربات النقالة التي تعترض سبيلنا، وهرعت إلى غرفة العمليات. كان الجريح يحدجني بعينين حقودتين تكادان تنقلبان في محجريهما اشمئزازاً. حاول أن يعترض، ولكن تشنجاته أرهقته. أشاح بوجهه، مجندلاً، لئلا يضطر لمواجهتي، واستسلم للخدر الذي كان يستولي عليه.

2

غادرت غرفة العمليات قرابة العاشرة ليلاً.

لا أعرف كم شخصاً أجريتُ له عملية جراحية. كلما فرغتُ من أحدهم، فتح باب غرفة العمليات على مصراعيه، ودخلت نقالة جديدة. لم يستغرق بعض العمليات وقتاً طويلاً، ولكن بعضها الآخر أرهقني بكل ما للكلمة من معنى. جسدي متشنج تماماً، ومفاصلي مُخدَّرة. بين الحين والآخر، كان بصري يغشى، والدوار يعتريني. حين كاد فتى يلفظ أنفاسه بين يدي، ارتأيتُ أن أترك مكاني لجراح آخر. أما كيم فقد فقدت ثلاثة أشخاص، الواحد تلو الآخر، كأن لعنةً تستمتع بتحويل جهودها إلى هباء. غادرت الغرفة 5 وهي تصبُّ على نفسها اللعنات. أظن أنها صعدت إلى مكتبها لتذرف كل ما في جسدها من دموع.

أفاد عزرا بن حاييم أن عدد القتلى ارتفع : تسعة عشر قتيلاً، من بينهم أحد عشر تلميذاً كانوا يحتفلون

بعيد مولد رفيقتهم في مطعم الوجبات السريعة المستهدف، وأربع عمليات بتر أعضاء، وثلاث وثلاثين حالة خطرة. خرج حوالي أربعين جريحاً من المستشفى برفقة أقاربهم، ورجع آخرون إلى منازلهم بوسائلهم الخاصة بعد الخضوع للعلاجات العاجلة.

في بهو الاستقبال، يقضم بعض الأهل أظافرهم، وهم يذرعون الصالة بخطى من يمشون في نومهم. لا يبدو أنهم يدركون حقاً بأغلبيتهم حجم المصيبة التي ألمت بهم. تتشبث أم ملتاعةٌ بذراعي، وهي ترمقني بنظرات حادة. "كيف صغيرتي يا دكتور؟ هل ستنجو؟"... يقترب أحد الآباء؛ ابنه في غرفة الإنعاش. يريد أن يعرف لماذا استغرقت العملية الجراحية كل هذا الوقت."إنه في الداخل منذ ساعات طويلة. ماذا تفعلون به؟". تنهال على الممرضات بدورهن الاستفسارات الملحة نفسها. يجهدن قدر المستطاع لتهدئة الخواطر، ويعدن بالحصول على المعلومات المطلوبة منهن. أطمئنُ رجلاً مسناً تلمحني أسرة وتهمُّ بالاندفاع نحوي. أجد نفسي مضطراً للانسحاب، وسلوك الباحة الخارجية، والدوران حول المبنى بالكامل للذهاب إلى مكتبي.

كيم غير موجودة في مكتبها. بحثتُ عنها في مكتب إيلان روس، ولكن روس لم يصادفها، ولا الممرضات كذلك.

بدلتُ ثيابي للعودة إلى البيت.

في المرأب، يروح بعض رجال الشرطة ويجيئون في جو محموم مخنوق. يمتلئ الصمت بخشخشة أجهزتهم اللاسلكية. يوجه أحد الضباط الأوامر من سيارة رباعية الدفع، ورشاشه على لوحة القيادة.

أعود إلى سيارتي، منتشياً بالنسمة المسائية. سيارة النيسان التي تخص كيم مركونة في الموقع الذي وجدتها فيه هذا الصباح، وقد أخفض زجاجها الأمامي إلى النصف بسبب الحرّ. استنتجتُ أن كيم لم تغادر المستشفى، ولكن إعيائي الشديد يمنعني من البحث عنها.

لدى خروجي من المستشفى، كانت المدينة تبدو هادئة. لم تبدل المأساة التي عصفت بها عاداتها. تجتاح صفوف لا تنتهي من السيارات خط (بتاه تكفاه) الإضافي. تعج المقاهي والمطاعم بالزبائن. يكتسح الساهرون الأرصفة. أسلك جادة (جيفرول) حتى (بيت سوكولوف) حيث يرغم حاجز تفتيش، نصبته الشرطة إثر الاعتداء، السائقين على تفادي حي (حكيرية) الذي تعزله عن بقية المدينة تدابير أمنية مشددة. أفلحتُ في التسلل حتى شارع (حسمونعيم) الغارق في صمت كوكبي. في البعيد، أستطيع أن ألمح المطعم الذي نسفه الانتحاري. يحيط خبراء الشرطة الجنائية بموقع الاعتداء، يرفعون البصمات ويأخذون العينات. تخلعت

واجهة المطعم من أولها إلى آخرها؛ وانهار السقف على كامل الجناح الجنوبي، مخططاً الرصيف بخطوط سوداء. يتمدد عامود إنارة مقتلع في عرض الطريق المغطى بكل أنواع الردم. لا بد أن الصدمة كانت شديدة، فقد تحطم زجاج الأبنية المحيطة بالمطعم، وتهاوى بعض الواجهات.

أمرني شرطي انبثق من حيث لا أدري: ـ لا تبقَ هنا.

مسح سيارتي ببطاريته التي سدد ضوءها أولاً نحو لوحة التسجيل ثم نحوي. تراجع قليلاً، ووضع يده الأخرى على مسدسه.

حذرني قائلاً: ـ لا تأتِ بحركة مباغتة. أريد أن أرى يديك على المقود. ماذا تفعل هنا؟ ألا ترى أن الموقع مطوَّق؟

ـ إنني عائد إلى بيتي.

اقترب شرطي آخر ليساعد زميله.

ـ من أين مرَّ هذا الرجل؟

أجاب الشرطي الأول: ـ ليست لدي أدنى فكرة.

جال الشرطي الثاني كذلك بمصباحه عليّ، وتفرَّس في ملامحي بنظرة متوعدة ومرتابة.

ـ أوراقك الثبوتية!

ناولته إياها. تحقَّق منها، سلَّط مصباحه على وجهي. ارتاب بسبب إسمي العربي. هذا ما يحدث

دائماً بعد كل اعتداء. يكون عناصر الشرطة مستنفرين، وتعزز السحنات المريبة حساسيتهم.

أمرني الشرطي الأول: ـ أخرج، وقِف أمام السيارة.

امتثلت للأمر. قذفني بعنف على سقف سيارتي. ثم باعد بين ساقي بقدمه، وأخضعني لتفتيش منهجي.

ذهب الشرطي الآخر للتحقق من محتوى صندوق السيارة.

ـ من أين أنت قادم؟

ـ من المستشفى. أنا الدكتور أمين جعفري؛ أعمل جراحاً في مركز (إيشيلوف) الطبي. خرجت للتو من غرفة العمليات. أنا مهدود الحيل، وأود العودة إلى بيتي.

قال الشرطي الآخر، مغلقاً غطاء الصندوق: ـ لا بأس. لم أعثر على أي شيء مريب.

رفض الآخر أن أمضي في سبيلي. ابتعد قليلاً، وبلَّغ مركز الشرطة عن هويتي والمعلومات التي حصل عليها من رخصتي للسوق وبطاقتي المهنية. "إنه عربي يحمل الجنسية الإسرائيلية. يقول إنه خرج للتو من مستشفى (إيشيلوف) حيث يعمل جراحاً...جعفري، بالعَيْن...إتصلْ بإيشيلوف وتحقق من الأمر...". بعد خمس دقائق، يعود، أرجع لي أوراقي الثبوتية، وبنبرةٍ حاسمة، أمرني بالعودة أدراجي بدون أن ألتفت.

وصلت إلى البيت الساعة الحادية عشرة ليلاً، مُترعاً من التعب والغيظ. أوقفتني أربع دوريات في الطريق، وفتشتني تفتيشاً دقيقاً. عبثاً أبرزتُ أوراقي وجاهرتُ بمهنتي، فرجال الشرطة لم يبالوا إلا بسحنتي. في إحدى المرات، صوَّب شرطيٌّ شاب، إذ لم يتحمل احتجاجاتي، سلاحه نحوي، وهدَّد بإفراغ رصاصاته في رأسي إذا لم أخرس. تطلب الأمر التدخل العنيف للضابط كي يضبط سلوكه.

تنفستُ الصعداء لأنني وصلت إلى شارعي سالماً.

لم تفتح لي سهام. لم ترجع بعد من كفركنّا. ونسيت الشغالة أن تمر للتنظيف. وجدت سريري مبعثراً كما تركته هذا الصباح. تفحصت الهاتف. لا رسائل على المجيب الآلي. بعد مثل هذا النهار المضطرب الذي عانيت منه، لا يشغل بالي غياب زوجتي أكثر من اللازم. اعتادت تمديد إقامتها عند جدتها في اللحظة الأخيرة بدافع نزوة. تعشق سهام المزرعة والسهرات المتأخرة على ربوةٍ يغمرها القمر بضوئه اللطيف.

قصدتُ غرفتي لتبديل ثيابي. تلكأت أتأمل صورةً لسهام تتوسط المنضدة قرب السرير. ابتسامتها عريضة مثل قوس قزح ولكن نظرتها شاردة. لم تدللها الحياة. في الثامنة عشرة، فقدت أمها التي توفيت جراء مرض

عضال، ثم أبيها الذي قضى في حادث سير بعد بضع سنوات، واستغرقت دهراً لتوافق على الزواج بي. خشيت أن يعود القدر الذي لم يرحمها فيطيح بها مرة أخرى. بعد عشر سنوات من الحياة الزوجية، وعلى الرغم من الحب الذي أغدقته عليها، ظلت تخشى على سعادتها، ويترسَّخ لديها اليقين بأن أي شيء قد ينغصها. ومع ذلك، لم يتوقف الحظ عن رفد طاحونتنا بالماء. حين تزوجت بي سهام، كانت ثروتي تقتصر على سيارة قديمة مصابة بالربو تتعطل باستمرار عند كل زاوية شارع. انتقلنا للعيش في مساكن شعبية لا فرق بينها وبين جحور الأرانب. أثاثنا من الفورميكا، ونوافذنا لا تعرف الستائر. واليوم، نقطن في دارة خلابة تقع في أحد أرقى أحياء تل أبيب، ولدينا حساب مصرفي محترم. وكل صيف، نسافر إلى أحد بلدان الأحلام. زرنا باريس، وفرانكفورت، وبرشلونة، وأمستردام، وميامي، وجزر الكاريبي؛ ولدينا وفرة من الأصدقاء الذين يحبوننا ونحبهم. غالباً ما نستقبل الضيوف في بيتنا، وندعى إلى سهرات اجتماعية. نجحتُ في بناء سمعة مرموقة في المنطقة إذ حصدتُ مراراً الجوائز على أبحاثي العلمية وجودة أدائي. ولدينا في عداد أصدقائنا وكاتمي أسرارنا وجهاءُ ومسؤولون

مدنيون وعسكريون، وكذلك بعض النافذين في عالم الفن والاستعراض.

خاطبت صُورة سهام: ـ تبتسمين مثلما يبتسم الحظ يا حبيبتي. ليتك فقط تغمضين عينيك بين الحين والآخر.

قبّلتُ إصبعي، ووضعته على ثغر سهام، ثم هرولتُ إلى الحمام. بقيتُ عشرين دقيقة تحت دش ساخن، ثم انتقلتُ إلى المطبخ، مرتدياً برنس الحمام، لأتناول شطيرة. بعد أن نظفتُ أسناني، دخلتُ إلى غرفتي، انزلقتُ في الفراش، وتناولتُ قرصاً لأنعم بنوم عميق...

رنَّ الهاتف في داخلي مثل المثقاب، فزعزعني، من رأسي إلى أخمص قدمي، كشحنة كهربائية. بحثت، مصعوقاً، بيدي المتلمسة عن مفتاح الإنارة بدون أن أفلح في تحديد موضعه. ظل رنين الهاتف يستثير حواسي. أنبأتني نظرةٌ مني إلى المنبه أنها الساعة 20: 3 فجراً. من جديد، مددتُ يدي في العتمة، حائراً بين رفع السماعة أو إشعال النور.

أوقعتُ شيئاً كان على المنضدة قرب السرير، وأعدت الكرة مراراً قبل أن أتمكن من إمساك السماعة.

كاد الصمت الذي أعقب ذلك يوقظني.

ـ آلو؟...

سمعتُ رجلاً يقول لي: ـ أنا نافيد.

استغرقتُ بعض الوقت للتعرف إلى الصوت المُخرَّش لنافيد رونين، وهو مسؤول رفيع في الشرطة. أتلف قرص المنوم الذي تناولته ذهني. تراءى لي أنني أدورُ ببطء في مكان ما، وأن الحلم الذي يراودني، في هذه الحالة بين الخدر والنعاس، يبعثرني عبر أحلام مبهمة أخرى، مشوِّهاً بشكل مضحك صوت نافيد رونين الذي يبدو، هذا المساء، كأنه خارجٌ من بئر.

أبعدتُ الأغطية لأكون في وضعية الجلوس. انتفض دمي في عروق صدغي. عليّ أن أستمدَّ من أعماقي القوة لتنظيم تنفسي.

ـ نعم، نافيد؟...

ـ أتصلُ بك من المستشفى. يحتاجون إليك هنا.

في عتمة غرفتي، يلتف العقربان الفوسفوريان، فيفرزان ذيولاً مائلة للخضرة .

تزن السماعة في قبضتي مثل السندان.

ـ نافيد، لقد غفوتُ منذ قليل. أجريتُ عمليات طوال النهار، وأنا متعب مكدود. الدكتور إيلان روس مداومٌ في المستشفى، وهو جراح ممتاز...

ـ آسف، عليك أن تأتي. إذا كنت لا تشعر بأنك على ما يرام، فسأرسل من يحضرك .

قلت له، عابثاً بشعري: ـ لا أظن أن ذلك ضروري.

سمعتُ نافيد يتنحنح ، وتنبهتُ لتنفسه اللاهث. استرجعتُ توازني ببطء، وبدأت أرى بوضوح من حولي.

لمحتُ عبر النافذة سحابةً متداخلةً تحاول أن تلتف حول القمر. وفي الأعلى، لاحت آلاف النجوم كالحَباحِب. لا دبيب في الشارع لكأن المدينة أخليتْ أثناء نومي.

ـ أمين؟...

ـ ماذا؟

ـ لا تستعجل. لدينا كل الوقت.

ـ إذا لم تكن هنالك حالة طارئة، فلم لا؟ ...

قاطعني : ـ أرجوك. أنا بانتظارك.

أجبتُ بدون أن أحاول كثيراً أن أفهم قصده : ـ حسناً. هلا تسدي لي خدمة صغيرة؟

ـ هذا يتوقف على نوعها...

ـ أخطِرْ حواجز التفتيش والدوريات بمروري. لقد كان رجالك متوترين جداً، منذ قليل، حين كنت في طريقي إلى البيت.

ـ أما زلت تقود سيارة الفورد البيضاء نفسها؟

ـ أجل.

ـ سأبلغهم.

أقفلت الخط، وبقيت لوهلة أحملق في السماعة،

مستغرباً طبيعة هذا الاتصال، ونبرة نافيد الغامضة، ثم ارتديت سروالي وذهبت إلى الحمام لأغسل وجهي.

كانت سيارتا شرطة وسيارة إسعاف تتبادل وميض الأنوار الدوَّارة لمصابيحها الكهربائية في باحة قسم الطوارئ. بعد جلبة النهار، يستعيد المستشفى هيئة مأوى العجزة. ينتظر بعض عناصر الشرطة بالبدلة الرسمية هنا وهناك، بعضهم يسحب أنفاساً عصبية من سجائره، وبعضهم الآخر يترقب داخل السيارات. ركنتُ سيارتي في المرأب وتوجهت إلى بهو الاستقبال. برد الليل قليلاً، وجاءت نسمة خفية من البحر، أفسدتها روائح فيها شيءٌ من الحلاوة. تعرفت إلى الهامة المخلعة لنافيد رونين واقفة على درجة سلم. ينحني كتفه بوضوح على ساقه اليمنى التي اقتطع حادثٌ أربعة سنتمترات منها قبل عشر سنوات. أنا من عارض استئصالها. في تلك الفترة، كنت قد أثبتّ مهارتي في الجراحة بعد سلسلة من العمليات الناجحة. كان نافيد رونين من أكثر مرضاي جاذبية. يتحلى بمعنويات حديدية وبحس دعابة خاضع للنقاش لا ريب إنما مواظب. هو الذي أخبرني الدعابات السفيهة الأولى عن الشرطة. ولاحقاً، أجريت عملية جراحية لوالدته، الأمر الذي عزز تقاربنا. ومنذ ذلك الحين، كلما احتاج أحد زملائه أو أقاربه إلى جراحة، يعهد به إلي.

كان الدكتور إيلان روس خلفه مستنداً إلى فرجة المدخل الرئيسي. تزيد أضواء بهو الاستقبال قباحة شكله الجانبي. يحدق إلى الأرض شارد الذهن، وقد وضع يديه في جيوب ردائه الأبيض وكرشه على ركبتيه.

فارق نافيد السلم واقترب لاستقبالي. كانت يداه كذلك في جيوبه، ونظرته تتحاشى أن تلتقي بنظرتي. فطنتُ أمام هيئته أن الفجر لن يبزغ قريباً.

قلت على الفور للاحتيال على الحدس الذي تملكني: ـ سأصعد في الحال لتبديل ثيابي.

بادرني نافيد بصوت يخلو من أية نبرة: ـ لا داعي لذلك.

غالباً ما تعاطيتُ مع تعبيره المخذول حين كان يحضر لي بعض زملائه على نقالة، ولكن التعبير الذي يرتسم على وجهه هذا المساء يتفوق على كل تعابيره السابقة.

خدشت ظهري قشعريرةٌ قبل أن تنقل زحفها المتسلل إلى صدري.

سألته: ـ هل مات المريض؟

رفع نافيد عينيه أخيراً نحوي. قلما لمحتُ عينين بمثل هذه التعاسة.

ـ لا يوجد مريض يا أمين.

ـ في هذه الحالة، لماذا أخرجتني من فراشي في

مثل هذه الساعة إذا لم يكن هنالك من مريض عليه أن يخضع للجراحة؟

يبدو على نافيد أنه لا يعرف من أين يبدأ. يعزز إحراجه الدكتور روس الذي راح يتلوى بصورة مزعجة. تفرّست في وجهيهما، وقد اشتد انزعاجي بسبب هذا التكتم الذي يحافظان عليه بارتباك متعاظم.

قلتُ لهما: ـ هلا يشرح لي أحدهم ماذا يجري؟

انفصل الدكتور روس بانتفاضةٍ عن الجدار الذي كان متكئاً عليه، ودخل إلى بهو الاستقبال حيث تظاهرت ممرضتان ظهر عليهما الضيق جلياً باستشارة شاشة حاسوبهما.

تحلّى نافيد بالشجاعة وسألني:

ـ هل سهام في البيت؟

أحسستُ بربلتيَّ تتهالكان، ولكني سيطرت عليّ نفسي سريعاً.

ـ لماذا؟

ـ أمين، هل هي في البيت؟

كانت نبرته ملحة، ولكن نظرته تطفح هلعاً.

قبض على أحشائي مخلبٌ جليدي. تمنعني تفاحة آدم العالقة في حلقي من ابتلاع ريقي.

أجبته: ـ لم ترجع بعد من عند جدتها. ذهبت منذ ثلاثة أيام إلى كفركنّا، قرب الناصرة، لتزور أهلها... ماذا تقصد؟ ماذا تريد أن تقول لي؟

تقدم نافيد خطوة. تشوّشني رائحة تعرُّقه ، تستثير الاضطراب الذي بدأ يجتاحني. لم يعد صديقي يعرف إن كان عليه أن يطوّق كتفي أو يبعد يديه عني.

ـ ماذا يجري، بربك؟ أتمهِّد الطريق لإعلان الأسوأ أم ماذا؟ هل تعطلت الحافلة التي كانت تقل سهام في الطريق؟ انقلبت، أليس كذلك؟ هذا ما تحاول أن تقوله لي.

ـ أمين، لا يتعلق الأمر بحافلة.

ـ بماذا يتعلق إذن؟

أعلن رجل ربع القوام، فظ الهيئة، برزَ خلفي: ـ لدينا جثة وعلينا أن نحدد هويتها.

التفتُ سريعاً نحو نافيد.

استسلم قائلاً: ـ أعتقد أنها زوجتك يا أمين، ولكننا بحاجة إليك لنتأكد.

أحسستُ بنفسي أتشظّى...

أمسك بي أحدهم من مرفقي لئلا أتداعى. في أقل من لمح البصر، تلاشت كل معالمي. لم أعد أدري أين آل بي المطاف، أو أتعرف حتى إلى الجدران التي احتضنت مسيرتي الطويلة كطبيب جراح...تساعدني اليد التي تمسك بي على السير في رواق يتلاشى. يشرط بياض الضوء بمشرطه دماغي. يتراءى لي أنني أتقدم على سحابة، وأن قدميَّ تغوصان في التراب. أصل إلى المشرحة مثلما يصل المحكوم بالإعدام إلى المشنقة.

يسهر أحد الأطباء على مذبح...المذبح مغطى بملاءة ملطخة بالدماء... تحت الملاءة الملطخة بالدماء، يلمح المرء بقايا أعضاء بشرية...

فجأة، أرهبُ النظرات التي تلتفت نحوي.

يرجع صدى صلواتي عبر كياني مثل لغط جوفي.

انتظر الطبيب أن أسترجع شيئاً من تبصّري ليمد يده إلى الملاءة، مترقباً ليزيحها إشارةً من ذلك الرجل الفظ الذي قابلته منذ قليل.

أومأ له الضابط بذقنه أن يفعل.

صرخت: ـ يا إلهي!

شاهدتُ أجساداً مشوهة في حياتي، ورقَّعتُ منها العشرات؛ كان بعضها معطوباً يستحيل التعرف إليه، ولكن الأعضاء الممزَّقة التي أراها أمامي، هنا على الطاولة، تفوق كل وصف. إنه الرعبُ ببشاعته المطلقة... وحده رأس سهام الذي وفرته على نحو يدعو للعجب الأضرار التي شوهت بقية جسدها، يبرز، بعينيه المغمضتين، وفمه المشقوق، وملامحه المستكينة كأنها تحرَّرت من هواجسها... يخال للناظر إليها أنها ترقد بسلام، وأنها سوف تفتح عينيها على حين غرة، وتبتسم لي.

هذه المرة، تهالكت ساقاي، ولا اليد المجهولة ولا يد نافيد كان بمقدورهما الإمساك بي.

3

فقدتُ بعض مرضاي فيما كنت أجري لهم عملية جراحية. لا يخرج المرء من هذا الفشل سالماً تماماً. ولكن المحنة لا تقتصر فقط على هذا المستوى؛ فالأمر يتطلب، علاوةً على ذلك، إعلان النبأ الفظيع لأهل الميت الذين يحبسون أنفاسهم في قاعة الانتظار. سأذكر ما حييت نظرتهم المتوجسة التي ترمقني خارجاً من غرفة العمليات. نظرة حادة ونائية في آن، مفعمة بالأمل والخوف، هي نفسها لا تتغير، شاسعة وعميقة مثل الصمت الذي يؤازرها. في تلك اللحظة بالذات، كنت أفقد ثقتي بنفسي، وأخشى كلامي، والصدمة التي سيحدثها. أتساءل كيف سيتلقى الأبوان النبأ، وماذا سيخطر ببالهما حالما يدركان أن المعجزة لم تحصل.

اليوم، أتى دوري لأتلقى النبأ. ظننتُ أن السماء تهوي على رأسي حين أزيحت الملاءة التي تغطي ما

تبقى من سهام. ومع ذلك، ومما يدعو للمفارقة، لم يخطر ببالي شيء.

ما زلت على حالي، متداعياً في أريكة، لا يخطر ببالي شيء. في رأسي فراغ. أجهل إن كنت في مكتبي أم في مكتب أحدهم. أرى شهادات معلقة على الحائط، وستائر معدنية مرفوعة، وظلالاً تروح وتجيء في الرواق، ولكن الأمور تبدو كأنها تجري في عالم موازٍ قذفتُ فيه بدون سابق إنذار أو أدنى تحفظ.

أشعر أني مصابٌ بالعطب، أنني أهذي، أن كل ما فيَّ من نسيجٍ حيٍّ قد أزيل .

أنا مجرد حزن هائل متقوقع تحت غطاء من الرصاص، لا أدري إن كنت مدركاً للمصاب الذي ألمَّ بي أم أن هذا المصاب قد صرعني أصلاً.

أحضرت لي إحدى الممرضات كوب ماء وانسحبت على رؤوس أصابعها. لم يبق نافيد معي طويلاً. جاء رجاله يبحثون عنه. تبعهم بصمت، وقد تهدَّل ذقنه على عنقه. عاد إيلان روس إلى مناوبته. لم يقترب مني ولو مرة واحدة لمواساتي. لم أنتبه إلا لاحقاً أنني وحدي في المكتب. وصل عزرا بن حاييم بعد عشر دقائق من ذهابي إلى المشرحة. كان في حالة متقدمة من الإجهاد، يترنَّح تعباً. عانقني وضمني بشدة إلى صدره. لم يعرف ماذا يقول لي، وقد تجمد الكلام في حلقه. ثم جاء

روس وانتحى به جانباً. لمحتهما يتناقشان في الرواق. كان روس يهمس في أذنه، وعزرا يهزُّ رأسه بمزيد ومزيد من المشقّة. استند إلى الحائط لئلا يتهاوى، ثم توارى عن نظري.

أسمع سيارات في الباحة، أبوابها تنصفق. وعلى الفور، يتردَّد وقع خطى في الأروقة، مغلفاً بحفيف وتأفف. تعبر ممرضتان تحثان الخطى وتجرّان عربة شبحية. تكتسح طقطقة النعال الطابق، تملأ الرواق، تقترب؛ يتوقف رجال متجهمون قبالتي. ينفصل أحدهم، وهو قصير القامة، أجلح الرأس، عن المجموعة. إنه ذلك الرجل الفظ الذي كان يتذمر بسبب عثوره على جثة، ويريد أن أساعده على التعرف إليها.

ـ أنا النقيب موشي.

يرافقه نافيد رونين، منكفئاً خطوتين إلى الوراء. يبدو صديقي نافيد هزيلاً. يلوح مهمَّشاً، مركوناً في الزاوية. بالرغم من رتبته الرفيعة، أحيل فجأة إلى دور الكومبارس.

أبرز النقيب وثيقة.

ـ لدينا أمرٌ بالتفتيش، يا دكتور جعفري.

ـ تفتيش؟...

ـ سمعتني جيداً. أرجو أن ترافقنا إلى بيتك.

حاولتُ أن ألمح بريقاً ما في عيني نافيد، ولكن صديقي غضَّ الطرف. التفتُ نحو النقيب.

ـ لماذا بيتي؟

طوى النقيب الوثيقة أربع مرات، ودسَّها في الجيب الداخلي لسترته.

ـ تشير الخيوط الأولى للتحقيق إلى أن تقطيع الأوصال الذي أصاب جسد زوجتك يبرز جروحاً من تلك التي تُصادف على أجساد الانتحاريين الأصوليين.

أتبين بوضوح كلام الضابط، ولكنني لا أستوعبه. ثمة شيء ما يقبض على ذهني، مثل قوقعة تنغلق فجأة أمام تهديد خارجي.

شرح لي نافيد:

ـ لا يتعلق الأمر بقنبلة إنما بعملية انتحارية. أغلب الظن أن الشخص الذي فجر نفسه في المطعم هو زوجتك يا أمين.

خارت الأرض تحت قدمي؛ ومع ذلك، لم أغرق، ربما بدافع الغيظ أو الاستسلام. أرفض أن أسمع كلمة إضافية. لم أعد أتعرف إلى العالم الذي أعيش فيه.

يهرع الصاحون باكراً إلى المحطات ومواقف الحافلات. تستفيق تل أبيب على وضعها، أكثر عناداً من أي وقت مضى. مهما كان حجم الأضرار، ما من كارثة ستمنع الأرض من الدوران.

أنظر إلى الأبنية تمر أمام ناظري على جهتي

الطريق، محشوراً بين رجلين فظين على المقعد الخلفي لسيارة الشرطة، وإلى النوافذ المضاءة التي ترتسم عليها، في بعض الأحيان، ظلالٌ خاطفة. يدوي هدير شاحنة عبر الشارع مثل صوت خيمرٍ ناعس تقلقلَ نومُه. ثم من جديد، الصمت المترنح لصباحات أيام العمل. ينتفض سكيرٌ وسط ساحة، على الأرجح لمحاولة طرح القمل الذي ينهش لحمه. عند إشارة مرور، يراقب شرطيان بتيقّظ، عيناً إلى الخلف، وأخرى إلى الأمام، مثل عظّاءتين.

يخيم الصمت في السيارة. يلتصق السائق بمقوده. إنه عريض المنكبين يخال للمرء أن عنقه مضغوط بمدقّة لشدة قصره. مرة واحدة، لامستني نظرته في المرآة العاكسة، فأثارت في بدني القشعريرة..."تشير الخيوط الأولى للتحقيق إلى أن تقطيع الأوصال الذي أصاب جسد زوجتك يبرز جروحاً من تلك التي تصادف على أجساد الانتحاريين الأصوليين". أشعر أن هذه المعلومات سوف تلاحقني حتى مماتي. إنها تتعاقب في ذهني، أولاً بحركة متباطئة، ثم تتجاسر وتحاصرني من كل الجهات، كما لو أنها تتغذى من إفراطاتها. يظل صوت الضابط، طاغياً وواضحاً، واعياً كل الوعي للخطورة البالغة التي تتسم بها تصريحاته: "المرأة التي فجرت نفسها...الانتحارية...إنها زوجتك...". يتمرد ذلك

الصوت الذي يلفظني؛ يرتفع مثل موجة مظلمة، تغمر أفكاري، تحيل إرباً شكوكي قبل أن تنحسر فجأة، حاملة معها أجزاءً كاملة من كياني. ريثما أستوضح ألمي، تعود فتنبثق من موجات القعر، وهي تطنُّ وتزبد، تهجم عليّ، كما لو أنها تسعى، إذ جن جنونها بسبب حيرتي، لتفكيكي عصباً تلو الآخر إلى أن تحطمني...

يخفض الشرطي الجالس إلى يساري الزجاج. تصفع وجهي نفحة هواء عليل. تذكّر الروائح النتنة القادمة من البحر ببيضة فاسدة.

يتهيأ الليل ليطوي خيامه فيما يتململ الفجر عند أبواب المدينة. من خلال شق الأبنية، تتسنى رؤية الخدش المتقيح الذي يُصدِّع بانتظام ذيول الأفق. إنه ليل مهزوم ينسحب، مخدوعاً ومذهولاً، مثقلاً بالأحلام الميتة والشكوك. في السماء التي غاب فيها أيُّ أثر لأغنية عاطفية، ما من سحابة تقترح تلطيف الحماس الساطع للنهار الذي يبزغ ولكنه لن يشيع الدفء في روحي ولو كان نوره وحياً إلهياً.

يستقبلني الحيُّ بفتور. تقف عربة مساجين أمام دارتي. ينتشر عناصر شرطة على يمين بوابتي ويسارها. تدع سيارة أخرى، نصفها مركونٌ على الرصيف، الأضواء الزرقاء والحمراء لمصباح الإنذار تدور حول

نفسها. تحترق بقايا السجائر في العتمة، شبيهة ببثور متهيّجة.

أنزلوني من السيارة.

دفعت البوابة، دخلت إلى حديقتي، ارتقيت درجات المدخل، فتحت باب منزلي. أنا صاحٍ، وأنتظر، في الوقت نفسه، أن أستيقظ.

دخل رجال الشرطة الذين كانوا يعلمون بالضبط مهمتهم إلى البهو، وهرعوا إلى الغرف لمباشرة التفتيش.

أشار النقيب موشي إلى أريكة في الصالون.

ـ هلا نتحدث قليلاً على انفراد؟

قادني إلى الأريكة بحركة لبقة إنما حازمة. يحاول أن يكون على مستوى صلاحياته، شديد الاهتمام برتبة الضابط التي يحملها، ولكن لباقته الفائقة تخلو من المصداقية. إنه مجرد وحش ضارٍ واثق من مناورته، بعد أن حوصرت الفريسة مثل الهرّ الذي يلهو مع الفأر، ويدع المتعة تدوم قبل أن يلتهمه.

ـ تفضل بالجلوس.

أخرجَ سيجارة من علبة، نفضها على ظفره، وأحكمها في زاوية فمه. نفخ الدخان صوبي بعد أن أشعلها بقداحة.

ـ أرجو ألا يزعجك أن أدخن سيجارة.

نفث الدخان مرتين أو ثلاث مرات، وتأمل سحب الدخان تتصاعد إلى أن تماهت مع السقف.

ـ إنها تذهلك، أليس كذلك؟

ـ عفواً ؟

ـ عذراً، أعتقد أنك لم تزل تحت وقع الصدمة.

لامست عيناه اللوحات المعلقة على الجدار، واستعرضتا الزوايا، وانزلقتا على الستائر المهيبة، ثم تلكأتا هنا وهناك، وعادتا لتحاصراني.

ـ كيف بوسع المرء التخلي عن هذا الترف؟

ـ عفواً؟

قال لي، ملوّحاً بسيجارته على سبيل الاعتذار:

ـ إنني أفكر بصوت مسموع... أحاول أن أفهم، ولكن ثمة أموراً لن أفهمها أبداً. هذا عبثي للغاية، وغبي للغاية... هل تعتقد أنه كان بمقدورك أن تردعها؟... كنت بالتأكيد على علمٍ بخطتها، أليس كذلك؟

ـ ماذا تقول؟

ـ كلامي واضح...لا ترمقني بهذه النظرة. هل ستقنعني بأنك لا تعلم شيئاً؟

ـ عمن تتكلم؟

ـ عن زوجتك يا دكتور، عما اقترفته.

ـ ليست هي. لا يمكن أن تكون هي.

ـ ولم لا؟

لا أجيبه بل أكتفي باحتضان رأسي بين يدي لاستعادة هدوئي. يمنعني، وبيده الأخرى، يرفع ذقني بحيث يحدّق إلى عيني مباشرة.

ـ هل تمارس الشعائر الدينية يا دكتور؟

ـ لا.

ـ وزوجتك؟

ـ لا.

يقطب جبينه.

ـ لا؟

ـ كانت لا تصلي إن كان هذا ما تقصده بممارسة الشعائر الدينية.

ـ غريب...

وضع طرف مؤخرته على ساعد الأريكة المقابلة. شبك ركبتيه، وغرز مرفقه في أحد فخذيه، ثم تناول برفقٍ ذقنه بين إبهامه وسبابته، وقد ضيَّق عينيه بسبب دخان السيجارة.

استقرت نظرته المعكَّرة على نظرتي.

ـ ألم تكن تصلي؟

ـ لا.

ـ ولا كانت تصوم رمضان؟

ـ بلى...

ـ هكذا إذاً!...

مسَّد عظمة أنفه ونظرته لا تفارقني.

ـ باختصار، إنها مؤمنة مترددة... لإبعاد الشبهات والنضال بهدوءٍ في مكان ما. لا ريب أنها كانت تنشط في جمعية خيرية أو شيء من هذا القبيل؛ فهذه الجمعيات تشكل تمويهاً ممتازاً تسهل جداً الاستعانة به في حال وقوع مشاكل، إنما التطوع الخيري يخفي دائماً قضية تحمل فوائد جمة، المال للأذكياء، وركن من الجنة للبسطاء. أنا على دراية بذلك، فهذه مهنتي. لطالما ظننتُ أنني بلغتُ قعر الغباء البشري، وإذ بي أدرك أنني لم أفعل سوى الدوران حول أطرافه...

نفث الدخان في وجهي.

ـ كانت تؤيد كتائب الأقصى، أليس كذلك؟ لا، ليس كتائب الأقصى. يقال إنهم لا يفضلون العمليات الانتحارية. كل هؤلاء الحثالة يتشابهون عندي. فسواءً كانوا ينتمون إلى الجهاد الإسلامي أو إلى حماس، إنهم الزمر نفسها من المسعورين المستعدين للقيام بأي شيء لاستقطاب الأضواء.

ـ لا علاقة لزوجتي بهؤلاء الناس. إنه سوء تفاهم فظيع.

ـ غريب يا دكتور. هذا بالضبط ما يقوله أقارب هؤلاء المختلين حين نقصدهم بعد تنفيذ عملية انتحارية. يقابلوننا كلهم بالهيئة المخبولة نفسها التي ألمحها على

وجهك، وقد تجاوزتهم الأحداث. فهل هذه تعليمة للجميع لكسب الوقت أم أسلوب وقح للاحتيال على الناس؟

ـ إنك تخطئ الظن أيها النقيب.

أمرني بالهدوء بإيماءة من يده قبل أن يشنَّ غارته مجدداً:

ـ كيف كانت البارحة صباحاً حين فارقتها للذهاب إلى عملك؟

ـ ذهبت زوجتي إلى كفركنَّا، عند جدتها، منذ ثلاثة أيام.

ـ لم ترها إذن في الأيام الثلاثة الأخيرة؟

ـ لا.

ـ ولكنك كالمتها هاتفياً.

ـ لا، فقد نسيت هاتفها المحمول في البيت؛ وعند جدتها، لا يوجد هاتف.

سألني وهو يخرج مفكرة صغيرة من الجيب الداخلي لسترته:

ـ ما اسم جدتها؟

ـ حنان شدَّاد.

دوَّن النقيب الاسم.

ـ هل رافقتها إلى كفركنَّا؟

ـ لا، ذهبت بمفردها. أوصلتها صباح الأربعاء إلى

المحطة البرية، وأقلتها الحافلة إلى الناصرة الساعة 15 :8.

ـ هل رأيتها تسافر؟

ـ أجل، فقد غادرتُ المحطة البرية لحظة انطلقتْ الحافلة.

خرج شرطيان من مكتبي محملين بمصنفات من الورق المقوّى، يتبعهم شرطيٌ ثالثٌ يحمل حاسوبي.

ـ إنهم يأخذون ملفاتي.

ـ سنرجعها لك بعد تفحصها.

ـ إنها ملفات سرية، فيها معلومات عن مرضاي.

ـ آسف، علينا التحقق بأنفسنا.

سمعت أبواب منزلي تنصفق، ودروجي وقطع أثاثي تئنُّ في قرقعةٍ وصريرٍ متواصلين.

ـ لنعدْ قليلاً إلى زوجتك يا دكتور جعفري.

ـ أنت تخطئ الظن، حضرة النقيب. لا علاقة لزوجتي بما تتهمها بها. لقد كانت موجودة في ذلك المطعم مثلها مثل الآخرين. لا تحب سهام أن تطبخ لدى عودتها من السفر، فذهبت لتأكل بهدوء خارج البيت...هكذا، بكل بساطة. أشاركها حياتها وأسرارها منذ خمسة عشر عاماً. تعلمتُ أن أعرفها؛ ولو أخفت عني أموراً، لكنت فطنتُ إليها في نهاية المطاف.

ـ دكتور جعفري، لقد تزوجتُ بدوري امرأةً رائعة. كانت مدعاة فخري واعتزازي. تطلّب مني الأمر سبع

سنوات لأكتشف أنها كانت تخفي عني أهمَّ ما على الرجل أن يعرفه عن الإخلاص.

ـ لم يكن لدى زوجتي أي سبب لخداعي.

بحث النقيب عن مكان يتخلص فيه من سيجارته. أومأتُ إلى منضدة زجاجية صغيرة خلفه. سحب نفساً أخيراً، أطول من الأنفاس الأخرى، وسحق بعناءٍ العقب في المنفضة.

ـ دكتور جعفري، الرجل المدرَّب لا يتحرر من الهموم. الحياة شرٌّ متواصل. إنها نفقٌ طويلٌ مزروعٌ بالأفخاخ وبراز الكلاب. وسواءً نهضنا بوثبة واحدة أم بقينا مطروحين أرضاً، فلن يغير ذلك شيئاً. ثمة إمكانية واحدة فقط لتخطي الشدائد: الاستعداد كل نهار، وكل ليلة، للأسوأ... لم تقصد زوجتك ذلك المطعم لتناول وجبة سريعة، بل لتفجيره...

صرختُ منتصباً، متعباً: ـ كفى... منذ ساعة، علمت أن زوجتي قضت في مطعم استهدفه تفجير إرهابي. وعلى الفور، يقال لي إنها الانتحارية. هذا كثير جداً على رجل متعب. دعني أبكي أولاً، ثم اقضِ عليّ، ولكن، بالله عليك، لا تفرض عليّ التأثر والذعر معاً.

ـ دكتور جعفري، إبق جالساً من فضلك.

لشدة ما دفعته بحقد، كاد يقع فوق المنضدة الزجاجية الصغيرة خلفه.

ـ لا تلمسني. إياك أن تضع يديك عليّ.

استعاد توازنه سريعاً وحاول أن يسيطر عليّ.

ـ سيد جعفري...

ـ لا علاقة لزوجتي بهذه المجزرة. إنها عملية انتحارية، بربك، لا شجار ربة منزل! إنها زوجتي، زوجتي التي ماتت.

قتلت في ذلك المطعم المشؤوم. مثل الآخرين. مع الآخرين. إياك أن تلطخ ذكراها. كانت سيدة صالحة، بل كريمة على طرف نقيضٍ مما تلمح إليه.

ـ ذكر أحد الشهود...

ـ أي شاهد؟ وماذا يتذكر؟ القنبلة التي كانت زوجتي تحملها أم وجهها؟ أعيش مع سهام منذ أكثر من خمسة عشر عاماً. أعرفها عن ظهر قلب. أعرف ما بمقدورها وما ليس بمقدورها أن تفعل. يداها ناصعتان، ولو تلطختا بأقل لطخة، لما فاتني ذلك. إذا كانت أكثر الضحايا تشوهاً، فهذا لا يعني أنها مشتبهة. إذا كانت تلك فرضيتك، فلا بد أن ثمة فرضيات أخرى. زوجتي أكثر الضحايا تشوهاً لأنها كانت أكثرهم تعرضاً للانفجار. لم تكن المتفجرة عليها، بل قربها، مخفية على الأرجح تحت مقعدها، أو تحت الطاولة التي تجلس إليها... على حدّ علمي، لا يجيز لكم أي تقرير رسمي التفوّه بمثل هذه الأمور الخطرة. كما أن الكلمة الأخيرة ليست للخيوط الأولى للتحقيق. فلننتظر بيان

الجهة التي أمرت بالتنفيذ. لا بد أن هناك جهةً سوف تتبنى العملية. ربما سترسل أشرطة فيديو لكم ولوسائل الإعلام. ولو كان الأمر يتعلق بانتحاريٍّ، فسنراه ونسمعه.

- لا يفعل هؤلاء المختلّون ذلك منهجياً. أحياناً، يكتفون بإرسال فاكس أو باتصال هاتفي.

- ليس حين يريدون إحداث وقع في النفوس. والمرأة الانتحارية تحقق الوقع المطلوب بهذا المعنى، لا سيما إذا كانت تحمل الجنسية الإسرائيلية ومتزوجة بجرّاح مرموق غالباً ما كان مدعاة فخر لمدينته، ويجسد أنجح اندماج اجتماعي...

- إياك أن تتفوه بأكاذيب عن زوجتي، سيدي الضابط. فهي ضحية هذه العملية، وليست منفذتها. إنصرف، وفي الحال!

هدَّدني النقيب: - إجلس!

سدَّدت لي صرخته الضربة القاضية.

خارتْ ساقاي، وتهالكتُ على الأريكة.

احتضنت رأسي بين يدي، خائر القوى، وتقوقعتُ على نفسي. إنني متعب، مستهلك، غريق؛ تغمرني المياه من كل الجهات. يذلّني النعاس بفظاظة نادرة؛ أرفض أن أغرق. لا أريد أن أنام. أخشى أن أنام وأعلم، المرة تلو الأخرى، حين أستيقظ من أحلامي، أن المرأة التي كنت لا أعشق سواها في هذا العالم

اختفت من الوجود، أنها ماتت ممزقةً في عملية إرهابية. أخشى أن أضطر لمواجهة الكارثة نفسها، المصيبة عينها، كلما صحوت... وهذا النقيب الذي يوبخني، لماذا لا يتحول إلى هباء منثور؟ لوددتُ أن يتلاشى فوراً، أن تتحول الأرواح الضاربة التي تسكن منزلي إلى تيار هواء، أن يحطم إعصارٌ نوافذي ويحملني بعيداً، بعيداً جداً عن الريبة التي راحت تلتهم أحشائي، وتضلل سبيلي، وتملأ قلبي بشكوكٍ رهيبة.

4

يبقيني النقيب موشي وأعوانه مستيقظاً أربعاً وعشرين ساعة متواصلة. يتناوبون، بعضهم تلو بعضهم الآخر، في الحجرة الوضيعة التي يجري فيها الاستنطاق. يحدث ذلك في جحر منخفض السقف مسيخ الجدران، تضيئه لمبة كهربائية مسيَّجة بأسلاك معدنية فوق رأسي يكاد صريرها المتواصل يفقدني صوابي.

ينهش قميصي المبلل بالعرق ظهري بشراهة باقة من القرَّاص. أشعر بالجوع، أشعر بالظمأ، أتوجع ولا أرى نهاية النفق. رفعوني من تحت إبطي لأذهب وأبول. أفرغت نصف مثانتي في سروالي الداخلي قبل أن أقوى على فتح دكَّتي. أصابني الغثيان فكدتُ أهشِّم وجهي على الشطَّافة. جرُّوني جراً لإعادتي إلى قفصي. ثم تواصلت المضايقة، والأسئلة، والضربات على الطاولة، والصفعات الخفيفة لئلا يُغمي عليّ.

كلما شتت النعاس تبصري، هزوني من رأسي إلى أخمص قدمي، وأخضعوني لحماس ضابط جديد ونشيط. الأسئلة تتكرر، تدوّي في صدغي مثل أدعية صماء.

أترنّح على الكرسي المعدني الذي يحزُّ مؤخرتي مثل المبرد، أتشبث بالطاولة لئلا أطيح إلى الخلف. وبدفعة مباغتة، مثل دمية مفكَّكة المفاصل، أنزلق، ويخبط وجهي خبطة عنيفة على حافة الطاولة. أظن أنني جرحتُ قوس حاجبي.

ـ لقد تعرف سائق الحافلة إلى زوجتك يا دكتور بدون أيما تردد. تعرف إلى صورتها فوراً. قال إن حافلته المتجهة إلى الناصرة أقلتها بالفعل، يوم الأربعاء الساعة 15: 8 صباحاً. إلا أنها طلبت الترجل، متحججةً بأمر طارئ، عند مخرج تل أبيب، على بعد أقل من عشرين كيلومتراً من المحطة البرية. اضطر السائق للتوقف إلى جانب الطريق؛ وقبل أن يعاود الانطلاق، لمح سيارةً كانت تسير وراء الحافلة تقلُّ زوجتك. أثار هذا التفصيل ريبته. لم يُدوِّن رقم لوحة السيارة ولكنه أفاد أنها مرسيدس قديمة الطراز، عاجية اللون... ألا يعني لك هذا الوصف شيئاً يا دكتور؟

ـ ماذا تريده أن يعني لي؟ سيارتي فورد حديثة الطراز، ولونها أبيض. لا مبرر لدى زوجتي للترجل من الحافلة. سائقك هذا يلفق الأكاذيب.

ـ في هذه الحالة، ليس وحده من يلفق. أوفدنا أحدهم إلى كفركنًا. لقد صرَّحت حنان شدَّاد أنها لم ترَ حفيدتها منذ أكثر من تسعة أشهر.

ـ إنها سيدة طاعنة في السن...

ـ أكد ذلك قريبها الذي يعيش معها في المزرعة. قل لي يا دكتور جعفري، إذا كانت زوجتك لم تطأ كفركنًا بقدميها منذ أكثر من تسعة أشهر، فأين أمضت الأيام الثلاثة الأخيرة؟

أين أمضت الأيام الثلاثة الأخيرة؟...أين اختفت؟...أين كانت؟... يتلاشى كلام الضابط في لغط مبهم. لم أعد أسمعه. لا ألمح سوى حاجبيه اللذين يتقافزان حسب المصائد التي ينصبها لي، وفمه الذي يتمتم حججاً لم تعد تطالني، ويديه اللتين تلوِّحان تململاً أو تصميماً...

وصل ضابط آخر أخفى وجهه وراء نظاراته السوداء. خاطبني ملوِّحاً بإصبع حازم. تتنسل تهديداته في وهنِ إدراكي. لا يبقى طويلاً وينصرف مرغياً مزبداً.

لا أدري كم الساعة، وإن كان الوقت نهاراً أم ليلاً. لقد جردوني من ساعتي. وحرص المحققون كذلك على التحرر من ساعاتهم قبل موافاتي.

عاد إلي النقيب موشي بخفي حنين. لم يسفر التفتيش عن نتيجة. إنه مرهقٌ كذلك. تفوح منه رائحة أعقاب السجائر المسحوقة. لم يحلق ذقنه منذ البارحة،

بملامحه المجهدة وعينيه المحتقنتين، وارتخى طرف فمه قليلاً.

ـ في أغلب الظن، زوجتك لم تغادر تل أبيب يوم الأربعاء أو في الأيام اللاحقة.

ـ هذا لا يجعل منها مجرمة بالضرورة.

ـ كانت علاقتكما الزوجية...

قاطعته قائلاً: - ليس لزوجتي عشيق.

ـ لم تكن مجبرة على إعلامك بذلك.

ـ لم يكن لدينا أسرار يخفيها الواحد عن الآخر.

ـ السر الحقيقي لا يتقاسمه المرء مع أحد.

ـ حضرة النقيب، ثمة بالتأكيد تفسير، إنما ليس بالمعنى الذي تقصده.

ـ كن متعقلاً لحظة يا دكتور. إذا كذبت عليك زوجتك، وأفهمتك أنها ذاهبة إلى الناصرة لتعود إلى تل أبيب حالما فارقتها، فهذا يعني أنها لم تكن صريحة معك.

ـ أنت لست صريحاً يا نقيب. تدافع عن الباطل لتعرف الحق. ولكن حيلتك لا تنطلي عليّ. بوسعك أن تتركني مستيقظاً ليلاً نهاراً، ولكنك لن ترغمني على قول ما تريد أن تسمعه. إبحث عن شخص آخر تلصق به هذه التهمة.

توترت أعصابه، وخرج إلى الرواق. ثم عاد لاحقاً، متصلب الجبين، وحنكاه يشبهان بَكْرَتين

مشدودتين لرفع الأثقال يستحيل أن ترتخيا. يجتاحني لهاثه. إنه على قاب قوسين من الانفجار.

تصدر أظافره صريفاً مروِّعاً حين يحكُّ وجنتيه.

ـ لن تقنعني بالقوة أنك لم تلاحظ لدى زوجتك أي تصرف غريب مؤخراً، إلا إذا كنتما لا تعيشان تحت سقف واحد.

ـ زوجتي ليست إسلامية. كم مرة يجب أن أكرر ذلك؟ أنت تضلّ السبيل. دعني أعود إلى بيتي. لم يغمض لي جفن منذ يومين.

ـ وأنا كذلك، ولن يغمض لي جفن قبل استجلاء هذه القضية. خبراء الشرطة الجنائية جازمون: لقد قتلت زوجتك بسبب الشحنة المتفجرة الملتصقة بجسدها. أفاد أحد الشهود الذي كان جالساً إلى مائدة أمام المطعم وأصيب بجروح طفيفة أنه لمح امرأة حاملاً قرب المأدبة التي نظمها بعض التلامذة للاحتفال بعيد مولد زميلتهم الصغيرة. تعرف إلى تلك المرأة في الصورة بلا تردد. وهذه المرأة هي زوجتك. ولكنك صرَّحت بأنها لم تكن حاملاً. ولا يتذكر جيرانكما كذلك أنهم لمحوها حاملاً مرة واحدة منذ انتقالكما للسكن في الحي. وتقرير الطبيب الشرعي جازم كذلك بهذا الشأن: لم تكن حاملاً. فما الذي كان ينفخ بطن زوجتك؟ ماذا كان يوجد تحت ثوبها، إن لم تكن تلك الشحنة اللعينة

التي قضت على سبعة عشر شخصاً، على أولاد لا يطلبون أكثر من اللهو؟

ـ إنتظرْ شريط الفيديو...

ـ لن يكون هنالك شريط فيديو. شخصياً، لا أعبأ بأشرطة الفيديو. هذا لا يضايقني، فما يضايقني غير ذلك، وهو يقض مضجعي. ولذلك، لا بد لي حتمياً أن أعلم السبب الذي يدعو امرأة تحظى بإعجاب محيطها، جميلة، ذكية وعصرية، مندمجة، يدللها زوجها وتعبدها صديقاتها اليهوديات بمعظمهن، لتتحزم بالمتفجرات، بين عشية وضحاها، وتقصد مكاناً عاماً لتعيد النظر بكل ما منحته دولة إسرائيل إلى العرب الذين استقبلتهم في كنفها. هل تدرك خطورة الوضع يا دكتور جعفري؟ كنا نتوقع مكراً وغدراً إنما ليس من هذا النوع. لقد نقبتُ رأساً على عقب في حياتكما الزوجية: علاقاتكما الاجتماعية، عاداتكما، مواطن ضعفكما، والنتيجة أنني خدعتُ تماماً. أنا اليهودي والضابط في الأجهزة الأمنية الإسرائيلية، لا أنعم بثلث التبجيل الذي تكنه لكما هذه المدينة يومياً، وهذا يزعزع كياني بشكل يفوق الوصف.

ـ لا تحاول استغلال حالتي الجسدية والمعنوية يا نقيب. زوجتي بريئة. لا صلة لها إطلاقاً بالأصوليين. لم تقابل أحدهم في حياتها، ولم تتحدث عنهم أبداً، ولم

تحلم بهم يوماً. قصدت زوجتي ذلك المطعم لتناول الغداء. الغداء. لا أكثر ولا أقل... والآن، دعني وشأني. أنا مرهق.

وعليه، شبكتُ ذراعي على الطاولة، ووضعت رأسي عليهما، وأغفيت.

يعود النقيب موشي، ويعود، مرة، ومرة أخرى...

في اليوم الثالث، فتح باب الزنزانة وأومأ إلى الرواق:

ـ أنت حر يا دكتور. بوسعك العودة إلى بيتك واستئناف حياة طبيعية إلا إذا...

تناولت سترتي، ومضيت أمسح بجسدي المترنح جدار الرواق حيث رمقني بصمت ضباط شمّروا عن قمصانهم، وحلوا ربطة عنقهم. يلوحون مثل زمرة من الذئاب تراقب الفريسة التي ظنت أنها اصطادتها تبتعد. أرجع لي موظف جالس وراء كوة، متحرك السحنة، ساعتي وعلاقة مفاتيحي ومحفظة نقودي، طلب مني التوقيع على إخلاء السبيل، ثم أغلق بضربة جافة المنور الصغير الذي يفصلنا الواحد عن الآخر. رافقني أحدهم إلى مخرج المبنى. أغارت عليّ أنوار النهار حالما خرجت إلى الشارع. الطقس جميل، وهناك شمس هائلة تنير المدينة. يعيدني ضجيج حركة المرور إلى عالم الأحياء. بقيت للحظات قليلة واقفاً في أعلى سلم

المدخل أراقب الحركة العادية للسيارات التي تؤكدها أبواقها هنا وهناك. الحركة خفيفة. يبدو الحي مهملاً. الأشجار التي تحاذي قارعة الطريق تتراءى كأنها تفعل ذلك على مضض، والمارة الذين يتسكعون حولها كئيبون مثل ظلالها.

في أسفل السلم، سيارة ضخمة يهدر محركها. يقودها نافيد رونين. يترجل، ويسند مرفقه إلى الباب، منتظراً أن أوافيه. أدركت على الفور أنهم أفرجوا عني بفضل تدخله.

عقد حاجبيه حين اقتربت منه ورأى عيني المتورمة.

ـ هل ضربوك؟

ـ لقد انزلقت.

لم يقتنع بجوابي.

قلت له: ـ هذه هي الحقيقة.

لم يلح عليّ بالسؤال.

ـ هل تريد أن أقلك إلى البيت؟

ـ لا أعلم.

ـ أنت بحالة يرثى لها. عليك أن تستحم، وتبدل ثيابك، وتأكل.

ـ هل أرسل الأصوليون شريط الفيديو؟

ـ أي شريط فيديو؟

ـ شريط الإنفجار. هل اكتشفوا هوية الانتحاري أخيراً؟

ـ أمين...

انكفأت لأتهرَّب من يده. لم أعد أطيق أن يضع أحدهم يده عليّ، ولا حتى لمواساتي.

حاصرتْ عيناي عيني الشرطي ولم تفلتهما.

ـ إذا أفرجوا عني، فلأنهم تيقنوا بأن زوجتي ليست متورطة في هذه القضية.

ـ يجب أن أقلّك إلى بيتك يا أمين. أنت بحاجة إلى استعادة عافيتك. هذا هو الأهم حالياً.

ـ إذا أفرجوا عني يا نافيد، هيا... إذا أفرجوا عني، فلأنهم... ماذا اكتشفوا يا نافيد؟

ـ أنك، أنت يا أمين، لستَ متورطاً.

ـ أنا فقط؟

ـ أنت فقط.

ـ وسهام؟...

ـ عليك تسديد (الكناس) لاسترداد جثتها. هذا هو النظام.

ـ غرامة؟ ومنذ متى هذا النظام ساري المفعول؟

ـ منذ ظهور الانتحاريين بين الأصوليين الإسلاميين...

قاطعته بإيماءةٍ من إصبعي.

ـ سهام ليست انتحارية يا نافيد. حاول أن تتذكر ذلك، فحرصي على ذلك أشدُّ من حرصي على أي شيء في هذا العالم. زوجتي ليست قاتلة أطفال... هل فهمت؟

فارقته، ومضيت لا أعرف وجهتي. لم أعد أرغب أن يقلّني أحدهم إلى بيتي؛ لا حاجة بي لأن يربت أحدهم على كتفي؛ لا أريد أن أرى أحدهم يسير إلى يميني أو يساري.

يباغتني الليل راقداً على بلاطة قبالة البحر. لا أتذكر على الإطلاق ما فعلته خلال النهار. أظن أنني غفوت في مكان ما. تنسّلت خيوط ذهني كلياً بسبب احتجازي الذي دام ثلاثة أيام وثلاث ليال. ضاعت سترتي. لا بد أنني نسيتها على مقعد عام، أو لعل أحدهم سرقها. تلوثُ بقعة كبيرة أعلى سروالي، وترسمُ بقايا قيء خطوطاً على قميصي. أذكر بإبهام أنني تقيأتُ أسفل جسر. ما الذي أتى بي إلى هذه البلاطة المشرفة على البحر؟ لا أعلم.

تلتمع باخرة في عرض البحر.

على مقربة مني، ترتمي الأمواج بشغف على الصخور. يتردد صدى تكسرها في رأسي مثل ضربات هراوة.

تنعشني النسمة. أتكوَّم حول ساقيَّ، أغرز ذقني بين

ركبتيَّ، وأصغي إلى لغط البحر. يغشى بصري ببطء، تلحق بي شهقات نحيبي، تتدافع في حلقي، وتولد لفيفاً من الاختلاجات التي تسري في كل أنحاء بدني. فأحتضن وجهي بين راحتي؛ ومن أنين إلى آخر، أروح أعولُ كمن أصيب بمسٍّ وسط ضجيج الأمواج الذي يصم الآذان.

5

وضع أحدهم ملصقاً على بوابة بيتي. ليس ملصقاً بالفعل بل الصفحة الأولى لصحيفة يومية واسعة الإنتشار. فوق صورة كبيرة تعكس الفوضى الدموية حول المطعم الذي استهدفه الإرهابيون، يقرأ المرء بحروف عريضة: الوحش الخسيس بيننا. ويتوزع هذا العنوان على ثلاثة عواميد.

الشارع مقفر. يرسل فانوس هزيل ضوءه كهالة ممتقعة لا تتجاوز محيط اللمبة. أسدل جاري الذي يسكن في البيت المقابل ستائره. لم تتجاوز الساعة العاشرة ليلاً، ولكن المرء لا يصادف نافذةً ساهرة.

لم يتردد مخربو النقيب موشي. وجدت مكتبي مقلوباً رأساً على عقب. تسود الفوضى نفسها في غرفتي؛ المرتبة مقلوبة، الملاءات مرمية على الأرض، المنضدتان قرب السرير والكومودينو انتهكت حرمتها،

محتوى الدروج مبعثر بين الخِفاف والمساحيق التجميلية. أُنزلتُ لوحاتي للتحقق مما يوجد خلفها. وجدتُ كذلك صورة عائلية قديمة جداً داستها الأقدام.

لا أشعر لا بالقوة ولا بالشجاعة لتفقد الأضرار في الغرف الأخرى.

تعكس لي مرآة الخزانة هيئتي. لم أتعرف إلى نفسي. ألوح أشعث الشعر زائغ العينين، مثل شخص سليب العقل، بذقني المهملة ووجنتي المحفورتين بإزميل.

خلعتُ ثيابي، وفتحت الماء الساخن في حوض الحمام. عثرت على بعض الطعام في الثلاجة، فانقضضتُ عليه كالحيوان الجائع. أكلتُ وقوفاً، بيدي القذرتين، أكاد أختنق باللقمات التي أزدردها الواحدة تلو الأخرى بشراهة مزرية. أفرغتُ سلة من الفواكه، وطبقين من اللحم البارد، وجرعتُ زجاجتي بيرة جرعة واحدة، ولحستُ أصابعي العشرة التي كانت تقطر منهما الصلصة، الواحد تلو الآخر. انتبهت، حين مررتُ ثانية أمام المرآة، إلى أنني عارٍ تماماً. لا أذكر أنني تجولتُ في بيتي كما خلقني ربي منذ أن تزوجت، فسهام كانت متشبثةً ببعض المبادئ.

سهام...

كم يتراءى لي كل ذلك بعيداًا...

أنزلق في حوض الحمام، أدع دفء الماء يغلف كياني، أغمض عيني، وأحاول أن أذوب ببطء في الخمود الحارق الذي يجتاحني...

ـ يا إلهي!

وقفت كيم يهودا في الحمام، لا تصدق ما تراه عيناها. نظرت يمنة ويسرة، وضربت كفاً بكف كأنها لا تقوى أن تصدق المشهد، والتفتت بسرعة نحو خزانة الحائط تبحث فيها عن منشفة.

صرخت مروعةً ومغتاظة: ـ هل أمضيت الليل في الحوض؟ ماذا دهاك، بربك؟ كان يمكنك أن تغرق.

أفتح عيني بمشقة، ربما بسبب ضوء النهار. أدرك أنني غفوت في حوض الحمام طوال الليل. لا تستجيب أعضائي في الماء الذي برد في هذه الأثناء؛ تصلّبت مثل الخشب؛ واصطبغ فخذاي وساعداي بالزرقة. لاحظت كذلك أن رعدةً متواصلة أخذت بفرائصي فيما راحت أسناني تصطك.

ـ ماذا تفعل بنفسك يا أمين؟ إنهض، أخرج حالاً من هذا الحوض. سأصاب بالزكام لمجرد النظر إليك.

ساعدتني على النهوض، ولفتني بمبذل، وفركتني بشدة من شعري إلى ربلتي.

كررت قولها: ـ لا أصدق. كيف غفوت والماء

تغمرك حتى العنق؟ أتدرك ماذا جرى لك... أنبأني حدسي هذا الصباح أن عليّ زيارتك قبل الذهاب إلى المستشفى...إتصل بي نافيد حالما أطلقوا سراحك. مررتُ ثلاث مرات البارحة، ولكنك لم تكن قد رجعت. ظننت أنك قصدت قريباً أو صديقاً.

قادتني إلى غرفتي، ووضعت المرتبة على السرير، وساعدتني على الاستلقاء فوقها. اشتدت الرعدة التي أخذتني، وكاد حنكاي يتحطمان.

قالت لي، وهي تغطيني: ـ سأعد لك بسرعة شراباً ساخناً.

سمعتها تنهمك في المطبخ وتسألني عن مكان هذا الشيء أو ذاك. لا أستطيع أن أنطق كلمة واحدة بسبب الرعشة الجامحة في فمي. أتكوَّم تحت الغطاء، في وضعية الجنين، أنكمش وأتقوقع على أمل أن يسري الدفء في بدني.

أحضرت لي كيم كوباً كبيراً من نقوع الأعشاب. رفعت رأسي وراحت تسكب الشراب الساخن والحلو المذاق في فمي. تشعبت حممٌ ملتهبة في صدري، وأضرمت النيران في معدتي.

تواجه كيم مشقة للسيطرة على الرعدة التي أصابتني.

وضعت الكوب على المنضدة قرب السرير. عدَّلت وسادتي، وساعدتني على الاستلقاء مجدداً.

ـ متى رجعت؟ في ساعة متأخرة من الليل أم فجراً؟ عندما رأيت البوابة محلولة، وباب الدار مفتوحاً على مصراعيه، خشيت فوراً أن يكون قد حصل ما لا يحمد عقباه... كان بوسع أحدهم أن يتسلل إلى بيتك.

لا أجد كلماتٍ للرد عليها.

شرحت لي أن عليها إجراء عملية جراحية لأحد المرضى قبل الظهر. حاولتْ مكالمة الشغالة لتطلب منها أن تأتي، سمعت مراراً صوت المجيب الآلي، فتركت لها أخيراً رسالة مسجلة. ينتابها القلق لأنها مضطرة لمفارقتي بدون مراقبة. فكرتْ بحلٍّ إنما أعيتها الحيلة. استكانت قليلاً وهي تقيس حرارتي، ثم استأذنت بالانصراف بعد أن أعدت لي وجبة طعام، ووعدتني بالعودة متى تسنى لها.

لم ألمحها تنصرف.

أظن أنني غفوت مجدداً...

أيقظني صرير بوابة حديدية. أزحتُ الغطاء واقتربت من النافذة. لمحت مراهقين ينقبان في حديقتي، وتحت إبطهما لفائف ورقية. تغطي العشب عشرات الصور المقتطعة من بعض الصحف. تجمع بعض المارة أمام

بيتي. صرخت بهم: "انصرفوا!". لم أفلح في فتح النافذة فوثبتُ وثباً إلى الفناء. لاذ الفتيان بالفرار. لحقت بهما حتى الشارع، حافي القدمين، محموم الذهن... "إرهابي قذر! حثالة! عربي خائن!". كبحت الشتائم جماحي على الفور إنما بعد فوات الأوان، فقد ألفيت نفسي وسط رهط هائج. بصق عليّ رجلان ملتحيان قد ضفر كلٌّ منهما سالفيه. دفعت بي بعض الأذرع." أهكذا يقولون شكراً عندكم، أيها العربي القذر؟ تعضّون اليد التي تحسن إليكم؟..." تسلل بعض الأشباح خلفي للحؤول دون هروبي. يصيب وجهي سيلٌ من البصاق. تجذبني يدٌ من ياقة مبذلي..."أنظر إلى القصر الذي تقطن فيه يا ابن العاهرة. ماذا تطلبون بعد لتتعلموا أن تقولوا شكراً؟...". يتجاذبوني من كل الزوايا. "لا بد أولاً من تطهيره قبل حرقه...". تجندلني رفسة في بطني، تنهضني رفسة أخرى. ينزف أنفي، ثم شفتاي.لا تكفي ذراعاي لحمايتي. ينهال عليّ وابلٌ من اللكمات، وتتداعى الأرض تحت قدميَّ...

وجدتني كيم مطروحاً وسط الممر. طاردني المعتدون عليّ إلى داخل حديقتي، وظلوا يوسعوني ضرباً بعد أن طرحوني أرضاً. ظننت، أمام عيونهم التي تقدح شرراً وأفواههم المزبدة، أنهم سوف يجروني ويعدموني.

لم يهبَّ جار واحد لنجدتي، ولا خطر ببال نفسٍ نبيلة الاتصال بالشرطة.

قالت كيم: ـ سأنقلك إلى المستشفى.

ـ لا ، ليس المستشفى. لا أريد أن أعود إلى هناك.

ـ أعتقد أنك مصاب بكسور.

ـ لا تلحي عليّ، أرجوك.

ـ في مطلق الأحوال، لا تستطيع أن تبقى هنا ، فسوف يقتلونك.

استطاعت كيم أن تقلني إلى غرفتي، وألبستني ثيابي، ورمت ببعض حوائجي في حقيبة، وأجلستني في سيارتها.

عاد الملتحون بسوالفهم المضفورة من حيث لا أدري؛ لعل أحد المراقبين أخطرهم.

صرخ أحدهم بكيم: ـ دعيه يموت. إنه مجرد حثالة...

انطلقت كيم بسرعة شديدة.

عبرنا الحي مثلما تعبر سيارة بسرعة جنونية حقل ألغام.

اصطحبتني كيم مباشرة إلى أحد المستوصفات قرب (يافو). لم تظهر صورة الأشعة كسوراً بل رضة شديدة في رسغي الأيمن وركبتي. طهّرت إحدى الممرضات الخدوش على ذراعي، وجففّت شفتي المتشققتين،

ونظفت منخري المجروحين. ظننت أن الأمر يتعلق بعراك بين سكارى؛ كانت حركاتها تطفح بالإشفاق.

غادرت قاعة الإسعافات أقفز على قدم واحدة، وقد التفت ضمادة غريبة الهيئة حول يدي.

عرضت عليّ كيم أن أتكئ على كتفها، ولكني فضلت الحائط.

اصطحبتني إلى شقتها، في (سيديروت يروشالايم)، وهي عبارة عن مشغل فنان اشترته خلال الفترة التي كانت تعيش مع بوريس. غالباً ما كنت أزورها فيه للاحتفال بمناسبة سعيدة أو قضاء سهرة ممتعة مع الأصدقاء، وبرفقة سهام. كانتا تتفاهمان جيداً، وإن ظلت زوجتي، المتحفظة بطبعها، على الدوام حذرة. إلا أن كيم كانت لا تبالي بذلك، فهي تعشق استقبال الضيوف والاحتفال. ومنذ أن تخطّت هجران بوريس لها، راحت تضاعف الجهود في هذا المجال.

ركبنا المصعد. رافقتنا سيدة عجوز حتى الطابق الثاني. في صحن الطابق الرابع، جرو كلب يتململ، ويترك السيدة محشورة أمام الباب في آخر الرواق. إنه جرو الجارة التي ستتخلص منه فور بلوغه سن الرشد لتقتني غيره؛ فقد اعتادت القيام بذلك.

تتخاصم كيم مع قفل باب شقتها، مثلما تفعل كلما توترت. تقطّب وجهها غيظاً فتغور غمازتان في وجنتيها.

يليق بها النزق جداً. تعثر أخيراً على المفتاح الملائم، وتبتعد لتدعني أدخل قبلها.

قالت لي: ـ البيت بيتك.

نزعت عني سترتي، وعلقتها في بهو المدخل. بإيماءةٍ من ذقنها، أرشدتني إلى الصالون الذين يتناظر فيه مثل كلبين من الخزف الصيني كرسي من الخيزران وأريكة عتيقة من الجلد البالي. تحتل لوحة سوريالية كبيرة نصف الحائط؛ تبدو كأنها خربشة أطفال مضطربين منبهرين بالأحمر القاني والأسود الفاحم. على الإفريز المصنوع من الحديد المطروق، المكتشف في متجر لسقط المتاع تعشق كيم ارتياده أيام الأحد، وسط تحف خزفية ومنفضة ممتلئة مثل مرقدة رفات، صحيفةٌ واسعة الانتشار...كانت مفتوحة على صورة زوجتي.

انقضّت كيم عليها.

قبضت على يدها.

ـ لا بأس.

لمَّت الصحيفة مرتبكةً ورمتها في سلة المهملات.

جلست في الأريكة، قرب الواجهة الزجاجية التي تطل على شرفة مزدحمة بأصص الزهور. كان للشقة مطلٌ فسيح على الجادة. يزدحم الشارع بحركة سير خانقة. يسدل المساء ستائره، ويلوح الليل محموماً.

تناولنا العشاء في المطبخ. كيم تنقر الطعام نقرات

صغيرة، وأنا آكل بدون شهية. أحمل تحت جفني الصورة التي لمحتها في الصحيفة. مئة مرة، أردت أن أسأل كيم عن رأيها بهذه القصة التي يمعن الصحافيون في تطريزها على هوى جموح مخيلتهم؛ مئة مرة، أردت أن أحتضن ذقنها بين يدي، وأحدق إلى عينيها، وأطلب منها بحزم أن تقول لي بالضبط، ما إذا كانت تعتقد، في ضميرها ووجدانها، أن سهام جعفري، زوجتي، والمرأة التي تقاسمت معها الكثير من الأمور، تستطيع أن تتحزم بالعبوات المتفجرة، وتذهب لتفجير نفسها وسط حفلة. لم أجرؤ استغلال مودتها... في الوقت نفسه، أصلّي سراً كي لا تتكلم بدورها، ولا تحتضن يدي تعبيراً عن شفقتها؛ فلن أستطيع أن أتحمل حركة زائدة... نحن هكذا بأفضل حال، والصمت يحمينا من أنفسنا.

رفعت الأطباق بهدوء، واقترحت عليّ بعض القهوة. طلبت منها سيجارة، فعبست لأنني أقلعت عن التدخين منذ سنوات عديدة.

ـ أمتأكدٌ أنك ترغب بذلك؟

لم أرد على سؤالها.

ناولتني العلبة ثم قداحتها. أشعلت الأنفاس الأولى دماغي، وأصابتني الأنفاس التالية بالدوار.

ـ هلا تخففين الإنارة من فضلك؟

أطفأت مصباح السقف، وأضاءت فانوساً جانبياً

عاكساً للنور. خفَّ قلقي بفضل النور الخافت في الحجرة. بقينا جالسين في الوضعية نفسها لمدة ساعتين، الواحد قبالة الآخر، ونظراتنا تائهة في خواطرنا.

قررت كيم : ـ يجب أن نخلد إلى النوم. لدي يوم عمل مشحون غداً، ويغالبني النعاس.

رافقتني إلى غرفة الضيوف.

ـ هل تناسبك؟ ألا تحتاج إلى وسائد أخرى؟

ـ تصبحين على خير يا كيم.

أخذت دشاً قبل أن تطفئ النور في غرفتها.

أتت لاحقاً لترى إن كنت نائماً. تظاهرتُ بأنني نمت.

انقضى أسبوع لم أرجع خلاله إلى بيتي. تستضيفني كيم، وتحرص على مراعاة مشاعري ـ لما كان خبيرُ متفجرات يتفحص قنبلة بهذا القَدر من الرفق الذي عاملتني به.

التأمت جروحي، وخفَّ ورم كدماتي؛ ولم تعد ركبتي الجريحة تجبرني أن أعرج، ولكن رسغي ما زال مضمداً.

حين لا تكون كيم في الشقة، أحبس نفسي في حجرة، ولا أحرِّك ساكناً. إلى أين أذهب؟ الشارع لا يجتذبني. ماذا سأصادف فيه أكثر مما صادفتُ البارحة؟ بالتأكيد، أموراً أقل بكثير. من غير المجدي حين تنتفي الرغبة أن أسعى للمصالحة مع الأمور المألوفة. في الحجرة التي أزيحت ستائرها، أحسُّ بالأمان. لا خطر

يتهددني فيها. لستُ مرتاحاً تماماً، ولكني لستُ كذلك مضروراً. عليّ أن أتسلق المنحدر، فالبقاء في الأسفل لا يلائم أي إنسان. في هذا النوع من التخبط، إذا لم يستجب المرء بسرعة، يفقد السيطرة على كل شيء، ويصبح متفرجاً على انهياره، لا يعي الهاوية التي تنغلق عليه إلى الأبد... اقترحت عليّ كيم في إحدى الأمسيات الذهاب لزيارة جدها على شاطئ البحر. قلت لها إنني لست مستعداً بعد لاستئناف التواصل مع ما لن يكون أبداً مثل السابق. أحتاج لبعض المسافة، لاستيعاب ما جرى لي. ومع ذلك، أحتجز نفسي طوال النهار في الغرفة ولا أفكر بأي شيء، أو أجلس قرب الواجهة الزجاجية في الصالون، وأمضي سحابة نهاري أنظر إلى السيارات المختلجة على الجادة ولا أراها. مرة واحدة، خطر ببالي أن أقود سيارة، وأمضي بها على غير هدى إلى أن ينفجر الرادياتور؛ ولكني افتقرتُ إلى الشجاعة للعودة إلى المستشفى واسترجاع سيارتي.

حالما قويت على المشي بدون الاستناد إلى الحائط، طلبت مقابلة نافيد رونين. كنت أريد أن أقدم لزوجتي دفناً لائقاً. لم أطق كونها محشورةً في تلك الكوة المبرَّدة بالمشرحة، وبطاقة تعريف تلتف حول إصبعها. أحضر لي نافيد استمارات معبأة حسب الأصول ليعفيني من غضب لا يجدي نفعاً؛ كان بحاجة فقط إلى توقيعي.

سددت الغرامة، وتسلمت جثة زوجتي بدون أن أقول لأحدٍ كلمة واحدة. حرصتُ على دفن سهام في حميمية شديدة، بتل أبيب، المدينة التي التقينا فيها للمرة الأولى، وقررنا العيش فيها إلى أن يفرقنا الموت. لم يكن في المقبرة سواي وحفار القبر والشيخ.

حين أهيل التراب على الحفرة التي سترقد فيها إلى الأبد أفضل مراحل حياتي، ارتحتُ قليلاً. كنت كمن ينجز مهمة ظننت أنها لا تعقل. أصغيت حتى النهاية إلى الشيخ يتلو آيات قرآنية، ثم دسستُ في يده التي تصنعتْ التهرب بعض الأوراق النقدية، ورجعت إلى المدينة.

مشيتُ بمحاذاة ساحة تطل على البحر. كان بعض السياح يلتقطون صوراً تذكارية وهم يتبادلون التحية. يتغازل الشبان والشابات أزواجاً في ظلال الأشجار؛ أما بعضهم الآخر، فيتنزه، متعانق الأيدي، على طول الرصيف. دخلت إلى حانة صغيرة، وطلبتُ فنجان قهوة، وانتحيتُ زاوية قرب الواجهة الزجاجية، ورحت أدخن بهدوء السيجارة تلو الأخرى.

بدأت الشمس تغرب. ناديتُ سيارة أجرة، وطلبت إلى السائق أن يقلّني إلى (سيديروت يوراشالايم).

في شقة كيم ضيوف. لم يسمعني أحد أدخل. لا أستطيع أن أرى الصالون من بهو المدخل. سمعت صوت عزرا بن حاييم، والصوت الأكثر تثاقلاً لنافيد رونين، والصوت السلس لبنامين، الشقيق البكر لكيم.

قال عزراً متنحنحاً: ـ لا أفهم الصلة.

قال بنيامين الذي لطالما درس الفلسفة في جامعة تل أبيب قبل الانضمام إلى حركة سلمية تثير لغطاً شديداً في القدس:

ـ ثمة صلة دائماً حيث لا تثار الشكوك. لذلك، نحن لا نكف عن عدم استيعاب الأمور.

اعترض عزرا بلباقة: ـ دعنا لا نبالغ.

ـ هل المواكب الجنائزية التي تتقاطع من هذا الطرف والطرف الآخر قد جعلتنا نحرز تقدماً؟...

ـ الفلسطينيون هم الذين يرفضون الاستماع إلى صوت العقل.

ـ ربما نحن الذين نرفض الاستماع إليهم.

قال نافيد بنبرة هادئة وملهمة: ـ بنيامين على حق. الفلسطينيون الأصوليون يرسلون فتياناً لتفجير أنفسهم في موقف حافلة. وريثما نلملم قتلانا، ترسل لهم قياداتنا العسكرية مروحياتٍ لقصف بيوتهم. في اللحظة التي يتهيأ قادتنا لإعلان النصر، يأتي تفجير آخر ليعدل في موقفهم. إلى متى سيدوم ذلك؟

في هذه اللحظة، خرجت كيم من المطبخ وباغتتني واقفاً في الرواق. وضعتُ إصبعي على فمي أرجوها ألا تفضح أمري، ثم رجعتُ على عقبيَّ، وخرجت من الشقة. حاولت كيم اللحاق بي، ولكني كنت قد أصبحت في الشارع.

6

ها قد عدت إلى الحي الذي أقطن فيه كشبح يعود إلى ساحة الجريمة. لا أدري كيف وصلت إلى هذا المكان. بعد هروبي من شقة كيم، سلكتُ إحدى الجادات على غير هدى، وطفقتُ أمشي إلى أن ذبحت التقلصات كاحليّ. ثم قفزت في حافلة أقلتني إلى آخر الخط حيث تناولت العشاء في حانة ريفية تقع في (شيبارا)، وتسكعت من ساحة إلى ميدان إلى أن بلغتُ الحي السكني الذي وقع عليه اختيارنا، أنا وسهام، قبل سبع سنوات، يحدونا اليقين أننا نشيد فيه نصباً منيعاً حول حبنا. إنه حي جميل وهادئ، غيور على دوره الفخمة، وأويقاته الساكنة التي تسترخي خلالها أعظم ثروات تل أبيب، إلى جانب مستعمرة من محدثي النعمة، وبعضهم من المهاجرين الروس الذين يسهل التعرف إليهم من لهجتهم الفظة، وهوسهم بإبهار جيرانهم. في المرة الأولى التي زرنا هذا الحي،

استهوانا على الفور موقعه. كان ضوء النهار يبدو فيه ساطعاً أكثر من أي حي آخر. راقت لنا الواجهات الحجرية المنقوشة، والبوابات المصنوعة من الحديد المطروق، وتلك الهالة من السعادة التي تغلف البيوت الجاحظة النوافذ والبهية الشرفات. كنا نسكن حينها في حي هامشي متنافر، تأوينا شقة ضيقة في الطابق الثالث من عمارةٍ لا تتميز بشيء، وتكثر فيها المشاجرات الزوجية. شددنا الحزام بصرامة لادخار بعض المال من أجل الانتقال إلى حي آخر، ولكننا لم نتخيل أبداً أن نفتح حقائبنا في مثل هذا المكان الراقي. لن أنسى ما حييت فرحة سهام حينما نزعت العصابة عن عينيها كي تكتشف بيتنا. لشدة ما وثبت عالياً في مقعدها، صدَّع رأسها المصباح في سقف السيارة. كنت غارقاً في النعيم وأنا أراها سعيدة شغوفة مثل طفلة تحققت للتو أغلى أمانيها يوم عيد مولدها. كم مرة عانقتني وقبلتني على فمي، على مرأى من المارة ومسمعهم، هي التي يحمرُّ وجهها مثل شقائق النعمان حين أجرؤ وأقرصها في الشارع؟...دفعت البوابة، وهرعت نحو الباب المصنوع من خشب السنديان المتين. لشدة حماسها، لم أعد أعثر على المفتاح المناسب. يتردد صدى صرخاتها المبتهجة حتى الساعة في رأسي. أستحضر هيئتها، بذراعيها المبسوطين، تدور حول نفسها في الصالون، شبيهة براقصة باليه منتشية بأدائها. تطلّب

الأمر أن أحتضنها من خصرها لأسيطر على فيض انفعالاتها. عيناها تغمرانني امتناناً، وسعادتها تسكرني. وهنا، في الصالون الفسيح العاري، بسطنا سترتي على البلاط، ومارسنا الحب مثل مراهقين منبهرين وخائفين من التهيج الأول لجسديهما المرتعدين...

لا بد أنها الحادية عشرة ليلاً، ربما أبكر من ذلك، والشارع مقفر تماماً. يهدُّ النعاس شارع نجاحاتي؛ تبدو فوانيسه مروعة بسبب بشاعتها. يُذكِّر بيتي الذي أمسى يتيم الحب ببيتٍ مسكون، والعتمة التي تنسج حوله شبكة عنكبوتية مريعة. يخاله الناظر إليه مهجوراً منذ أجيال. ظل بعض المصاريع مفتوحاً، وتحطم بعض الألواح الزجاجية. تغطي نتف من الورق الحديقة التي أتلفت أزهارها. أثناء فرارنا في ذلك اليوم، نسيت كيم أن تقفل البوابة التي فتحها على مصراعيها زوار خبثاء، فراح حديدها يئن وسط الصمت مثل أنشودة مأساوية شيطانية. لقد بقروا القفل بالفعل بواسطة قضيب حديدي، ونبشوا مفصلاً، وعطّلوا الجرس. ترفرف قصاصاتٌ من الصحف ألصقتها النقمة الشعبية على سور بيتي وسط شعارات حقودة. لقد جرت أمور كثيرة أثناء غيابي...

وجدتُ رسائل في علبة البريد. استرعى انتباهي، بين الفواتير، ظرف صغير. لا يوجد عليه إسم المرسل بل مجرد طابع مع ختم البريد. إنه مرسلٌ من بيت لحم.

كاد قلبي ينخلع حين تعرفت إلى خط سهام. هرعت إلى غرفتي، أشعلت النور، وجلست قرب منضدة السرير التي تعلوها صورة زوجتي.

فجأة، تسمَّرتُ في مكاني.

لماذا بيت لحم؟... بماذا ستنبئني هذه الرسالة الآتية من وراء اللحد؟ ارتعشت أصابعي؛ وهلعت تفاحة آدم في حلقي الذي جف. لوهلة، خطر ببالي أن أرجئ فتحها إلى وقت لاحق. لا أشعر بأنني أستطيع أن أدير خدي الأيسر، وأن أتحمل مسؤولية تعسف المصيبة التي تقتفي أثري منذ التفجير. أصابني الإعصار الذي شتت دعائمي بهشاشة شديدة؛ لن أقوى على النجاة أمام إساءة أخرى... وفي الوقت نفسه، لا أشعر بنفسي قادراً على الانتظار ثانية مرة أخرى. ألياف كلها مشدودة تكاد تتقطع؛ أعصابي رهيفة على قاب قوسين من أن تقطع عن جسدي التيار.

أخذت نفساً عميقاً، ومزقت الظرف ـ لو قطعتُ شرايين معصمي، لما شعرتُ بمثل هذا الخطر المحدق بي. يزرب عرقٌ قارصٌ على طول ظهري. تتسارع نبضات قلبي، يتردد صداها الأصم في صدغي، فتمتلئ الغرفة بأصداء تُدوِّخني.

الرسالة مقتضبة، لا تحمل تاريخاً أو تصديراً. مجرد سطور أربعة مكتوبة في عجالة على ورقة ممزقة من دفتر مدرسي.

قرأتُ فيها ما يلي:

ما نفع السعادة إذا لم يتقاسمها المرء يا حبيبي أمين؟ كانت أفراحي تخمد كلما كانت أفراحك لا تجاريها. كنت تريد أطفالاً. كنت أريد أن أستحقهم. ما من طفل بمأمنٍ تماماً بدون وطن... لا تنقم عليّ.

سهام

تفلت مني الورقة، تسقط من يديَّ. بهزة واحدة، ينهار كل شيء. لا أعثر فيها أبداً على الزوجة التي اقترنت بها في السراء وإلى الأبد، تلك التي هدهدت أجمل سنواتي، وزينت مشاريعي بأكاليل براقة، وأبهجت روحي بحضورها الرقيق. لا أعثر على شيء منها، لا في جسدي أو ذكرياتي. الإطار الذي يحتجزها يبقيها أسيرة لحظة زائلة، ملغاة إلى الأبد، يولي لي ظهره، عاجزاً عن تبني الصورة التي يعكسها لما ظننت أنه أجمل ما حصل لي. أشعر كأنني قُذفتُ من أعلى هضبة، وابتلعتني الهاوية... سوف أستيقظ... أنا مستيقظ. لا أحلم. ترقد الرسالة عند قدميَّ؛ حقيقية، تعيد النظر بكل مبادئي، مفتتةً، الواحد تلو الآخر، أكثر أشكال يقيني عناداً. تهرب مني معالمي الأخيرة ...هذا ليس عدلاً... يتشوَّش في ذهني شريط الأيام الثلاثة التي

أمضيتها في الحجز. يعود صوت النقيب موشي لاضطهادي، مستثيراً في صرخاته الخشنة صوراً مبهمة كالزوابع. أحياناً، تأتي ومضات لتضيء بعضاً من تلك الصور، فألمح نافيد ينتظرني عند أسفل السلالم، وكم تلمُّني بجراحي الثخينة في ممر الحديقة، والمعتدين عليّ الذين يريدون إعدامي في حديقتي... أمسكت رأسي بيديَّ، واستسلمت للإعياء العارم الذي صرعني.

ماذا تقولين لي يا حبيبتي سهام؟

يخال البشر أنهم يعلمون، فيخفُّ تيقظهم، ويتصرفون كما لو أن كل الأمور على خير ما يرام. ومع مرور الوقت، يكفّون عن إعارة الأمور الاهتمام المطلوب. يشعرون بالطمأنينة. فماذا بوسعهم أن يطلبوا أكثر من ذلك؟ تبتسم لنا الحياة، وكذلك يبتسم الحظ. فنتبادل الحب والغرام. نمتلك الوسائل التي نحقق بها أحلامنا. الأمور بألف خير، والحياة تباركنا... ثم، وبدون سابق إنذار، تقع السماء على رؤوسنا. ومتى انقلبنا على ظهرنا، نرى أن الحياة، الحياة بأسرها، بيسرها وعسرها، بأفراحها وأتراحها، بوعودها وخيباتها، تتعلق بخيط رخوٍ وخفي مثل خيط العنكبوت. وفجأة، يخيفنا أقل ضجيج، ولا نرغب أن نصدق شيئاً، فكل ما نريد أن نغمض عيوننا، ولا نفكر بأي شيء.

وبَّختني كيم: ـ لقد نسيتَ مرةً أخرى أن تغلق بابك!

تقف على عتبة غرفتي، وقد شبكت ذراعيها على صدرها. لم أسمعها تدخل.

ـ لماذا انصرفت منذ قليل؟ جاء نافيد وعزرا من أجلك. أصرت لا تطيق رؤية أصدقائك؟

تتلاشى ابتسامتها المرتبكة.

ـ قل لي، ما هذه السحنة؟

يبدو أنني كنت واهناً لأنها انقضت عليّ، وقبضت على رسغيَّ لتتحقق من سلامتهما. صرخت وهي تبحث من حولها عن كبسولة سم، أو حقّ من الأقراص المنومة:

ـ هل قطعت شرايينك؟ يا إلهي! لقد انسحب الدم من وجهك. أشاهدت شبحاً أم ماذا؟ ما بك؟ اللعنة، تكلَّم. تناولت أقراصاً، أليس كذلك؟ أنظر إلى عيني، وقل لي إذا كنت قد تناولت أقراصاً. لا يعقل ما تفعله بنفسك يا أمين! لم يعد بمقدوري أن أفارقك دقيقة واحدة...

رأيتها تقرفص، وتلقي نظرة تحت السرير، متلمسةً بيدها هنا وهناك...

لم أعرف صوتي حين اعترفت لها:

ـ إنها هي يا كيم... ربّاه! كيف استطاعت أن تفعل ذلك؟

تسمّرت كيم في مكانها، شبه مقرفصة. لم تفهم كلامي.

ـ عمَّ تتحدث؟

لمحت الرسالة عند قدمي، فتناولتها وقرأتها. ارتفع حاجباها ببطء تدريجياً كلما تابعت القراءة.

تنهدت قائلة : ـ يا إلهي!

رمقتني إذ حارت في ما تفعل. فتحت لي ذراعيها بعد أن اعتراها اضطراب وجيز. التصقت بها، وانكمشت؛ وللمرة الثانية في أقل من عشرة أيام، أنا الذي لم أذرف دمعة واحدة منذ توفي جدي قبل ثلاثين عاماً، طفقت أبكي كالأطفال.

بقيت كيم معي حتى الصباح. حين استيقظت، ألفيتها متقوقعة في أريكة، قرب سريري، منهكة القوى كما يبدو. غالبنا النعاس في لحظة كنا لا نتوقعه أبداً. لا أدري من استسلم له قبل الآخر. أغفيتُ منتعلاً حذائي، وسحّاب سترتي مرفوع حتى عنقي. ما يدعو للعجب أنني أشعر كما لو أن إعصاراً هائلاً قد مر. لا تحرك صورة سهام على منضدة السرير في داخلي شيئاً. تلاشت ابتسامتها، وانكفأت نظرتها. لقد صرعني حزني بدون أن يقضي عليّ...

في الخارج، يقضم بعض الزقزقات الصمتَ الصباحي. قلت في سري إن كل شيء قد انتهى. بزغ الفجر في الشارع وفي ذهني.

اصطحبتني كيم عند جدها الذي يقطن في بيت صغير على شاطئ البحر. لا يعرف يهودا العجوز ما جرى لي، وهذا أفضل. أحتاج أن أصادف النظرات السابقة، وألّا أخال الصمت إحراجاً أو الابتسامة شفقة. في طريقنا إلى هناك، تحاشينا الحديث عن الرسالة. لزمنا الصمت لئلا نخاطر بالكلام. تقود كيم سيارتها النيسان، وقد وضعت نظاراتها الشمسية. يتطاير شعرها في ريح السباق. تنظر مباشرة أمامها، محكمةً ذراعيها حول المقود. من جهتي، أتأمل رسغي المضمَّد، وأحاول الاهتمام بهدير المحرك.

استقبلنا يهودا العجوز بلباقته المعهودة. ترمَّل منذ ثلاثين عاماً، ورحل أولاده للعيش تحت سماوات أخرى. إنه عجوز ناحل، بدت العظام في أعلى وجنتيه، وتحجرت مقلتاه في وجهٍ أضنته السنون. يتماثل للشفاء من سرطان في غدة البروستاتا أوهن قواه في غضون أشهر قليلة. يفرح دائماً حين يزوره الناس، كما لو أنهم يردون له الروح. يعيش متنسكاً رغماً عنه، منسياً في بيته الذي شيده بيديه، وسط كتبه وصوره التي تروي بالطول وبالعرض فظائع الإبادة. ولذلك، عندما يدق بابه قريب أو صديق، يكون الأمر كما لو أن أحدهم رفع الفتحة التي يختبئ تحتها لإشاعة بعض النور في ليله الدامس.

تناولنا الغداء، نحن الثلاثة، في مطعم قرب

الشاطئ. إنه نهار جميل. تستفرد الشمس بالسماء باستثناء سحابة منفوشة تنسج أهدابها في الأجواء. يسترخي بعض العائلات على الرمل، بعضها يتحلق حول وجبة خلوية مرتجلة، وبعضها الآخر يفضل السير في الماء التي تصل إلى الربلتين. يطارد الأطفال بعضهم بعضاً، مزقزقين كالعصافير...

سألني يهودا العجوز عن كثب: ـ لماذا لم تحضر سهام؟

توقف قلبي عن الخفقان.

كادت كيم تختنق بزيتونتها إذ أخذت بدورها على حين غرة. كانت تخشى أن يطرح جدها مثل هذا السؤال، ولكنها توقعت أن يفعل أبكر من ذلك، لأن حذرها تراخى بعد أن لاحظت أن السؤال لم يأت. لمحتها تتشنج، وقد احمرَّ وجهها، تترقب جوابي مثلما يترقب مذنبٌ إعلان الحكم. مسحتُ شفتي بفوطة، وأجبته، بعد صمت متأمل، أن سهام مشغولة. هزَّ يهودا العجوز رأسه، وعاود تحريك حسائه. فهمت أنه استفسر بدون أية نية مبيتة، ولعله فعل لكسر الصمت الذي كان يضرب على كل منا في زاويته حجراً صحياً.

بعد الغداء، رجع يهودا العجوز إلى البيت من أجل القيلولة، ومضينا، أنا وكيم، نسير على الرمل. ذرعنا الشاطئ من أوله إلى آخره، بأيدينا المشبوكة خلف

ظهرنا وأفكارنا الشاردة. كانت موجة جريئة تتدحرج صوبنا أحياناً، تلحس كواحلنا، ثم تنسحب خلسة.

قصدنا كثيباً، مرهقين ومنشطين، لنرصد غروب الشمس. ينأى بنا الليل عن فوضى الأشياء ويريحنا.

جاء يهودا باحثاً عنا. تناولنا العشاء على الشرفة، ونحن نصغي إلى البحر يفكك الصخور. كلما همَّ يهودا العجوز بسرد سيرة أسرته التي أرسلت إلى معسكرات الاعتقال، ذكّرته كيم بأنه وعدها بعدم إفساد السهرة. اعترف أنه تعهد بعدم إثارة مآسي الأمس، واستقر في مقعده، منزعجاً بعض الشيء لأنه مضطر للاحتفاظ بذكرياته لنفسه.

اقترحت عليّ كيم النوم في الغرفة العلوية على سرير ميداني، واختارت هي النوم أرضاً، على مرتبة إسفنجية. أطفأنا الأنوار باكراً.

أمضيتُ الليل أحاول أن أفهم كيف وصلت سهام إلى ما وصلت إليه. منذ متى بدأت تفلت مني، وكيف لم ألاحظ شيئاً؟... من المؤكد أنها حاولت أن ترسل لي إشارة، أن تقول لي شيئاً لم أنتبه له فوراً. أين كنت شارداً؟ بالطبع، فقدت نظرتها الكثير من رونقها، في الأيام الأخيرة، وتباعدت ضحكاتها، إنما هل كانت تلك الرسالة التي عليّ أن أفك رموزها، واليد الممدودة التي عليّ أن أمسك بها من كل بدٍّ للحؤول

دون مصادرة الطوفان لها؟ كانت مؤشرات واهية لمن كان لا يبخل بوسيلة لتكون كل قبلة احتفالاً، وكل معانقة نشوةً. قلبت الذكريات رأساً على عقب بحثاً عن تفصيل من شأنه أن يطمئن روحي، فلم أجد ما يقنع. بين سهام وبيني، كان حباً مثالياً لا يبدو أن أية نغمة ناشزة تخدش أناشيد الغرام التي تتغنى به. لم نكن نتبادل الكلام بل يقول أحدنا الآخر حسب تعبير راوي قصص الحب المباركة. لو صدر عنها أنين في بعض الأحيان، لخلتُ أنها تغني لأنني لم أستطع أن أتخيلها على هامش سعادتي فيما هي التجسيد الكامل لتلك السعادة. مرة واحدة، ذكرتْ الموت. حدث ذلك على ضفة بحيرة سويسرية فيما الأفق الغسقي يخال نفسه لوحة لفنان عظيم. أسرَّت لي: "لن أعيش بعدك دقيقة واحدة. أنت الكون بالنسبة إلي. إنني أتداعى كلما غبتَ عن ناظري." كانت سهام مشرقةً بثوبها الأبيض في تلك الأمسية، والرجال الجالسون إلى الموائد حولنا على شرفة المطعم يلتهمونها بنظراتهم، والبحيرة كأنها تستلهم طراوتها لتستقبل طراوة الليل... لا، لم تنذرني في ذلك المكان؛ كانت سعيدة جداً، منتبهة جداً للنسمة التي تثير في صفحة الماء رعشةً؛ كانت أجمل ما يمكن أن تهبني إياه الحياة.

نهض يهودا العجوز قبلنا. سمعته يعدُّ القهوة. أبعدت الغطاء، ارتديت سروالي، وانتعلت حذائي. ثم فشخت فوق كيم الراقدة مثل كلب صيد في أسفل سريري، وقد التف الغطاء حول ربلتيها.

في الخارج، كان الليل يحزم أمتعته.

نزلت إلى الطابق الأرضي، وألقيت التحية على يهودا الجالس في المطبخ، وبين يديه قدح ساخن.

ـ صباح الخير يا أمين... هناك قهوة على الموقد.

بادرته قائلاً: ـ أشربها لاحقاً. سأذهب أولاً لمشاهدة شروق الشمس.

ـ فكرة ممتازة.

سرتُ في درب ضيقة باتجاه الشاطئ. جلستُ على صخرة، وركزتُ على الثغرة المتناهية الصغر التي تخدش الظلمات. تنبشُ النسمةُ تحت قميصي، وتبعثرُ شعري. أحزِّم ركبتي بذراعي، وأضع عليهما برفقٍ ذقني. لا يحيد نظري عن الخط الأغبش الذي يرفع ببطء أذيال الأفق...

باغتني يهودا العجوز إذ ارتمى إلى جانبي: ـ دع لغط الأمواج يمتص ما يضجُّ في أعماقك. إنها أفضل وسيلة لإفراغ الروح من همومها...

أصغى إلى موجة تتغرغر في باطن صخرة، ثم أسرَّ لي، ماسحاً أنفه برسغه:

ـ يجب أن نتأمل البحر دائماً. إنه مرآة لا تجيد

الكذب علينا. هكذا تعلمت ألا أنظر إلى الوراء. من قبل، حالما كنت ألقي نظرة إلى الوراء، أصادف أحزاني وأشباحي كما هي. كانت تمنعني من تذوق طعم الحياة مجدداً، أتفهم؟ تفسد كل فرصي بالانبعاث من رمادي...

أخرج من الرمل حصاة، وراح يزنها بيده بذهن شارد.

تهدَّج صوته حين أضاف:

ـ ولهذا السبب، اخترتُ، في آخر حياتي، الموت في بيتي على شاطئ البحر... فمن ينظر إلى البحر ينسى مآسي الدنيا، ويقنع بها إلى حد ما.

رسمت ذراعه قوساً حين رمى الحصاة في الماء.

روى لي: ـ أمضيتُ جلَّ حياتي أترصد عذابات الماضي. ما من شيء كان يطيب لي أكثر من خشوع أو إحياء ذكرى. كنت مؤمناً أنه لم تكتب لي النجاة من المهلكة إلا لأصون ذكراها. كنت لا أرى سوى النصب التذكارية. حالما أعلم بتدشين نصبٍ في بلدٍ ما، أستقل الطائرة فوراً لأكون في الصفوف الأمامية. كنت أسجل كل المحاضرات التي لها صلة بابادة اليهود، وأجوب أنحاء الكرة الأرضية لأروي معاناة شعبنا في معسكرات الإبادة، معلقاً بين غرف الغاز والمحارق... ومع ذلك، لم أشهد شيئاً يذكر من المحرقة. كنت في الرابعة. أتساءل أحياناً إن لم يكن بعض ذكرياتي حصيلة

صدمات ألمت بي بعد الحرب، في القاعات المظلمة التي تعرض فيها أفلام وثائقية عن الفظائع النازية.

بعد صمت مديد، اضطر خلاله لاحتواء دفق انفعالاته، تابع الكلام:

ـ ولدتُ لأكون سعيداً. تراءى لي أن العناية الإلهية قد وضعت كل الحظوظ إلى جانبي. كنت معافى الجسد والذهن. أسرتي ثرية، والدي الطبيب يزاول مهنته في أشهر عيادة ببرلين، وأمي تدرِّس تاريخ الفن في الجامعة. كنا نقطن بيتاً رائعاً في أحد الأحياء الراقية، تشبه حديقته المرج، ولدينا خدم يحيطونني برعايتهم، أنا صغير إخوتي الستة.

"لاحظنا أن الأوضاع لم تكن وردية في المدينة. كان الفصل العنصري يتفشّى كل يوم أكثر من اليوم السابق، والناس يتفوّهون بملاحظات مجافية حين يصادفوننا في الشارع. ولكننا نعيش في قلب السعادة فور عودتنا إلى البيت...

"ثم اضطررنا ذات صباح للتخلي عن ملاذنا الهادئ للانضمام إلى زرافات العائلات الحائرة، المطرودة من بيوتها، والفريسة لشياطين (ليلة الكريستال). ثمة صباحات تشرق على ليال أخرى، أما ذلك الصباح في خريف 1938، فهو بلا شك أكثرها انحداراً إلى قعر الهاوية. سأتذكر طويلاً ذلك الصمت المرافق لمأساة أولئك الأشخاص الذين تفرَّغت

نظراتهم، وكانت النجمة الصفراء تشوه تشويهاً مهيناً تفصيل ثيابهم.

ـ لقد ظهرت النجمة الصفراء في أيلول/ سبتمبر 1941.

ـ أعلم، ومع ذلك، فهي هنا، تُطعِّم كل ذكرياتي، تجتاح ذاكرتي حتى في أبعد حناياها. أتساءل إن لم أولد معها... كانت قامتي لا تتجاوز ثلاثة أشبار إنما يبدو لي أنني أرى من فوق رؤوس الكبار بدون أن ألمح ولو ركناً ضيقاً من الأفق. كان صباحاً فريداً من نوعه. الاكفهرار يحاصرنا من كل الجهات، والضباب يمحو آثارنا على دروب اللاعودة. أذكر كل اختلاجة على الوجوه الخامدة، والأمارات المخبولة المثقلة بالمآسي، والأوراق الذابلة التي تفوح برائحة الجيفة. عندما كانت ضربة عصا تطيح بمعذب منهك، أشخص إلى والدي حائراً في ما يجري، فيعبث بشعري، ويهمس لي: " لا بأس. سوف تكون الأمور على ما يرام...". أقسم لك أنني أحسُّ، لحظة أخاطبك، بأصابعه على جمجمتي، فتسري في بدني القشعريرة...".

أنّبته كيم التي انضمت إلينا: ـ (سابا)!، فرفع العجوز ذراعيه مثل صبي صفيق قبض عليه وهو يقحم إصبعه في مرطبان المربى.

ـ أرجوك المعذرة. هذا أقوى مني. عبثاً عاهدتُ نفسي ألا أنكأ الجرح، إنما هذا ما أفعله بالضبط، كلما رأيت أن لدي ما أقوله.

بادرته كيم، وهي تدلِّك عنقه بحنان: ـ لأنك لا تتأمل البحر كفاية يا (سابا) العزيز.

تأمل يهودا العجوز في كلام حفيدته كما لو أنه يسمعه للمرة الأولى. غشي عينيه اكفهرار بعيد، تقضُّه ذكريات مأساوية. خلال لحظات قليلة، لاح تائهاً، وتعذرت عليه استعادة رباطة جأشه؛ ثم استردّ شيئاً من تبصّره بفضل يدي حفيدته اللتين تدلكان عنقه.

ـ أنت محقة يا كيم، فأنا أثرثر...

ثم أضاف بصوت مرتعش:

ـ لا أفهم أبداً لماذا يشعر الناجون من مأساة بأنفسهم مرغمين على الإيحاء بأنهم يستحقون الشفقة أكثر من الذين قضوا نحبهم فيها.

جرت نظرته على رمل الشاطئ، وغاصت وسط الأمواج، ومضت تهيم في عرض البحر فيما كانت يده المعروقة ترتفع ببطء نحو يد حفيدته.

تأملنا، نحن الثلاثة، غارقين في صمتنا، الأفق الذي أضرم فيه الفجرُ ألف حريق، ويقيننا أن لا النهار الذي يشرق، ولا النهارات التي سبقته، بوسعها إشاعة ما يكفي من النور في قلوب البشر.

7

كانت كيم هي التي أحضرت أخيراً سيارتي من المستشفى. تشير آخر الأنباء إلى أنني لم أعد شخصاً مرغوباً به هناك. استطاع إيلان روس تأليب أغلبية الطاقم الطبي ضدي. ومن بين موقعّي العرائض المعترضة على عودتي، اقترح بعضهم تجريدي من جنسيتي الإسرائيلية.

لا يفاجئني موقف إيلان روس كثيراً. لقد فقد أخيه الأصغر، الرقيب في حرس الحدود، أثناء كمين في جنوب لبنان، منذ عشر سنوات. لم يتمكن من تخطّي ذلك. لا يسمح لنفسه أن ينسى أصولي وإرثي وإن تلازمنا في أغلب الأحيان. على الرغم من مهاراتي كجراح ونجاحي في علاقاتي المهنية والاجتماعية، أظل، بنظره العربي الذي لا ينفصل عن صورته الوضيعة، وبدرجة أقل، عن كونه العدو المحتمل. في بادئ الأمر، ظننتُ أنه عضو في حركة عنصرية ولكني

أخطأت الظن، فقد كان يغار من نجاحي فقط لا غير. لم أتضايق منه، ولم يزده موقفي تعقلاً. عندما يضيق ذرعاً بالاحترام الذي تنتزعه أبحاثي، ينسبُ أكاليل الغار التي أحصل عليها إلى مجرد إجراء سكاني يقوم على إرساء الاندماج الذي كنت أكثر عيناته إقناعاً. وجاء التفجير في (حكيرية) في اللحظة المناسبة لتبرير انتفاضة شياطينه القديمة.

باغتتني كيم: ـ صرت تكلم نفسك.

يباغتني كذلك رونقها. يخال المرء أنها جنية خارجة من نبع الفتوة، بشعرها الفاحم المتهدل على ظهرها، وعينيها النجلاوين المكحلتين. ترتدي سروالاً أبيض متقن التفصيل، وقميصاً يلتف حول تموّج نهديها المغري التفافاً تاماً. كان وجهها مرتاحاً، وابتسامتها مشرقة. يتراءى لي أنني ألاحظها أخيراً بعد كل الأيام والليالي التي تقاسمتها معها في حالتي غير الطبيعية. حتى البارحة، كانت مجرد ظل يدور في فلك تساؤلاتي. لا أستطيع أن أتذكر شكل ثيابها وتبرّجها، وما إذا كان شعرها مرسلاً على كتفيها أم مضموماً حول كعكة.

ـ لسنا وحدنا أبداً يا كيم.

دفعت كرسياً نحوي وامتطته. يكاد عطرها يسكرني. أرى يديها الرقيقتين تبيضّان عند المفاصل وهما تعانقان مسند الكرسي. يرتعش فمها المتردد حين تسألني:

ـ قل لي مع من كنت تتكلم؟

ـ لم أكن أتكلم بل أفكر بصوت مسموع.

نفحت فيها سكينة نبرتي الجرأة. انحنت من فوق مسند الكرسي لترمقني عن كثب، وتهمس لي همساً يريد أن يكون متواطئاً:

ـ بأي حال، كنت تبدو مع رفقة ممتعة. حزنك يزيدك وسامةً.

ـ لعله أبي على الأرجح. يخطر ببالي كثيراً هذه الأيام.

تقدمت يداها لمواساة يديَّ. تقاطعت نظراتنا، ثم هربت على الفور، خشية اكتشاف برائق قد تسبب لها الحرج.

سألتني تبديداً للحرج الذي استقر فجأة في الحجرة: ـ كيف أصبح رسغك؟

ـ يمنعني من النوم. في باطن راحتي ما يشبه الحصاة المزروعة، والخدر يدب في مفاصلها.

لامست كيم الضمادة التي تشد يدي، وحركت أصابعي بحنان.

ـ أعتقد أنه يجدر بنا العودة إلى المستوصف لاستجلاء الأمر. كانت صورة الأشعة الأولى رديئة. ربما أصبت بكسر.

ـ حاولت قيادة السيارة هذا الصباح. توجعتُ وأنا أمسك بالمقود.

سألت مضطربةً: ـ أين كنت تنوي الذهاب؟

ثم نهضت مقطبة الجبين:

ـ هلمَّ بنا نفحص هذا الرسغ، فهذا ما يمليه العقل.

أقلّتني ثانية إلى المستوصف في سيارتها. لم تنبس ببنت شفة طوال الطريق، منشغلة بالتأكيد في تخمين الوجهة التي كنت سأقصدها هذا الصباح وراء مقودي. لا بد أنها تتساءل ما إذا كانت تضيّق عليّ الخناق لفرط ما تحيطني برعايتها .

أتحرق رغبةً لأضع يدي على يدها، وأقول لها كم أسعفني الحظ لأنها تشدُّ أزري، ولكني لا أجد في أي مكان القوة لأجعل هذه الحركة ممكنة. أخشى أن تهرب مني يدي، ألا تأتي الكلمات، أن يفسد تصرفٌ أخرق احتشام نواياي ـ أظن أنني أفقد ثقتي بنفسي.

تولت أمري ممرضة بدينة. لم ترق لها على الفور هيئتي العليلة، فأوصتني بنبرة حازمة بتحسين نوعية غذائي اليومي، والتركيز على اللحم المشوي والخضار لأنني ألوح لها، كما همست في أذني، مثل شخص مضرب عن الطعام. تفحّص الطبيب صورة الأشعة الأولى، واعتبر أنها واضحة جداً. تمنَّع كثيراً قبل السماح بتصويري ثانية. أكدت الصورة الجديدة التشخيص السابق ـ لا كسر، ولا تشقُّق كذلك، بل مجرد رضة هائلة عند قاعدة السبابة، ورضة أخرى أقل شدة على مستوى الرسغ. وصف لي مرهماً، ومضادات

للالتهاب، وأقراصاً لمساعدتي على النوم، وأرسلني مجدداً إلى الممرضة.

لمحتُ نافيد رونين عند مخرج المستوصف. كان ينتظرنا في سيارته بمرأب المركز الطبي، وقد رفع قدمه ووضعها على عتبة الباب المفتوح، وشبك يديه خلف عنقه، محدقاً بصبرٍ إلى أعلى مصباح.

قلت إذ فوجئت بوجوده هنا:

ـ هل تتعقبني أم ماذا؟

وبَّختني كيم، مستاءة: ـ لا تتفوَّه بالحماقات. اتصل بي على هاتفي المحمول للسؤال عنك، فدعوته لموافاتنا هنا.

أدركتُ حجم فظاظتي، ولم أعتذر.

ـ لا تدع الحزن يشوّه لياقتك يا أمين.

قلت لها، بعصبية: ـ عمَّ تتكلمين؟

أجابت، وهي تنظر إلى عينيّ نظرة مباشرة: ـ لا تجدي الفظاظة نفعاً.

ترجل نافيد من سيارته. كان يرتدي بدلة رياضية بألوان الفريق القومي لكرة القدم، وينتعل حذاء رياضياً جديداً، وقبعة سوداء ردَّها إلى الخلف. انسكب كرشه على ركبتيه، ضخماً ورخواً، يكاد يكون مضحكاً. لا يبدو أن جلسات التمارين الرياضية المطوَّلة التي يفرضها على نفسه بصرامة دينية قادرة على احتواء كرشه الذي يتكور يوماً بعد يوم. ليس نافيد فخوراً بمظهره الرديء الذي تزيد من محنته السنتمترات الناقصة في

قدمه، الأمر الذي يجعل مشيته مخلّعة، ويضع الهيبة والسلطة اللتين يبغي تجسيدهما موضع تشكيك.

قال لي، كما لو أنه يبرر وجوده: ـ كنت أمارس رياضة المشي في الحي.

أجبته: ـ هذا ليس ممنوعاً.

لاحظت على الفور عدوانية تلميحاتي وانعدام لباقتها، إنما لم أشعر، وعلى نحو يدعو للعجب، بأية حاجة لتصحيح الوضع. أكاد أقول إنني أستمتع بذلك، متعةً مظلمة مثل الظل الذي يغشى روحي. لست خبيثاً بطبعي، ولكنني لا أدري في الوقت نفسه ما السبيل لاحتواء هذا الخبث.

قرصت كيم ذراعي خلسةً، وهي حركة لم تفت نافيد.

غمغم، وقد خاب ظنه جداً: ـ حسناً، إذا كنت أزعجك...

حاولت تصحيح هفوتي: ـ لماذا تتفوّه بمثل هذا الكلام؟

حدجني بنظرة اختلجت عضلات وجهه لشدة حدتها. يجرح سؤالي شعوره أكثر من تلميحاتي. يعود أدراجه، يقف أمامي، ويحدق إلي تحديقاً يمنعني من الإشاحة بنظري. إنه يستشيط غضباً.

قال بنبرة متذمرة: ـ هل تطرح عليّ هذا السؤال يا أمين؟ أنا أتحاشاك أم أنت الذي ترجع على عقبيك

حالما تشم وجودي في الجوار؟ ماذا دهاك؟ هل أسأتُ إليك بغير علم مني، أم أنك تتحامق؟

ـ ليس هذا على الإطلاق. إنني سعيد لرؤيتك.

ضيَّق جفنيه.

ـ غريب، لا أقرأ ذلك في عينيك.

ـ ومع ذلك، فهذه هي الحقيقة.

اقترحت علينا كيم : ـ ما رأيكما لو ذهبنا لتناول كأس؟ أنا أدعوكما، ولك اختيار المكان يا نافيد.

قبل نافيد أن يتجاهل فظاظتي، ولكن حزنه يقاوم. أخذ نفساً عميقاً، ونظر جانباً مفكراً، ثم اقترح علينا الذهاب إلى (صهيون)، وهي حانة صغيرة هادئة، غير بعيدة عن المستوصف، تقدم أفضل المقبلات في هذه النواحي.

فيما كانت كيم تتبع سيارة نافيد، حاولت تحديد أسباب عدوانيتي تجاه ذاك الذي لم يتخل عني في حين أفردتُ إفراد البعير المبعد. أبسبب ما يمثله، بسبب شارة الشرطي التي يحملها؟ مع ذلك، ليس من السهل على شرطي أن يواصل الاختلاط برجلٍ زوجته انتحارية... بنيتُ وهدمتُ هذه النظريات على أمل عدم الاسترسال في اعتبارات من شأنها أن تحمل الناس على الانفضاض من حولي، وأن تعاظم انعزالي في همي. الغريب في الأمر أن الحاجة القاهرة لارتكاب الخطأ تبدو لي سديدة في اللحظة التي أحذر فيها من

الانزلاق على منحدر سوء. هل هو رفضي الانفصال عن ذنب سهام الذي يدفعني إلى إظهار الجفاء؟ في هذه الحالة، ما الذي يصيبني؟ ماذا أحاول أن أثبت وأبرِّر؟ وماذا نعلم حقاً عن الصواب والخطأ؟ الأمور التي تلائمنا ؛ تلك التي لا تناسبنا. إننا نفتقر إلى التبصر سواء كنا على صواب أم على خطأ. هكذا يعيش البشر: في الأسوأ حين يكون أفضل ما عندهم، وفي الأفضل حين لا يعني شيئاً... تحاصرني أفكاري، تتلاعب بمشاعري. تقتات من ضعفي، تستغل حزني. أدرك عملها الهدام وأدعها تفعل فعلها مثلما يستسلم الحارس الليلي المطمئن للنعاس. لعل دموعي أغرقت القليل من حزني، ولكن الغضب حاضر، مثل ورم يختفي في أعماقي، أو وحش أعماق رابض في عتمة مغارته، متحيِّناً اللحظة المؤاتية ليطفو على السطح، ويروِّع عالمه. هذا ما تعتقده كيم أيضاً. إنها تعلم أنني أسعى للتنفيس عن هذا الرعب المُتخِم الذي يتخبط في أحشائي، وأن عدوانيتي مجرد أمارة لعنف شديد ينبع بمشقة في قرارة نفسي، ريثما يجمع الشحنات الدفعية لفورانه. وإذا كانت لا تحيد نظرها عني ثانية واحدة، فللحدِّ من الأضرار. ولكن لعبتي المتكدِّرة تحيّرها، وبدأ الشك يخامرها.

جلسنا على شرفة المقهى الصغير وسط ساحة مبلطة. يتوزع بعض الزبائن هنا وهناك، بعضهم مع رفقة

ممتعة، وبعضهم الآخر يتأمل بشرود كأسه أو فنجانه. صاحب المقهى رجل فارع القامة، يتلثم رأسُهُ بشعر متمرد يتوه في لحية مثل لحى الفايكنغ. كان أشقر مثل حزمة تبن، مكسواً بالشعر من الذراعين حتى المنكبين، يكاد يختنق في كنزته البحرية. اقترب لإلقاء التحية على نافيد الذي يعرفه على ما يبدو، ثم دوَّن طلباتنا وانسحب.

استفسر نافيد، وهو يراني أبرز علبة سجائر: ـ منذ متى تدخن؟

ـ منذ أن صار حلمي هباءً.

تضايقت كيم التي اكتفت بشدٍّ قبضتيها من هذا الجواب. فكر به نافيد بهدوء، وقد مطَّ شفته السفلى إلى الأسفل. لوهلةٍ، شعرت أنه على قاب قوسين من توبيخي؛ وأخيراً، انقلب على مسند كرسيه، وشبك يديه على قمة كرشه.

عاد صاحب المقهى بصينية؛ وضع جعةً تعلوها الرغوة أمام نافيد، وعصير طماطم أمام كيم، وفنجان قهوة أمامي. وجه إلى رئيس الشرطة دعابة مسلية وانسحب. قربت كيم قبلنا نحن الإثنين كأسها من شفتيها، وجرعت ثلاث جرعات صغيرة متواصلة. إنها تشعر بخيبة شديدة وتلزم الصمت لئلا تنفجر في وجهي.

سألتُ نافيد: ـ كيف حال مارغريت؟

لم يرد على الفور. استغرق بعض الوقت لارتشاف جرعة، محترساً، قبل أن يجازف بالقول:

ـ إنها بخير، شكراً.

ـ والأولاد؟

ـ أنت تعرفهم، مرة يتفاهمون، ومرة يتخاصمون.

ـ هل ما زلت تعتزم أن تزوج (إيديت) بذلك الميكانيكي؟

ـ هذه رغبتها.

ـ هل تعتقد أنه عريس مناسب؟

ـ في مثل هذه الأمور، لا يفكر المرء بل يصلّي.

أومأتُ موافقاً:

ـ أنت محق. لطالما كان الزواج لعبة حظ. لا جدوى من القيام بحسابات أو اتخاذ احتياطات؛ إنه يخضع لمنطقه الخاص.

لاحظ نافيد أن كلامي ليس مبطّناً. استرخى قليلاً، وتلذذ بجرعة من الجعة، وتلمّظ، ثم رفع نحوي نظرة شاسعة.

ـ ورسغك؟

ـ أصيب برضة شديدة، ولكنه لم يصب بكسر.

اصطادت كيم سيجارة من علبتي. ناولتها قداحتي. شفطت السيجارة بشراهة، ثم عدّلت جلستها، وهي تنفث سحابة كثيفة من الدخان عبر منخريها.

سألته مباشرة: ـ أين وصلت التحريات؟

كادت كيم تختنق بنفسٍ لم تحسن ابتلاعه. تفرّس نافيد في وجهي، متوخياً الحذر مجدداً:

ـ لا أريد أن أتشاجر معك يا أمين.

ـ ولا هذه نيتي. من حقي أن أعرف.

ـ أن تعرف ماذا بالضبط؟ ما ترفض مواجهته.

ـ ليس بعد اليوم. أعلم أنها هي.

راقبتني كيم عن كثب شديد، بسيجارتها القريبة من خدها، وعينها التي ضيقتها بسبب الدخان. لم تفهم مغزى كلامي.

أبعد نافيد برفق كأس الجعة كما لو شاء أن يخلي المجال من حوله للإنفراد بي:

ـ تعلم أنها هي ماذا؟

ـ أنها هي التي فجرت نفسها في ذلك المطعم.

ـ ومنذ متى، قل لي؟

ـ هل هذا استجواب يا نافيد؟

ـ ليس بالضرورة.

ـ إذن، قل لي فقط إلى أين وصلت التحريات.

استرخى نافيد على مسند كرسيه.

ـ إلى نقطة الصفر. إننا ندور في حلقة مفرغة.

ـ والمرسيدس القديمة الطراز؟

ـ يملك حموي واحدة مثلها.

ـ مع كل الوسائل المتوافرة لديكم، وشبكات المخبرين التابعة لكم، لم تتوصلوا إلى...

قاطعني قائلاً: ـ لا يتعلق الأمر بوسائل أو مخبرين يا أمين، بل بامرأة فوق كل الشبهات، كانت تخفي

لعبتها جيداً بحيث أن أكثر مخبرينا دهاءً، مهما كان الأثر الذي يتعقبه، سوف يصل على الدوام إلى الطريق المسدود نفسه. ولكن ما يدعو للطمأنينة في هذه القضايا أنه يكفي مؤشر، مؤشر واحد، لتعود الآلية وتتحرك... هل تعتقد أن لديك مؤشراً؟

ـ لا أعتقد.

تململ نافيد على كرسيه، بتثاقل. ارتفق الطاولة، وجذب نحوه كأس الجعة التي أبعدها قبل دقيقة. انزلق إصبعه على طرف الكأس، ماسحاً في طريقه، رذاذ الرغوة. ناء صمتٌ مطبقٌ على شرفة المقهى.

ـ أنت تعلم على الأقل من هي الانتحارية، وهذا تقدم.

ـ وأنا؟

ـ أنت؟

ـ أجل، أنا؟ هل ثبتت براءتي أم ما زلت مشبوهاً؟

ـ لما كنت ترتشف قهوتك هنا لو كانت لدينا تهمة ضدك يا أمين.

ـ فلماذا أُوسعتُ ضرباً في بيتي؟

ـ لا علاقة لذلك بالشرطة. ثمة فورات غضب لا تخضع، مثل الزواج، إلا لمنطقها الخاص. يحق لك أن تقدم شكوى، ولكنك لم تفعل.

سحقتُ سيجارتي في المنفضة، وأشعلت سيجارة أخرى. أحسستُ فجأة أن مذاقها مقزّز.

ـ قل لي يا نافيد، أنت الذي شاهدت أعداداً من المجرمين والتائبين، وكافة أشكال الممسوسين المختلين، كيف يمكن لأحدهم، هكذا على حين غرة، أن يتحزّم بالمتفجرات، وينسف نفسه وسط حفلة؟

هزَّ نافيد كتفيه، وقد ارتسم على وجهه الضيق:

ـ إنه السؤال الذي أطرحه على نفسي كل ليلة بدون أن أجد له معنى، وأقله، جواباً.

ـ هل التقيت بمثل هؤلاء الأشخاص؟

ـ بالكثيرين منهم.

ـ كيف يبرِّرون جنونهم؟

ـ لا يبرِّرونه بل يتبنونه.

ـ لا تتصور كم تقض مضجعي تلك المسائل. اللعنة! كيف يقرر شخص عادي، معافى الجسد والذهن، بسبب استيهام أو هلوسة، أنه يضطلع بمهمة إلهية، ويتخلى عن أحلامه وطموحاته ليميت نفسه شرَّ ميتة وسط أفظع تجسيد للهمجية؟

أظن أن دموع السخط تغشى عينيَّ كلما قسا كلامي على تفاحة آدم في حلقي. تحرك كيم فخذيها حركة مِحمومة تحت الطاولة. أصبحت سيجارتها خيطاً من الرماد العالق في الفراغ.

تنهد نافيد ريثما يبحث عن كلماته. لاحظ ألمي، وبدا عليه أنه يتألم له.

ـ ماذا أقول لك يا أمين؟ أظن أن أكثر الإرهابيين

حنكةً يجهلون حقاً ما يحصل لهم. وقد يحصل ذلك لأي كان. تنطلق شرارة في مكانٍ ما من اللاوعي، ويحدث ذلك. لا تتمتع الأسباب بالقوة نفسها إنما هي أمور يصاب بها المرء هكذا عموماً (قالها وهو يفرقع إصبعيه)، أو يقع ذلك على رأسك كطوبةٍ، أو يعشش في داخلك كالدودة الوحيدة. بعدها، لن تنظر إلى العالم النظرة نفسها. تستحوذ عليك فكرة ثابتة: رفع هذا الشيء الذي يسكنك قلباً وروحاً لترى ما يوجد تحته. انطلاقاً من تلك اللحظة، لا يعود بوسعك التراجع. ولست أصلاً الذي يمسك زمام الأمور. تظن أنك تتصرف بملء إرادتك، ولكن هذا غير صحيح. أنت مجرد أداة لإحباطاتك. الحياة أو الموت سيان بالنسبة إليك. تكون قد عدلتَ نهائياً عن كل ما قد يمنح فرصة لعودتك إلى الأرض. أنت تحلّق. أنت كائن فضائي، تعيش في المطهر، تلاحق حور العين والحيوانات الأسطورية. لا تريد أن تسمع بعد اليوم بهذه الدنيا. تنتظر فقط لحظة الإقدام على الأمر. والأسلوب الوحيد للتعويض عما فقدته، ولتصويب ما أخطأت القيام به ـ أي باختصار، الأسلوب الوحيد لكي تتحول إلى أسطورة، أن تموت موتاً استعراضياً: تتحول إلى أسهم نارية وسط حافلة مدرسية أو إلى طوربيد ينطلق بسرعة جنونية ضد دبابة العدو. و(بوم)! تتقطع أوصالك، وتكافأ إذ تصبح شهيداً. يوم يلمُّون جثتك يصبح عندئذ، بنظرك، اللحظة الوحيدة التي

يعلون فيها من شأنك عند الآخرين. وكل الباقي، اليوم السابق واليوم اللاحق، لا يعود مشكلتك، لأنه لم يكن له وجود أبداً بالنسبة إليك.

ذكرته: ـ ولكن سهام كانت سعيدة جداً.

ـ هذا ما كنا نظنه جميعاً، ويبدو أننا أخطأنا الظن.

تناسينا أنفسنا في ذلك المقهى الصغير حتى ساعة متأخرة من الليل. أتاح لي ذلك التنفيس عن نفسي وتصريف العفونة التي تلوث ذهني. تلاشت عدوانيتي على هوى الأحاديث التي استحضرتها. فوجئتُ مراراً بدموع على طرف جفني، ولكني منعتها من الذهاب أبعد من ذلك. كانت يد كيم تلاطف يدي كلما تهدج صوتي. أظهر نافيد صبراً شديداً. تقبل فظاظتي، ووعد أن يعلمني بمسار التحقيق. افترقنا متصالحين، وأكثر التحاماً من أي وقت مضى.

اصطحبتني كيم إلى شقتها. تناولنا بعض الشطائر في المطبخ، ورحنا ندخن السيجارة تلو الأخرى في الصالون، ونتحادث في أمور شتى، ثم انسحب كل منا إلى غرفته. لاحقاً، جاءت كيم لتتحقق من أن لا شيء ينقصني. قبل إطفاء النور، سألتني مباشرة عن سبب عدم ذكري للرسالة أمام نافيد.

بسطتُ ذراعي، واعترفت لها:

ـ لا أدري.

8

على حد قول كيم، تلقت إدارة الصحة سيلاً من الرسائل من مرضاي السابقين وأقاربهم اعتبروا فيها أنني كنت ضحية أسوةً بالضحايا الذين لقيوا مصرعهم في المطعم الذي فجرته زوجتي. كانت الآراء متباينة في المستشفى؛ فبعد أن هدأت النفوس قليلاً، تساءل قسمٌ لا بأس به من خصومي عن الحكمة من العرائض التي وقعوها. أمام هذا الوضع الشائك، اعتبرت إدارة المستشفى أنها غير مؤهلة للبتِّ في هذه المسألة، وأحالتها على السلطات العليا لتتخذ قراراً بشأنها.

من جهتي، اتخذت قراري ـ لن أعود إلى مكتبي، ولا حتى لاسترجاع حوائجي. تأثرت جداً بالمؤامرة التي حاكها ضدي إيلان روس. ومع ذلك، كنت لا أستعرض تديناً مفرطاً في أي مكان. منذ أيام الجامعة، أحاول أداء واجباتي كمواطنٍ بأمانة. وإذ أدركت

النماذج المنمطة التي أتعرض لها أمام الناس، سعيتُ جاهداً لتخطيها الواحد تلو الآخر، مقدماً أفضل ما عندي، وتحملت حماقات رفاقي اليهود. منذ مراهقتي، أدركت أن الحل الوسط لا يجدي نفعاً، وأنه عليّ اختيار معسكري بسرعة. اخترتُ كفاءتي معسكراً، ومبادئي حليفاً مؤمناً أنني سأنتزع الاحترام على المدى الطويل. لا أعتقد أنني خالفت مرة القواعد التي حددتها لنفسي. كانت تلك القواعد الخيط الذي يوجهني، الحاد مثل شفرة الحلاقة. كانت أقل هفوة قاتلة بالنسبة إلى عربي تميز عن أقرانه، وسمح لنفسه بترف التقدم على زملاء دفعته، لا سيما حين يكون إبن بدوي، ينوء تحت الأفكار المسبقة، ويحمل، مثل أغلال السجين، تلك الصورة الكاريكاتورية التي يجرها بالطول والعرض من خلال دناءة البشر، تلك الصورة التي تشيئنه حيناً، وتصوره شيطاناً رجيماً حيناً آخر، وتقصيه في أغلب الأحيان. منذ سنتي الجامعية الأولى، أدركت شراسة المسار الذي ينتظرني، والجهود الجبارة التي عليّ أن أبذلها لأستحق المواطنية الكاملة. كانت الشهادة الجامعية لا تحل المسألة، بل عليّ الإغواء وإشاعة الطمأنينة، وتلقّي الضربات بدون ردّها، والتحلي بصبر أيوب عوضاً عن فقدان ماء الوجه. رأيت نفسي على

مضض أمثل جماعتي. ومن ناحية أو أخرى، كان عليّ النجاح من أجلها. لم أكن حتى بحاجة إلى تفويض من أهلي، فنظرة الآخرين توكلني حكماً بهذه المهمة الجحودة والخبيثة.

أتحدّر من بيئة فقيرة إنما عزيزة النفس، الوعد فيها والاستقامة صنوا الخلاص. كان جدي يحكم العشيرة كالبطريرك. يملك الأراضي لا الطموح، ويجهل أن طول العمر لا يرتبط بصلابة الإمساك بزمام الأمور إنما بالمراجعة المتواصلة لأشكال يقينه. توفي مسلوباً من أراضيه، مفتوح العينين على كامل اتساعهما، كسير الفؤاد من الذهول المهان. لم يشأ والدي أن يرث قصر بصره. لم يتحمس أبداً للزراعة بل أراد أن يكون فناناً، مما يعني في قاموس الأجداد متبطلاً وهامشياً. أذكر منتخبات من المشاجرات التي كانت تندلع كلما باغته جدي يرسم لوحات في كوخ حوَّله إلى مرسم بينما أفراد الأسرة يكدحون، كباراً وصغاراً، في البساتين. كان والدي يجيب بهدوئه الأولمبي أن الحياة لا تقوم فقط على التعشيب، والتشذيب، والري، والقطاف، وأنها كذلك رسم، وغناء، وكتابة؛ وتعليم؛ وأن أجمل دعوة هي شفاء الناس. كانت أغلى أمانيه أن أصبح طبيباً. قلما رأيت أباً تفانى من أجل فلذة كبده مثله. كنت ابنه الوحيد. لئن لم يشأ إكثار ذريته، فليعزز

حظوظي. راهن على كل ما يملك ليقدم للعشيرة جرّاحها الأول. ولما رآني أبرز شهادة الدكتوراه، ارتمى بين ذراعي مثل جدول يرتمي في البحر. في ذلك اليوم، لمحت للمرة الأولى والوحيدة دموعاً على خديه. توفي على سرير مستشفى مُداعِباً، كأن الأمر يتعلق بذخيرة مقدسة، السماعة التي كنت أضعها عمداً لإشاعة السرور في قلبه.

كان أبي رجلاً صالحاً. يتعاطى مع الأمور كيفما جاءت، بدون زيفٍ أو ضجة. لا تعني له مواجهة الصعاب شيئاً، وحين يعاني من ضائقة مادية، لا يتذمر. فالشدائد عنده ليست تجارب بل حوادث تتخلل مسار الحياة لا بد من تخطّيها، مع احتمال المعاناة بسببها في الدقائق التالية. قناعته وتبصّره متعة حقيقية. لوددتُ لو أشبهه، وأتحلى بزهده وتواضعه! بفضله، وبينما كان عودي يشبّ على أرض معذبة منذ أزمنة سحيقة، رفضت اعتبار العالم حلبة مصارعة. كنت أرى أن الحروب تتعاقب، وأعمال الثأر والانتقام تتوالى، ولكنني كنت أحجم عن ضمانتها بطريقة أو بأخرى. لم أؤمن بنبوءات الخصومة، ولم أفلح في تقبّل قدرة الله على تأليب عباده بعضهم على بعضهم الآخر، واختزال ممارسة الإيمان إلى مسألة موازين قوى سخيفة ومروعة. ومنذ ذلك الحين، صرتُ أرتاب أشد الريبة من الذي يطالبني بالقليل من دمي لتطهير روحي. لم أشأ الإيمان

لا بوديان الدموع ولا بوديان الظلمات، فهناك مواقع أكثر جاذبية وأقل جنوناً من حولنا. كان أبي يقول لي: "من يقول لك إن ثمة سيمفونية أعظم من الروح التي تحركك يكذب عليك، يريد النيل من أجمل ما عندك: فرصة الاستفادة من كل لحظة من حياتك. إذا انطلقت من المبدأ الذي مفاده أن عدوك اللدود هو ذاك الذي يحاول زرع الحقد في قلبك، تكون قد عرفت نصف السعادة. أما الباقي فما عليك سوى أن تمد يدك لقطفه. وتذكر جيداً أن لا شيء، لا شيء على \الإطلاق يفوق الحياة... وحياتك لا تفوق حياة الآخرين."

لم أنسَ ما قاله لي.

جعلت منه شعاري الأول، مقتنعاً أن البشر سيكونون قد بلغوا النضج حين يتبنون هذا المنطق.

أعادت لي مناوشاتي مع نافيد رباطة جأشي. ولئن لم ترجع لي كامل تبصّري، فقد أتاحت لي سبر أعماقي مع بعض المسافة. ما زال الغضب حاضراً، ولكنه لا يتحرك في أحشائي مثل جسم غريب يترقب رد فعل غثياني لينفر إلى الهواء الطلق. يحدث لي أن أجلس على الشرفة، وأتأمل السيارات التي أجد فيها بعض الجاذبية. لم تعد كيم تراقب كلامها بالحذر المفرط نفسه الذي تعتمده منذ ثلاثة أيام. ترتجل تصرفات هزلية لتنتزع مني البسمة. وعندما تذهب إلى المستشفى صباحاً، لا أكتفي بالبقاء في غرفتي بانتظار

عودتها. تعلمت الخروج للتنزه في الشوارع. أذهب إلى المقاهي للتدخين، أو إلى ساحة، أجلس على أحد مقاعدها، وأراقب الأطفال الذين يقفزون تحت الشمس. لا أستطيع بعد أن أقترب من جريدة، إلا أنني لا أحثّ الخطى للانتقال إلى رصيف آخر حين أسمع بالصدفة مذياعاً يبث أخباراً على هوى نزهاتي.

زارني عزرا بن حاييم عند كيم. لم نتحدث لا عن استئناف عملي المشكوك فيه، ولا عن إيلان روس. استفسر عزرا عن صحتي، وعما إذا كنت أستعيد توازني. اصطحبني إلى مطعم ليثبت لي أن الخروج برفقتي لا يحرجه. ألححت لتسديد الحساب. بعد العشاء، وبما أن كيم كانت مناوبة، قصدنا إحدى الحانات لنثمل مثل إلهين تخليا عن طيشهما بعد أن استنفدا كل لعناتهما.

ـ يجب أن أذهب إلى بيت لحم.

توقفت قرقعة الأطباق القادمة من المطبخ. استغرقت كيم بضعة ثوانٍ قبل أن تطل عبر الباب. تفرّست في وجهي، وقد أرخت حاجباً أكثر من الآخر.

سحقتُ سيجارتي في المنفضة، وتهيأت لأشعل واحدة أخرى.

جففت كيم يديها بخرقة معلقة على الحائط، ثم وافتني إلى الصالون.

ـ هل تمزح؟

ـ هل يبدو عليّ أنني أمزح يا كيم؟

انتفضت انتفاضة خفيفة.

ـ بالطبع، تمزح. ماذا ستفعل في بيت لحم؟

ـ لقد أرسلت سهام الرسالة من هناك.

ـ وماذا يعني ذلك؟

ـ يعني أنني أريد أن أعرف ماذا كانت تفعل هناك، وأنا أظنها عند جدتها في كفركنّا.

ارتمت كيم في الكرسي الخيزران قبالتي، متأففةً من نزهاتي غير المتوقعة. تنفست بعمق، كما لو أنها شاءت لجم استيائها، وعضضت شفتيها بحثاً عن كلمات لم تجدها، ثم أمسكت بصدغيها بين إصبعيها.

ـ إنك تفقد صوابك يا أمين. لا أدري ماذا يجول في خلدك، ولكنك تبالغ. ليس لديك ما تفعله في بيت لحم.

ـ لدي فيها أختٌ بالرضاعة. لا ريب أن سهام ذهبت إليها لتنفيذ مهمتها الجنونية. يحمل ختم البريد تاريخ الجمعة 27، أي قبل المأساة بيوم واحد. أريد أن أعرف من أقنعها بهذه العقيدة، من حزَّمها بالمتفجرات، وأرسلها إلى حتفها. لن أبقى مكتوف اليدين، أو أطوي صفحة لم أستوعبها.

كادت كيم تقتلع شعرها.

ـ هل تدرك ماذا تقول؟ أذكرك بأنهم إرهابيون.

هؤلاء الناس لا يمزحون. أنت جرّاح ولست شرطياً. عليك أن تعهد بهذه المهمة إلى الشرطة، فلديها الوسائل الملائمة والموظفون المؤهلون لإجراء مثل هذا التحقيق. لو شئت أن تعلم ما جرى لزوجتك، اذهب إلى نافيد، وأخبره بشأن الرسالة.

ـ إنها مسألة شخصية...

ـ هراء! لقد قتل سبعة عشر شخصاً، وسقط عشرات الجرحى. ليس في هذه القضية جانب شخصي. إنها تفجير انتحاري، ومعالجتها منوطة حصراً بأجهزة الدولة المؤهلة. أعتقد أنك تضل السبيل يا أمين. لو شئت حقاً أن تكون مفيداً، فسلِّم الرسالة إلى نافيد. لعلها الخيط الذي تنتظره الشرطة لإطلاق آلتها.

ـ هذا غير وارد. لا أريد أن يتدخل شخص آخر في شؤوني. أريد الذهاب إلى بيت لحم، وبمفردي. لست بحاجة إلى أحد. لدي هناك بعض المعارف. سوف أحملهم على الكلام، وأرغم بعضهم على إفشاء السر.

ـ ومن ثم؟

ـ من ثم ماذا؟

ـ فلنسلِّم أنك ستنجح في إرغام بعضهم على إفشاء السر، ماذا تنوي أن تفعل بعد ذلك؟ أن تشد آذانهم أم أن تطالبهم بعطل وضرر؟ لست جدياً. لا ريب أن هناك شبكة تقف وراء سهام، إضافة إلى إجراءات لوجستية

ومسار كامل. لا يقوم أحدهم بتفجير نفسه في مكان عام بدافع نزوة عابرة. إنها خاتمة غسيل دماغ طويل، واستعداد نفسي ومادي دقيق. تُتخذ تدابير احترازية مشدَّدة قبل الإقدام على الفعل. يحتاج المخططون إلى حماية قاعدتهم وتضليل المتعقبين. لا يختارون الانتحاري منفذ العملية إلا بعد أن يتيقنوا تماماً من تصميمه وموثوقيته. فتخيّل أنك تتدخل في شؤونهم، وتحوم حول مخابئهم. أتظن أنهم سينتظرون بهدوء أن تكشف هويتهم؟ سيبادرون إلى تصفيتك بسرعة شديدة، ولن يسنح لك الوقت لإدراك غباء مبادرتك. أقسم لك أنني أشعر بالهلع بمجرد أن أتخيلك تحوم حول وكر الأفاعي ذاك.

أمسكت بيدي، فاستثارت الوجع في رسغي.

ـ إنها ليست فكرة سديدة يا أمين.

ـ ربما، ولكنها لا تفارق بالي منذ أن قرأت الرسالة.

ـ أفهم ذلك، ولكن مثل هذه الأمور لا تناسبك.

ـ لا تتعبي نفسك يا كيم. تعلمين كم أنا عنيد.

رفعت ذراعيها لتخفيف التوتر.

ـ حسناً... لنؤجل النقاش إلى المساء. حتى ذلك الحين، أرجو أن تسترجع بعضاً من اعتدالك.

في المساء، دعتني إلى مطعم على شاطئ البحر. تناولنا العشاء على الشرفة، والنسمة تلطم وجهنا. البحر

كثيف، وفي لغطه وقار. فطنت كيم إلى أنها لن تستطيع أن تحملني على العدول عن مشروعي. راحت تنقر في طبقها مثل عصفور كليل.

المكان جميل. يديره مهاجر فرنسي، ويوفر إطاراً يخلو من التكلف، بواجهاته الزجاجية الكبيرة مثل آفاق شاسعة، ومقاعده المبطنة المصنوعة من الجلد الخمري، وموائده المغطاة بفوط مطرزة. تحترق شمعة مهيبة بوقارٍ في كأس من الكريستال. الزبائن قليلون، ولكن الأزواج الموجودين يبدو عليهم أنهم من الرواد الدائمين. حركاتهم راقية وحديثهم خافت. كان صاحب المطعم قصير القامة، ناحلاً ونشيطاً، واقفاً بكامل أناقته ولباقته الظريفة. نصحنا بالمقبلات والنبيذ. لا ريب أن في رأس كيم مخططاً حين دعتني إلى هذا المطعم. ويبدو أنها قد نسيت هذا المخطط الآن.

تنهدت، وهي ترمي فوطتها مثلما يرمي الملاكم المهزوم إسفنجته: ـ يبدو أنك تستمتع بالتلاعب بنسبة السكر في دمي.

ـ حاولي أن تكوني مكاني يا كيم. لا يتعلق الأمر بما اقترفته سهام فقط، بل بي كذلك. لئن انتحرت زوجتي، فهذا الدليل على أنني لم أعرف كيف أجعلها تفضل الحياة. إنني أتحمل بالتأكيد قسطاً من المسؤولية.

حاولت الاحتجاج، فرفعت يدي أرجوها ألا تقاطعني.

ـ هذه هي الحقيقة يا كيم. لا دخان بلا نار. لقد أذنبتُ، أنا موافق، ولكن تحميلها الذنب لن يريح ضميري.

ـ لستَ مذنباً.

ـ بلى. كنت زوجها. كان واجبي أن أسهر عليها وأحميها. بالتأكيد حاولت أن تلفت انتباهي إلى موجة القعر التي تهدد باختطافها. أكاد أجزم أنها حاولت أن ترسل لي إشارة. أين كنت شارد الذهن، يا إلهي! بينما كانت تجهد للخروج من هذا المأزق!

ـ هل حاولت الخروج منه حقاً؟

ـ وكيف لا؟ لا يذهب المرء إلى حتفه مثلما يذهب إلى حفل راقص. حتماً، يجتاح المرء الشك حين يتهيأ للإقدام على هذا الفعل. تلك اللحظة بالذات، لم أفطن لها. بالتأكيد، تمنت سهام أن أعيدها إلى جادة الصواب، ولكني كنت شارد الذهن، ولن أسامح نفسي على ذلك أبداً.

سارعت بإشعال سيجارة.

قلت لها بعد صمت طويل: ـ لا يُمتعني أن أسبب لك القلق. لقد سئمت الدعابات. منذ أن اطلّعت على هذه الرسالة اللعينة، لا أفكر إلا بتلك الإشارة التي لم أعرف فك رموزها قبل فوات الأوان، وما زالت اليوم ترفض أن تبوح لي بأسرارها. أريد أن أجدها، هل تفهمين؟ لا بد أن أجدها. ليس أمامي خيار آخر. منذ

أن اطلعت على تلك الرسالة، لا أفعل سوى استحضار الذكريات لأجدها. في رقادي وسهادي، لا أفكر إلا بذلك. لقد استعرضت في ذهني أكثر اللحظات احتداماً، وأقل الكلمات وضوحاً، وأكثر الحركات غموضاً، إنما لا شيء. قراءة هذا الفراغ تفقدني صوابي. لا تتخيلي كم يعذبني ذلك يا كيم. بتُّ لا أقوى أن أطارده وأخضع له في آن...

حارت كيم في ما تفعله بيديها الصغيرتين.

ـ ربما لم تكن بحاجة إلى إرسال إشارة لك.

ـ مستحيل. كانت تحبني. ليس بوسعها أن تتجاهلني وتخفي عني الأمر.

ـ لم يكن الأمر يتوقف عليها. لم تعد المرأة نفسها يا أمين. لم يعد يحق لها ارتكاب الخطأ. فإفشاء سرها لك كان ليغضب الآلهة، ويهدد التزامها، مثلما يجري بالضبط في فرقة دينية. لا شيء يجب أن يتسرب. يقوم خلاص الأخوية على هذا الشرط الملزم.

ـ أجل، ولكن الأمر يتعلق بالموت يا كيم. كان على سهام أن تموت. كانت تدرك ما يعنيه ذلك لها ولي. كانت كرامتها تمنعها من مفارقتي بلا استئذان مثل المنافق. أرسلت لي إشارة، وليس لدي أدنى شك أن ذلك قد حصل.

ـ هل كان ذلك ليبدل شيئاً؟

ـ من يدري؟

سحبت أنفاساً عديدة من سيجارتي، كما لو أنني أمنعها أن تنطفئ. اختنق صوتي حين صرخت:

ـ أنا تعيس تعاسةً تفوق كل وصف.

ترنحت كيم ولكنها تشبثت في مكانها.

سحقت عقب السيجارة في المنفضة.

ـ كان أبي يقول لي: دع أحزانك لنفسك، فهي كل ما سيبقى لك حين تكون قد خسرت كل شيء...

ـ أمين، أرجوك.

لا أصغي لها، وأتابع الكلام:

ـ ليس سهلاً على رجل ما زال تحت وقع الصدمة ـ ويا لها من صدمة! ـ أن يعلم بالضبط أين ينتهي الحداد وأين يبدأ الترمل، ولكن ثمة حدوداً لا بد من تخطيها إذا ما شاء المرء المضي قدماً. إلى أين؟ لا أدري؛ كل ما أعرفه أنه لا يجب البقاء هنا والتحسّر على مصيري.

بدوري، فوجئت بنفسي أمسك بيديها وأغمرهما بيدي. يتراءى لي أنني أحتضن عصفورّي دوري كسيحين في باطن راحتي. لشدة احتراسي وأنا أحتضنهما، انقبضت كتفا كيم، وتلألأت دمعة خفرة في عينيها حاولت أن تكفكفها وراء ابتسامة لم ألمحها عند أية امرأة منذ أن تعلمت مقاربة النساء.

وعدتها قائلاً: ـ سأتوخى الحذر الشديد. لا أنوي أن أنتقم أو أفكك هذه الشبكة. أريد فقط أن أفهم

كيف أبعدتني امرأة حياتي من حياتها، كيف استجابت تلك التي عشقتها عشقاً جنونياً لعظات الآخرين بدلاً من قصائدي.

انفصلت دمعة ملاكي الحارس عن الرموش التي تثقلها، وانهمرت دفعة واحدة على أعلى خدها. حاولت كيم، المدهوشة والمحرجة، أن تمسحها، ولكن إصبعي سبقها واستقى الدمعة لحظة لامست زاوية ثغرها.

ـ أنت امرأة عظيمة يا كيم.

أجابت: ـ أعلم.

ثم أطلقت ضحكة أقرب إلى الشهيق. احتضنت يديها ثانية وضغطت عليهما بشدة:

ـ لا داعي لأن أقول لك إنني ما كنت لتحملت الصدمة لولاك.

ـ ليس هذا المساء يا أمين... ربما في يوم آخر.

ارتعشت شفتاها وسط ابتسامتهما الحزينة. تعلقت عيناها بعيني للتحرر من الانفعال الذي يشتت ضياءهما. نظرتُ إليها نظرة عميقة فلم أنتبه إلى أنني ألوي أصابعها.

قلت لها: ـ شكراً.

9

أصرَّت كيم على مرافقتي إلى بيت لحم. كان ذلك شرطها لتسمح لي بمثل هذه المجازفة الفاضحة. تريد أن تكون إلى جانبي. وأضافت: على الأقل لأكون سائقتك... لم يبلَ رسغي تماماً من رضّته، وما زلت لا أقدر أن أرفع حقيبة أو أمسك بمقود.

حاولت أن أثنيها عن عزمها، ولكنها تشبثت بموقفها.

اقترحت عليّ أن نستقر أولاً في البيت الصيفي الذي اشتراه شقيقها بنيامين في القدس؛ وحالما نصل إلى هناك، نقرر الخطوة التالية على ضوء تطور الأمور. أردت الانطلاق على الفور. رجتني أن أدعها تجري عملية جراحية لأحد مرضاها قبل الذهاب لرؤية عزرا بن حاييم، وطلب إجازة لمدة أسبوع. سعى عزرا لأن يفهم أسباب هذا السفر العجول، فأجابت كيم أنها بحاجة لتجديد نشاطها. لم يلح عزرا عليها بالسؤال.

غداة العملية الجراحية، كوّمنا حقيبتينا في صندوق النيسان، وذهبنا إلى بيتي لإحضار بعض حوائجي وصور حديثة لسهام، ثم توجهنا إلى القدس.

توقفنا مرة واحدة لتناول وجبة في مطعم متواضع على الطريق. الطقس جميل، وكثافة السير تذكر بزحمة الصيف.

نجتاز القدس كأننا في حلم يقظ. لم أرجع إلى هذه المدينة منذ اثني عشر عاماً. تبعث في أعماقي حيويتها الجامحة ودكاكينها المزدحمة بالناس ذكريات كنت أخالها أصبحت من المخلفات. يعبر بعض الصور عبوراً خاطفاً في ذهني، يتميز ببياضها الحاد، يعود ليدور وسط روائح المدينة القديمة. في هذه المدينة العريقة، رأيت أمي للمرة الأخيرة. جاءت تصلّي قرب فراش أخيها المحتضر. اجتمع شمل العشيرة أثناء مأتم هذا الأخير؛ أتى بعضهم من بلدان خلط العجزة بينها وبين اليمبوس لشدة ما هي نائية. لم تعش أمي طويلاً بعد خسارة ما كانت تعتبره علة وجودها الحقيقية، نظراً لأن أبي كان زوجاً مهملاً، وأنا إبناً مصادراً بسبب السنوات التي أمضيتها في المستشفى بصفتي طبيباً مقيماً، وسفراتي الطويلة.

يقع بيت بنيامين في ضاحية المدينة اليهودية، بين بيوت واطئة أخرى أحرقت الشمس جدرانها. يلوح كأنه

يولي ظهره للمدينة الأسطورية من أجل تركيز انتباهه على البساتين التي تمتد على التلال الكثيرة الحصى. الموقع هادئ، منعزل عن العالم ومتغيراته، بالكاد تلامسه صيحات الأطفال الذين لا يلمحهم المرء في أية زاوية. عثرت كيم على المفاتيح تحت الأصيص الثالث عند مدخل صحن الدار، كما أرشدها شقيقها الذي بقي في تل أبيب. البيت صغير وخفيض، يتألف من رواق يطل على باحة ضيقة ظليلة تحتضنها احتضاناً غيوراً عريشة ضنينة. تشرف نافورة منحوتة في رأس أسد برونزي على ساقية أكلها العوسج، قرب مقعد من الحديد المطروق يغطيه طلاء أخضر أخرق. اختارت كيم لي غرفة متاخمة لمكتب مكتظ بالكتب والمخطوطات. ثمة سرير نبّاض تعلوه مرتبة من النوع الرديء، وطاولة فورميكا، ومقعد خفيض. يجهد بساط مهترئ ومُنسَّل لإخفاء تشققات روضةٍ عتيقة. رميت حقيبتي على السرير، وانتظرت خروج كيم من الحمام لإبلاغها ما عقدت عليه العزم.

ـ إسترح أولاً.

ـ لست متعباً. إنها الثانية عشرة ظهراً، وهي الساعة التي قد أجد فيها أحدهم عند أختي بالرضاعة. لن أزعجك، ستقلني سيارة أجرة.

ـ يجب أن أرافقك.

ـ كيم، أرجوك. إذا صادفتُ مشاكل، أتصل بك

على هاتفك المحمول، وأحدد لك أين تأتين وتقلّيني.
لا أعتقد أنني سأصادفها اليوم. سأكتفي بزيارة أقاربي، وأجسُّ النبض.

عبست كيم قبل أن تفرج عني.

تغيرت بيت لحم كثيراً منذ زيارتي الأخيرة لها قبل أكثر من عشر سنوات. فبعد أن تضخمت بسبب سيول اللاجئين النازحين عن قراهم التي أصبحت مرمى للنيران، باتت تضم بيوتاً جديدة من الحجارة العارية، تنتصب، البيت أمام الآخر، كالمتاريس، ومعظمها في مرحلة التشطيب، يغطيها الصفيح أو تزنرها الخردة، نوافذها زائغة وأبوابها مضحكة. يخال المرء أنه في مركز استقبال كبير تواعد فيه كل مستضعفي الأرض للحصول على مغفرة تأبى أن تميط اللثام عن رموزها.

يحلم بعض الكهول على عتبات البيوت، متكئين على عصيهم، وقد عصبوا الكوفية على رأسهم، وفتحوا سترتهم على صدرية باخ لونها، يجلس بعضهم على مقاعد خفيضة، وبعضهم الآخر على درجة سلم. يبدو عليهم أنهم لا يصغون إلا لذكرياتهم، شاردي النظرات، منيعين في صمتهم، لا تزعزعهم على الإطلاق جلبة الأطفال الذين يتشاجرون حولهم.

اضطررت للسؤال عن وجهتي مراراً قبل أن يقودني أحد الصبية أمام بيت كبير متهالك الجدران. انتظر بلطف أن أدسّ بعض النقود في يده قبل أن يلوذ

بالفرار. قرعت باباً عتيقاً منخور الخشب، وأصخت السمع. سمعت قرقعة قبقاب على الأرض، ثم مزلاجاً يُسحب، وفتحت لي امرأة متشنجة الملامح. لم أتعرف إليها على الفور: إنها ليلى، أختي بالرضاعة. لا تتجاور الخامسة والأربعين من العمر، ولكنها تبدو في الستين. غزا الشيب شعرها، وترهلت ملامحها، لكأنها محتضرة.

رمقتني بنظرة شاردة.

ـ أنا أمين.

انتفضت، وقد صحت من غفلتها فجأة: ـ يا إلهي!

ارتمينا الواحد في أحضان الآخر. أحسستُ، وأنا أضمها إلى صدري، بشهقاتها تعلو، الشهقة تلو الأخرى، في صدرها، وتسري في بدنها الهش مثل آلاف الارتجاجات. انكفأت لتتأملني، وقد بللت الدموع وجهها، وتمتمت دعاءً تعبيراً عن الشكر والامتنان، ثم عادت ودفنت رأسها بين ذراعي.

قالت لي: ـ تعال. أتيت في الوقت المناسب لتشاركني وجبة الغداء.

ـ شكراً، لست جائعاً. هل أنت وحدك؟

ـ أجل. لا يعود ياسر قبل حلول المساء.

ـ والأولاد؟

ـ لقد كبروا، ما قولك؟ تزوجت البنات، وعادل ومحمود يعتمدان على نفسيهما.

خيَّم الصمت، ثم خفضت ليلى رأسها.

قالت بنبرة جوفاء: ـ لا بد أن الوضع صعب.

اعترفت لها: ـ إنه أسوأ ما قد يحصل لرجل...

ـ أتخيل ذلك...خطرتَ ببالي كثيراً منذ التفجير...أعلم أنك مرهف وهش، وتساءلت كيف بوسع شخص مرهف الإحساس مثلك أن يتجاوز مثل هذه...مثل هذه...

ـ ساعدتها: ـ المصيبة، فهي كذلك، ومصيبة كبيرة. جئتُ بالضبط لأعرف المزيد. لم أكن على علم بما تعتزم سهام الإقدام عليه. وصراحةً، لم أكن أشك حتى بنواياها. لقد ذبحني موتها المأساوي ذبحاً.

ـ ألا تريد أن تجلس؟

ـ لا... قولي لي، كيف كانت قبل أن تقدم على ذلك؟

ـ ماذا تقصد؟...

ـ كيف كانت؟ هل كان يبدو عليها أنها تدرك ما ستفعل؟ هل كانت طبيعية أم غريبة الأطوار؟...

ـ لم أقابلها.

ـ كانت في بيت لحم يوم الجمعة 27، عشية العملية التفجيرية.

ـ لا أدري، ولكنها لم تمكث طويلاً. كنت عند ابنتي البكر من أجل طهور ابنها. سمعت بالتفجير الذي حصل في السيارة التي أقلتني إلى البيت...

فجأة، غطت فمها بيدها كما لتمنع نفسها من قول المزيد.

ـ يا إلهي، ها أنا ذا أكثر من الكلام!.

ورفعت نحوي عينين مفزوعتين.

ـ لماذا عدت إلى بيت لحم؟

ـ ذكرتُ لك السبب.

أمسكت بجبينها بين الإبهام والسبابة، وترنّحت. طوقت خصرها بذراعي لأمنعها من الانهيار، وأجلستها على مصطبة خلفها تعلوها مرتبة.

ـ أمين، يا أخي، أظن أنه لا يجوز لي الحديث في هذه المسألة. أقسم لك أني لا أعلم ماذا جرى بالضبط. لو علم ياسر أنني لم أصنْ لساني، سوف يقطعه لي. لقد فوجئت برؤيتك، وأفلت مني كلام لا يخصني. أتفهمني يا أمين؟

ـ سأتصرف كأن شيئاً لم يكن، إنما عليّ أن أعلم ماذا كانت زوجتي تفعل في هذه النواحي، ولحساب من...

ـ هل أرسلتك الشرطة؟

ـ أذكّرك أن سهام كانت زوجتي.

اضطربت ليلى جداً. كانت تلوم نفسها لوماً فظيعاً.

ـ والله العظيم يا أمين، لم أكن هنا. تحقق بنفسك. كنت عند ابنتي البكر التي تطهّر ابنها. جاءت

عماتك وبنات عمومتك، وأقارب لا بد أنك تعرفهم. لم أكن في البيت يوم الجمعة.

سارعت لتهدئة روعها إذ لمحت فزعها.

ـ لا تخشي شيئاً يا ليلى. هذا أنا، أخوك، لا أحمل سلاحاً أو أصفاداً. وسألوم نفسي لو جلبتُ لك الغم، وأنت تعلمين ذلك. لست هنا كذلك لأجرَّ عليك وعلى عائلتك المتاعب...أين أجد ياسر؟ أفضل أن يكون هو الذي ينير سبيلي.

توسلت ليلى إلي ألا أذكر لزوجها حديثنا. فوعدتها خيراً، وزودتني بعنوان المعصرة التي يعمل فيها ياسر، ورافقتني حتى الشارع لتراني أنصرف.

بحثت عن سيارة أجرة، ولكنني لم ألمح ولا واحدة. بعد نصف ساعة، ولحظة كنت أهم بمهاتفة كيم، عرض عليّ أحدهم أن يقلّني إلى حيث أشاء لقاء بضعة شيكلات. كان شاباً قوي البنيان، ضاحك العينين، غريب اللحية. فتح لي باب السيارة باحترام مسرحي، وكاد يدفعني دفعاً داخل سيارته التالفة المبقعة المقاعد.

درنا حول الساحة، وسلكنا طريقاً مليئة بالحفر، ثم غادرنا البلدة الكبيرة. بعد مسار متعرج وسط حركة سير جامحة، استطعنا التسلل عبر الحقول، وبلوغ طريق في المرتفعات.

سألني السائق: ـ أنت لست من هنا؟

ـ كلا.

ـ زيارة للأهل أم مصلحة؟

ـ الاثنين معاً.

ـ هل أتيت من بعيد؟

ـ لا أدري.

رجح السائق رأسه برفق، وقال:

ـ لست من النوع الذي يحب الكلام.

ـ ليس اليوم.

ـ فهمت.

سرنا بضعة كيلومترات على طريق غبراء بدون أن نصادف مخلوقاً. كانت الشمس تضرب بعنف على الحصى التي تبدو كأن الواحدة منها تتوارى خلف الأخرى متلصصة علينا.

أضاف السائق: ـ لا أستطيع أن أضع شريطاً لاصقاً على فمي. إذا لم أتكلم، أطقّ.

لزمت الصمت.

تنحنح وأردف قائلاً:

ـ لم أشاهد في حياتي يدين نظيفتين مرتبتين مثل يديك. أتكون طبيباً بالصدفة؟ فالأطباء وحدهم لديهم مثل هاتين اليدين المهفهفتين.

التفتُ نحو البساتين التي تنتشر على مدِّ النظر.

تنهد السائق، مستاءً من صمتي، ثم نقب في تابلو

السيارة، وأخرج شريط كاسيت، أقحمه على الفور في المسجلة.

هتف قائلاً: ـ إسمع يا صاحبي! من لم يسمع خطبة الشيخ مروان راح نصف عمره .

أدار زراً ليرفع صوت. انسكبت ضوضاء داخل السيارة، تتخللها صيحات إكبار وتهليل. نقر أحدهم ـ الخطيب على الأرجح ـ بإصبعه على الميكروفون طلباً للهدوء. خفت الجلبة، وتواصلت في بعض المواضع، ثم استقبل صمت متيقظ الصوت النقي للإمام مروان.

ـ هل من بهاء أعظم من وجه الله يا إخوتي؟ هل في هذه الدنيا المتبدلة الأحوال والمتقلبة الأهواء أشكال أخرى من البهاء من شأنها أن تحولنا عن وجهه تعالى؟ قولوا لي ما هي؟ أهو البريق الزائف الخداع الذي يتعلق به ضعفاء العقول والبائسون؟ أهو البريق الخلاب؟ السراب الذي يتربص للبشر بالهلاك ويعرّض الواهمين إلى ضربات شمس قاتلة؟ قولوا لي ما هي، يا إخوتي؟... ويوم الدين، حين تغدو الأرض هباءً، ولا يبق من أوهامنا سوى هلاك أرواحنا، ماذا سنقول عما فعلنا في حياتنا؟ ماذا سنجيب حين نُسأل كباراً وصغاراً: ماذا فعلتم بحياتكم، ماذا فعلتم بأنبيائكم وبنعمي، ماذا فعلتم بالسلام الذي أوكلتكم به؟... وفي ذلك اليوم، يا إخوتي، لن تجدوا عضداً وعوناً في ثرواتكم، وصلواتكم، وحلفائكم، وأنصاركم (علت

الصيحات التي سرعان ما طغى عليها صوت الشيخ).
في الحقيقة، يا إخوتي، ثروة الإنسان ليست في ما يملك بل في ما يتركه وراءه؟...وطناً؟...أي وطن؟ تاريخاً؟...أي تاريخ؟ آثاراً؟...أين هي؟ أستحلفكم بأجدادكم، أرشدوني إليها...كل يوم، يجرّونا في الوحل أو أمام المحاكم. كل يوم، تهرس الدبابات أقدامنا، وتقلب جراراتنا، وتهدم بيوتنا، وتفتح النار بلا إنذار على أطفالنا. كل يوم، العالم بأسره يشهد مأساتنا...

تحرك ذراعي، وسحق إبهامي كبَّاسة المسجلة، مخرجاً الشريط من جوفها. صعق السائق لما فعلت. وزعق جاحظ العينين فاغر الفم:

ـ ماذا تفعل؟

ـ لا أحب الخطب.

اختنق استهجاناً: ـ ماذا؟ ألا تؤمن بالله؟

ـ لا أؤمن بأوليائه.

فرمل السيارة فرملةً جعلت السيارة التي أعيقت عجلتاها الأماميتان تنزلق مسافة عشرة أمتار قبل أن تتسمر في عرض الطريق.

زمجر السائق، وقد امتقعت سحنته غضباً: ـ من أين أتيت؟ وكيف تجرؤ أن تمد يدك على الشيخ مروان؟

ـ لدي الحق...

ـ ليس لديك أي حق! أنت في سيارتي، ولن

أسمح فيها أو في أي مكان آخر أن يمد رذيلٌ قذر مثلك يده على الشيخ مروان؟... والآن، ترجل من سيارتي، وأغرب عن وجهي.

ـ ولكننا لم نبلغ وجهتنا.

ـ لقد بلغتها أنا. هنا آخر الخط! فإما أن تنقلع من سيارتي أو أقلع لحم مؤخرتك بيديَّ العاريتين.

وعليه، رفع عقيرته بشتيمة، وانحنى على بابي. فتحه متذمراً، وراح يدفعني خارجاً.

هددني قائلاً: ـ والويل لك إن صادفتك، يا ابن العاهرة.

صفق الباب صفقة ناقمة، وعاد أدراجه بخشونة، ثم مضى نحو بيت لحم وسط فرقعة مدوية.

وقفت على قارعة الطريق، وراقبته يبتعد، وقد اعتراني الذهول.

جلست على صخرة ريثما تمر سيارة. نهضت، إذ أعياني الانتظار، ومضيت في سبيلي سيراً على الأقدام إلى أن لحق بي سائق عربة بعد بضعة أميال.

ترنح ياسر وهو يراني على عتبة الطاحونة حيث انهمك صبيان حول المعصرة، وراحا يراقبان خيوط الزيت السميكة تتدفق في الحوض.

أعرب عن استغرابه بين عناقين حارين: ـ ما هذا، جرَّاحنا بلحمه وشحمه. لماذا لم تعلمنا بوصولك؟ لكنت أرسلت من يستقبلك.

يصعب تصديق حماسه لشدة ارتباكه.

نظر إلى ساعته، والتفت إلى الصبيين، وصرخ يعلن أن عليه التغيب، وأنه يعتمد عليهما لإنجاز العمل. ثم تأبط ذراعي، ودفعني نحو شاحنة صغيرة قديمة مركونة تحت شجرة، أسفل الربوة.

ـ فلنرجع إلى البيت. ستكون ليلى مسرورة بلقائك إلا إذا كنت قد التقيتها.

فجأة، وعلى أمل تضييق الخناق عليه، بادرته قائلاً: ـ ياسر، أرجوك، دعك من اللف والدوران. فليس لدي لا الوقت ولا الرغبة. أتيت بهدف محدد. أعلم أن سهام كانت عندك في بيت لحم عشية العملية التفجيرية.

ارتعب ملقياً نظرات هلعة إلى الطاحونة: ـ من أخبرك؟

كذبتُ مبرزاً الرسالة في جيب قميصي.

ـ أخبرتني سهام في ذلك اليوم.

انتفض أعلى خده. وبلع ريقه قبل أن يقول متلعثماً:

ـ لم تمكث طويلاً. كانت مجرد زيارة خاطفة لإلقاء التحية علينا. وبما أن ليلى كانت تزور ابنتها في عين كرم، لم تشأ حتى أن تشرب كوباً من الشاي، وانصرفت بعد ربع ساعة. لم تقصد بيت لحم لزيارتنا. في يوم الجمعة ذاك، كان الشيخ مروان سيخطب في

الجامع الكبير. أرادت زوجتك أن يباركها. لم أفهم ما جرى إلا بعد أن شاهدنا صورتها في الجريدة.

قبض على كتفي مثل المقاتلين وأسرَّ لي:

ـ إننا فخورون بها جداً.

أعلم أنه قال ذلك مراعاةً لي أو مداهنةً. لا يحسن ياسر الحفاظ على رباطة جأشه، وأقل حادث غير متوقع يزعزع كيانه.

ـ فخورون لأنكم أرسلتموها إلى الكَسْر؟

انتفض كما لو أنه تحت تأثير عضة: ـ الكَسْر؟...

ـ أو إلى الحَرْق إذا شئت...

ـ لا يروق لي هذا الكلام.

ـ حسناً، سأعيد صياغة سؤالي: ما هو الفخر الذي قد يشعر به المرء حين يرسل أشخاصاً إلى حتفهم لكي يعيش الآخرون أحراراً وسعداء؟

رفع يديه على مستوى صدره ليرجوني أن أخفض نبرتي بسبب الصبيين القريبين منا، وأومأ لي أن أتبعه خلف الشاحنة. كان محموم المشية، لا يكف عن التعثر.

ألححت عليه بالسؤال:

ـ لماذا؟

ـ ماذا تقصد بلماذا؟

اعتمل في نفسي غضب عنيف ومتعاظم أمام خوفه،

وثيابه القذرة، ووجهه غير الحليق، وعينيه المليئتين غمصاً. ارتعد جسدي من رأسي إلى أخمص قدمي.

تذمرت، مستاءً من كلامي: ـ لماذا؟ لماذا التضحية ببعضهم من أجل سعادة الآخرين؟ الأخيار عادة والشجعان يختارون التضحية بحياتهم من أجل خلاص الذين يختبئون في أوكارهم. فلماذا التضحية بالعادلين والسماح للأقل عدلاً بالبقاء على قيد الحياة؟ ألا ترى أن ذلك يدمر الجنس البشري؟ ماذا سيبقى منه، بعد بضعة أجيال، إذا كان الأخيار مدعوين دائماً للموت كي يواصل الجبناء، والخسيسون، والدجالون، والسفلة التكاثر مثل الجرذان؟

ـ أمين، لا أفهمك. لطالما جرت الأمور على هذا النحو منذ الأزل. يموت بعضهم من أجل خلاص بعضهم الآخر. ألا تؤمن بخلاص الآخرين؟

ـ ليس حين يحكم على خلاصي. لقد حطمتم حياتي، وخربتم بيتي، وأفسدتم مسيرتي المهنية، وحولتم إلى هباء كل ما بنيته، حجراً فوق حجر، بعرق جبيني. بين عشية وضحاها، انهارت أحلامي مثل قصور الورق. تلاشى كل ما كان بمتناول يدي. لم يبق سوى قبض الريح. لقد خسرتُ كل شيء من أجل لا شيء. هل فكرتم بحزني حين قفزتم ابتهاجاً لدى معرفتكم بأن أكثر إنسانة أعشقها في هذا العالم فجّرت نفسها في مطعم مكتظ بالأطفال بقدر ما كانت هي مكتظة

بالديناميت؟ وأنت، هل تريدني أن أصدق بأن عليّ اعتبار نفسي أكثر الرجال سعادةً لأن زوجتي بطلة، وأنها ضحت بحياتها، ورفاهيتها، وحبها بدون حتى أن تستشيرني أو تهيئني للأسوأ؟ ماذا كان مظهري، أنا، فيما كنت أرفض الإقرار بما يعلم به الجميع؟ مظهر زوج مخدوع! كان مظهري مظهر زوج مخدوع بائس. أصبحت موضع استهزاء حتى أطراف أظافري. ذلك كان مظهري، زوج كانت زوجته تخونه بالطول والعرض بينما هو يكدح مثل الدابة ليوفر لها حياة ممتعة قدر المستطاع.

ـ أعتقد أنك أخطأت اختيار محاورك. لا علاقة لي بهذه القضية. لم أكن أعلم بنوايا سهام. لم أظن أنها قادرة على مثل هذه المبادرة قط!

ـ قلت لي إنك كنت فخوراً بها؟

ـ وماذا أقول لك غير ذلك؟ كنت أجهل أنك لا تعلم.

ـ هل تظن أنني كنت لأشجعها على القيام بهذا الاستعراض لو لمحت أقل بريق من نواياها؟

ـ إنني حقاً آسف يا أمين. سامحني إذا كنت...إذا كنت...لم أعد أفهم شيئاً. لم...لم... أعد أعرف ما أقول.

ـ في هذه الحالة، إخرس. وبهذه الطريقة، على الأقل، لن تجازف وتتفوّه بحماقات.

10

أشفقتُ على ياسر. يتظاهر حائراً بأنه يحدق إلى قارعة الطريق لئلا يضطر لمواجهة نظرتي، وقد دفن عنقه تحت ياقته الرثة، كما لو أنه يتوقع أن تهوي السماء على رأسه. من الواضح أنني خُدعت، فياسر ليس الشخص الذي يمكن الاعتماد عليه في الشدائد، وأقله إشراكه في التحضيرات لاقتراف مجزرة. لقد تخطى الستين، وأصبح مجرد خرقة بعينيه المتآكلتين وفمه المتراخي، تنهار مع أول تقطيب حاجبٍ. إذا قال إنه لا يعلم شيئاً عن التفجير فهذا صحيح. لا يجازف ياسر أبداً. لا أذكر أنني رأيته مرة يعترض أو يتأهب ليتعارك مع أحدهم. على العكس، إنه أكثر استعداداً للانكفاء داخل قوقعته والتريث حتى تهدأ الأمور بدلاً من الاحتجاج. اختزله خوفه الوهمي من رجال الشرطة وخضوعه الأعمى لسلطة الدولة إلى أبسط أشكال

البقاء، أي الكدح بلا كلل للحصول بمشقة على ما يسد به الرمق، واعتبار كل لقمة خبز نكاية بالنحس وسوء الطالع. أدركت تماماً الطابع المتهور لمبادرتي وأنا أراقبه مكوَّماً حول مقود السيارة، بعنقه المهزوم وانكفائه، شاعراً بالذنب لوجوده على طريقي. ولكن، كيف أخمد تلك الجمرة التي تحفر في أحشائي؟ كيف أنظر إلى نفسي في المرآة بدون أن أخفي وجهي، بكبريائي المهترئ، وذلك الشك الذي يواصل التلاعب بحزني، على الرغم من إذعانه للأمر الواقع. منذ أن سلمني النقيب موشي إلى نفسي، يستحيل عليّ إغماض عيني بدون أن أجد ابتسامة سهام أمامي. كانت تبدو، لشدة حنانها ولطفها، وكأنها تنهل من ينابيع شفتي حين أروي لها، وذراعي يطوق خصرها، وقوفاً في حديقتنا، الأيام الجميلة التي تنتظرنا، والمشاريع العظيمة التي أخططها لها. ما زلت أشعر بأصابعها تعانق أصابعي بافتتان وإيمان يلوحان لي سرمديين. كانت تؤمن إيماناً راسخاً بالمستقبل الزاهي، وتعمل بحماس كلما لهث حماسي. كنا في منتهى السعادة، يثق أحدنا بالآخر كل الثقة. فبأي سحر تلاشى النصب الذي كنت أشيده حولها، مثل قصر رملي غمرته الأمواج؟ كيف أظل مؤمناً بعد أن راهنت بمجمل أشكال يقيني على قسم

مقدس تقليدياً، ولا يوحي بالثقة بقدر وعد كاذب؟ لأني لم أحصل على جواب، أتيت إلى بيت لحم أوقظ الفتنة، انتحارياً بدوري لأنني لا أعرف السلوان وأجد نفسي عارياً.

شرح لي ياسر أنه عليه أن يركن شاحنته في مرأب، نظراً لأن الزقاق الذي يقود إلى بيته غير سالك أمام السيارات. شعر أخيراً بالارتياح لأنه وجد ما يقوله بدون المجازفة بزلة لسان. سمحت له أن يركن خردته القديمة أينما شاء. فأومأ موافقاً، ثم اقتحم شارعاً مزدحماً بالمارة، متخففاً من ثقل لا يطاق. اجتزنا حياً تدب فيه الفوضى قبل أن نصل إلى ساحة غبراء يحاول بائع لحم مشوي فيها جاهداً أن يبقي الذباب بعيداً عن قطع اللحم. يقع المرأب المذكور في زاوية زقاق ضيق، قبالة فناء مغطاة بالصناديق التالفة وشظايا الزجاج. أطلق ياسر بوق السيارة مرتين، واضطر للانتظار دقائق طويلة قبل أن يسمع صوت مزلاج يُسحب. ثم انزلقت في صرير بوابة كبيرة مفجعة الزرقة. دار ياسر بسيارته لتوجيه مقدمة شاحنته نحو ما يشبه السقيفة، والتسلل بمهارة بين هيكل رافعة قزمة وسيارة رباعية الدفع مشوهة. ألقى علينا التحية رجل مبتذل الهندام وأشيب بيد كليلة، ثم أغلق البوابة، وعاد إلى مشاغله.

قال لي ياسر لتغيير الحديث: ـ كان مستودعاً مهجوراً من قبل. اشتراه إبني عادل بثمن زهيد. كان يعتزم الاستثمار في الميكانيكا. ولكن أبناء شعبنا يتدبرون أمورهم جيداً ولا يكترثون للاستنزاف الذي يصيب سياراتهم، فسرعان ما أفلس مشروعه. خسر عادل جرّاء ذلك الكثير من المال. وبانتظار فرص أخرى، حول المستودع إلى مرأب للأهالي.

تتبرم حوالي نصف دزينة من السيارات هنا وهناك، بعضها خارج الخدمة، بعجلات مثقوبة وواقيات زجاجية مخلوعة. استرعت انتباهي سيارة كبيرة منزوية قليلاً، بمأمن من الشمس. إنها مرسيدس قديمة الطراز عاجية اللون، نصفها يتوارى تحت غطاء لوقايتها.

أسرّ لي ياسر باعتزاز بعد أن تابع نظرتي: ـ إنها لعادل.

ـ متى اشتراها؟

ـ لا أذكر.

ـ لماذا هي مركونة؟ هل هي سيارة تذكارية؟

ـ لا، ولكن لا أحد يخرجها بما أن عادل ليس هنا.

تتصادم أصواتٌ في رأسي. صوت النقيب موشي أولاً ـ أفاد سائق الحافلة على خط تل أبيب ـ الناصرة أن سيارة مرسيدس قديمة الطراز عاجية اللون أقلّت

زوجتك ـ، يصطدم مباشرة بصوت نافيد رونين ـ يملك حموي مثلها.

ـ أين عادل؟

ـ أنت تعلم أطباع صاحب المصلحة. يكون يوماً هنا، ويوماً هناك، يسعى وراء رزقه.

تغضن وجه ياسر مجدداً.

في تل أبيب، قلما أستقبل أقاربي، ولكن عادل غالباً ما يزورني. كان شاباً ومفعماً بالحيوية، يحلم بالنجاح مهما كلف الأمر. عرض عليّ، وهو بالكاد في السابعة عشرة، أن أكون شريكه في صفقة بمجال الهاتف. تحفظت فعاود الكرة بعد حين، وعرض عليّ مشروعاً آخر. كان يريد العمل في إعادة تدوير قطع غيار السيارات. تعذبت كثيراً لأفهمه أنني جرّاح، وليست لدي أية دعوة مهنية أخرى. في تلك الفترة، كان يقيم في ضيافتي كلما زار تل أبيب. كان شاباً رائعاً وظريفاً تبنته سهام بسهولة، يحلم بتأسيس شركة في بيروت لينطلق منها ويغزو السوق العربية، لا سيما إمارات الخليج. ولكن أخباره انقطعت منذ أكثر من سنة.

ـ عندما مرت سهام إلى بيتك، هل كان عادل يرافقها؟

مسَّد ياسر بعصبية عظمة أنفه.

ـ لا أدري. كنت في الجامع لأداء صلاة الجمعة حين وصلت. لم تصادف سوى حفيدي عصام الذي كان يحرس البيت.

ـ قلت لي إنها لم تمكث حتى لشرب كوب من الشاي.

ـ لم أقصد ذلك بالضبط.

ـ وعادل؟

ـ لا أدري.

ـ هل يعلم عصام؟

ـ لم أسأله.

ـ هل كان عصام يعرف زوجتي؟

ـ أفترض أنه كان يعرفها.

ـ ومنذ متى؟ لم تطأ قدما سهام بيت لحم أبداً. ولا أنت، ولا ليلى، ولا حفيدك أتيتم لزيارتي في بيتي.

تلعثم ياسر، وتاهت يداه في حركات مترددة.

ـ لنعد إلى البيت يا أمين. سوف نناقش كل ذلك حول كوب لذيذ من الشاي، وبذهن رائق.

زادت الأمور تعقيداً في البيت. وجدنا ليلى طريحة الفراش، وإحدى الجارات قرب سريرها. كان نبضها ضعيفاً. اقترحت نقلها إلى المستوصف القريب. رفض ياسر، وأوضح لي أن أختي بالرضاعة تتبع علاجاً، وأن الأقراص التي تتجرعها بكميات هائلة يومياً تسبب

لها هذه الحالة. لما غفت ليلى لاحقاً، قلت لياسر إنني حريص على التحدث إلى عصام.

أجاب بدون حماس : ـ كما تشاء، سأبحث عنه. إنه يقطن قريباً من هنا.

بعد حوالي عشرين دقيقة، عاد ياسر برفقة صبي زيتوني السحنة.

حذرني ياسر: ـ إنه مريض.

ـ في هذه الحالة، ما كان يجدر بك إحضاره.

غمغم متأففاً: ـ نظراً إلى ما آلت إليه الأمور.

لم يخبرني عصام بشيء يذكر. يبدو أن جده لقنه الدرس قبل أن يحضره إلي. اعتبر أن سهام جاءت بمفردها. طلبت ورقة وقلم حبر للكتابة، فمزق عصام ورقة من دفتره المدرسي. وعندما فرغت من الكتابة، ناولته رسالة، وكلفته بإرسالها بالبريد؛ وهذا ما فعله. لمح عصام رجلاً عند زاوية الشارع، وهو يخرج من البيت. لا يذكر ملامحه، ولكنه كان غريباً عن الحي. لدى عودته من مركز البريد، كانت سهام قد رحلت، والغريب توارى عن الأنظار.

ـ هل كنت وحدك في البيت؟

ـ أجل. كانت جدتي في عين كرم، عند خالتي، وجدي في الجامع. وأنا أحلُّ واجباتي المدرسية وأحرس البيت.

ـ هل كنت تعرف سهام؟

ـ رأيت صوراً لها في ألبوم عادل.

ـ هل تعرفت إليها على الفور؟

ـ ليس على الفور، ولكني تذكرت حين قالت لي من تكون. كانت لا تريد أن تقابل شخصاً محدداً، بل أن تكتب فقط رسالة قبل أن تنصرف.

ـ كيف كانت؟

ـ جميلة.

ـ لا أقصد ذلك. هل كانت تبدو مستعجلة أو شيئاً من هذا القبيل؟

فكر عصام ملياً.

ـ كانت تبدو طبيعية.

ـ وهذا كل شيء؟

رمق عصام جده يستشيره، ولم يضف كلمة واحدة.

التفت بسرعة إلى ياسر وخاطبته بخشونة:

ـ تقول إنك لم تقابلها؛ وعصام لا يخبرنا ما لا نعرفه أصلاً، فما الذي يجيز لك الادعاء بأن زوجتي كانت في بيت لحم ليباركها الشيخ؟

أجابني: ـ أي صبي في المدينة سوف يخبرك ذلك. بيت لحم كلها تعلم أن سهام كانت هنا عشية التفجير. لقد أصبحت بمثابة أيقونة المدينة، بل يقسم بعضهم أنهم خاطبوها ولثموا جبينها. إنها ردود فعل شائعة عندنا. فالشهيد مادة خصبة لكل الأقاويل. لعل الإشاعة

تبالغ، ولكن الشيخ مروان بارك سهام يوم الجمعة ذاك، بناء على أقوال الجميع.

ـ هل التقيا في الجامع الكبير؟

ـ ليس أثناء الصلاة بل لاحقاً، بعد أن عاد كل المصلين إلى بيوتهم.

ـ فهمت.

في اليوم التالي، قصدت الجامع الكبير. كان بعض المصلين قد فرغ من السجود على البسط العريضة التي تغطي الأرضية، وبعضهم الآخر يقرأ القرآن، كل في زاويته. خلعت حذائي على باب المسجد، ودخلت. تقوقع أحد الكهول على نفسه حين سألته عما إذا كان أحد القيمين على المكان موجوداً، مستاءً من تطفلي وهو يؤدي الصلاة. بحثت من حولي عمن يرشدني.

فرقع صوت ورائي: ـ نعم؟

كان شاباً ناحل الوجه، مديد القامة، غائر العينين، معقوف الأنف. مددت له يدي التي لم يصافحها. وبما أن وجهي كان لا يعني له شيئاً، فقد استغرب تطفلي.

ـ أنا الدكتور أمين جعفري.

ـ نعم؟...

ـ أنا الدكتور أمين جعفري.

ـ سمعت. كيف أخدمك؟

ـ ألا يعني لك إسمي شيئاً؟

ارتسمت على وجهه تكشيرة مراوغة.

ـ لا أدري.

ـ أنا زوج سهام جعفري.

ضيَّق المصلي عينيه ليمعن التفكير بكلامي. فجأة، ارتفع جبينه على عدد من التجاعيد، واكفهرت سحنته. وضع يده على قلبه، وهتف:

ـ يا اللهّ! أين كان ذهني شارداً؟

وطفق يعتذر.

ـ لا بأس.

شرّع ذراعيه ليضمني إلى صدره.

ـ يا أخ أمين، والله إنه لشرف وحظوة أن يعرفك المرء. سأبلغ الإمام في الحال بحضورك. وكلي يقين بأنه سيبتهج لرؤيتك.

رجاني أن أنتظر في المصلى، ثم حث الخطى إلى المنبر، ورفع ستارة تفضي إلى حجرة متوارية، واختفى. راح بعض المصلين الذين يقرأون القرآن، مستندين إلى الجدران، يرمقونني بفضول. لم يسمعوا باسمي، ولكنهم لاحظوا كيف بدل المصلي موقفه فجأة قبل المضي لإخطار سيده. وضع أحد الملتحين المصحف الذي يحمله، ليحملق فيَّ بدون أيما حرج، الأمر الذي أربكني.

أظن أنني لمحت زاوية من الستارة ترفع ثم تسدل،

ولكن لا أحد ظهر خلف المنبر. بعد خمس دقائق، عاد الرجل، محرجاً على ما يبدو.

ـ آسف. الإمام ليس موجوداً. لعله خرج، ولم أنتبه لخروجه.

انتبه إلى أن المصلين الآخرين يراقبوننا، وبعينه القاتمة، أرغمهم على غض الطرف.

ـ هل سيعود من أجل الصلاة؟

ـ بالطبع...

ثم أضاف مستدركاً: ـ لا أدري إلى أين ذهب. قد لا يرجع قبل ساعات.

ـ لا بأس. سأنتظر عودته هنا.

ألقى الرجل نظرة حائرة نحو المنبر، مبتلعاً ريقه:

ـ ليس من المؤكد أنه سيعود قبل حلول المساء.

ـ لا عليك. سأنتظره.

فرفع ذراعيه، يائساً، وانسحب.

تربعت أسفل أحد الأعمدة، وتناولت كتاب الأحاديث النبوية، وفتحته كيفما اتفق على ركبتي. ظهر الرجل من جديد، وتظاهر بالحديث مع أحد الكهول، ثم راح يدور في المصلى، كأنه أسد في قفص. وأخيراً، خرج إلى الشارع.

انقضت ساعة، ثم ساعة أخرى. قرابة الظهيرة، اقترب مني ثلاثة شبان، لا أدري من أين أتوا. بعد

التحية والسلام، قالوا لي إن وجودي في المسجد غير ضروري، ورجوني أن أغادر المكان.

ـ أريد أن أقابل الإمام.

ـ إنه مريض. أصيب بوعكة هذا الصباح. لن يعود قبل أيام.

ـ أنا الدكتور أمين جعفري...

قاطعني أصغرهم سناً، وهو شاب في الثلاثين، ناتئ الخدين، ومُخدَّد الجبين:

ـ حسناً، والآن، عد إلى بيتك.

ـ ليس قبل أن أتحدث إلى الإمام.

ـ سنتصل بك حالما يتماثل للشفاء.

ـ أتعلمون أين تتصلون بي؟

ـ في بيت لحم، كل شيء معروف.

دفعوني برفقٍ إنما بحزمٍ نحو المخرج، وتريثوا إلى أن انتعلتُ حذائي، ثم رافقوني بصمت حتى زاوية الشارع.

ظل شابان من الذين رافقوني خارج المسجد يتعقبوني فيما كنت أتوجه إلى وسط المدينة. يتعقبوني بوضوح ليفهموني أنهم يراقبوني، وأن لا مصلحة لي في العودة أدراجي.

إنه يوم السوق. تعج الساحة بالناس. قصدت مقهى

غير مطل، وطلبت قهوة سادة، وراقبت السوق المحموم، متمترساً خلف واجهة زجاجية مبقعة ببصمات الأيدي ونيم الذباب. في الصالة المكتظة بالطاولات المتخلفة والكراسي النائحة، يجلس بعض الكهول المتضجرين يراقبهم بنظرة كامدة القهوجي المحشور خلف منصته. يجلس إلى جانبي رجل خمسيني مهفهف يسحب نفساً من نارجيلته. على طاولة قريبة منا، يلعب بعض الشبان الدومينو بصخب. بقيت في المقهى إلى أن حان وقت الصلاة. عندما علا صوت المؤذن، قررت العودة إلى المسجد، راجياً مصادفة الإمام يؤم المصلين.

اعترض سبيلي عند مدخل الحي الرجلان اللذان يقتفيان أثري منذ الصباح. لا تبدو عليهما أمارات السرور لرؤيتي ثانية. لم يسمحا لي بالاقتراب من المسجد .

بادرني أكبرهما سناً قائلاً : ـ هذا تصرف غير مقبول يا دكتور.

عدت عند ليلى لانتظار صلاة العصر.

مجدداً، انضم رجل ثالث إلى ملاكيَّ الحارسين المتضايقين من عنادي. كان مرتب الهندام، قصير القامة إنما قوي البنية، يعلو فمه شارب رفيع، ويزين إصبعه خاتم ضخم. رجاني أن أتبعه إلى أحد الأزقة، وهناك، بمنأى عن المتطفلين، سألني إلى أين أريد الوصول.

ـ أطلب مقابلة الإمام.

ـ بخصوص ماذا؟

ـ أنت تعلم جيداً سبب وجودي هنا.

ـ ربما، ولكنك لا تعلم أين تورط نفسك.

كان الوعيد واضحاً. حدجني بنظرة ثاقبة.

قال لي، متوتراً: ـ حباً بالله يا دكتور. إفعل ما أمروك به: عد إلي بيتك .

تركني وانصرف، يتبعه رفاقه. عدت إلى بيت ياسر، وانتظرت صلاة المغرب، مصمماً على مطاردة الإمام ولو في آخر خندق يتمترس فيه. اتصلت بي كيم في هذه الأثناء. طمأنتها ووعدتها بمعاودة الاتصال بها قبل المساء.

تـوارت الـشـمـس عـنـد خـط الأفـق عـلـى رؤوس أصابعها. سكنت ضوضاء الشارع، وتسللت نسمة طرية إلى صحن الدار الذي كان قد جف بسبب قيظ العصر. عاد ياسر دقائق معدودة قبل الصلاة. تضايق لرؤيتي في بيته إنما ارتاح لما علم بأنني لن أقضي الليلة في ضيافته.

خرجت إلى الشارع، مع نداء المؤذن، وتوجهت إلى المسجد للمرة الثالثة على التوالي. لم ينتظرني حراس الهيكل في مخبئهم، بل استبقوني وباغتوني بعد بيت ياسر ببضعة منازل. كانوا خمسة. ربض اثنان منهم

عند زاوية الزقاق، ودفع بي الثلاثة الآخرون إلى مدخل باب.

قال لي أحدهم، وكان رجلاً ضخم الجثة، وهو يحشرني على جدار: ـ لا تلعب بالنار يا دكتور.

تخبطت لأتحرر من قبضته، ولكن عضلاته الهرقلية لم تتخاذل. في العتمة الهابطة، كانت عيناه تقدحان شرراً مرعباً.

ـ مناورتك لا تبهر أحداً يا دكتور.

ـ لقد قابلت زوجتي الشيخ مروان في الجامع الكبير. ولهذا السبب، أريد أن ألتقي الإمام.

ـ كذبوا عليك. لا نريدك هنا.

ـ وبماذا أزعجكم؟

أضحكه سؤالي وضايقه في آن. انحنى على كتفي وهمس في أذني:

ـ أنت تعيث الفساد في المدينة.

نهره الرجل القصير القامة، الناتىء الخدين، والمخدد الجبين الذي كان قد كلمني في المسجد:

ـ إنتبه لكلامك. لسنا في زريبة خنازير.

لجم قليلُ الأدب حماسه، وانكفأ خطوة إلى الوراء. انزوى، بعد أن تعرض للتقريع، ولم يحرك ساكناً.

أوضح لي الرجل القصير القامة بنبرة مهادنة:

ـ دكتور أمين جعفري، يقيني أنك لا تدرك الحرج

الذي يسببه حضورك في بيت لحم. لقد أصبح الناس سريعي التأثر في هذه النواحي. ولئن احتاطوا، فلكي لا يردوا على الاستفزازات. الإسرائيليون يبحثون عن أية ذريعة لانتهاك سيادتنا وإخضاعنا لنظام المعازل. إننا نعلم ذلك، ونحاول ألّا نرتكب الخطأ الذي يترقبونه بثبات. وأنت تلعب لعبتهم...

حدق إلي عيني مباشرة.

ـ لا علاقة لنا بزوجتك.

ـ ومع ذلك...

ـ أرجوك يا دكتور جعفري. إفهمني.

ـ لقد قابلت زوجتي الشيخ مروان في هذه المدينة.

ـ تردد ذلك بالفعل، إنما هذه ليست الحقيقة. لم يزر الشيخ مروان مدينتنا منذ زمن بعيد. وهذه الشائعات ترمي إلى إبقائه بمأمن من الكمائن. كلما شاء أن يخطب في مكان ما، تسري الشائعات بأنه في حيفا، أو بيت لحم، أو جنين، أو غزة، أو نصيرات، أو رام الله، في كل مكان لتشتيت أثره وحماية تنقلاته. الأجهزة الأمنية الإسرائيلية تتعقبه. لقد نشروا كتيبة من المخبرين لدق ناقوس الخطر كلما خرج من مخبئه. منذ سنتين، نجا بأعجوبة من صاروخ مُسيَّر لاسلكياً ألقي من طائرة مروحية. لقد فقدنا الكثير من القياديين خلال نضالنا بهذه الطريقة. تذكر كيف استهدف الشيخ أحمد ياسين، وهو في نهاية عمره ومقعدٌ في كرسيه المتحرك.

علينا السهر على أمن القِادة القلائل الذين بقوا لنا يا دكتور جعفري، وتصرفاتكِ لا تساعدنا...

وضع يده على كتفي، وأردف قائلاً:

ـ زوجتك شهيدة. سنكون لها ممتنين إلى الأبد، ولكن هذا لا يجيز لك التشويش على تضحيتها، أو تهديد حياة أي كان. إننا نحترم ألمك، فاحترمْ معركتنا.

ـ أريد أن أعرف...

قاطعني بحزم: ـ ما زال الوقت مبكراً جداً يا دكتور جعفري. أرجوك، عُد إلى تل أبيب.

أشار إلى رجاله أن ينصرفوا.

بعد أن بقينا وحدنا، قبض على عنقي بملء يديه، واشرأب على أخمص قدميه. قبلني بشراهة على جبيني، ثم انصرف لا يلوي على شيء.

11

هرعت كيم إلى الباب حين سمعت الجرس يرن. فتحت لي فوراً بدون أن تسأل من الطارق.

صرخت: ـ يا إلهي! أين اختفيت؟

تأكدت أنني واقف ثابتاً على ساقي، وأن لا ثيابي ولا وجهي تحمل آثار عنف، ثم أرتني ظاهر يديها:

ـ أهنئك! بفضلك، عدت إلى عادتي القديمة: صرت أقضم أظافري.

ـ لم أجد سيارة أجرة في بيت لحم؛ وبسبب حواجز التفتيش، لم يعرض أحدهم أن يقلّني.

ـ كان بوسعك أن تتصل بي. كنت أتيت لأقلك.

ـ ما كنت لتستهدين إلى الطريق، فبيت لحم بلدة مترامية الأطراف، يسري فيها ما يشبه حظر التجول فور حلول المساء. لم أعرف أين أواعدك.

قالت، وهي تفسح لي المجال لأدخل: ـ حسناً، أنت سليم معافى، وهذا هو الأهم.

أعدَّت طاولة في الشرفة وزعت عليها لوازم السفرة.

ـ تسوَّقت أثناء غيابك. أتمنى ألا تكون قد تناولت العشاء لأنني أعددت لك وليمة صغيرة.

ـ أتضور جوعاً.

ـ هذا نبأ سار.

ـ لقد تصببتُ عرقاً اليوم.

ـ هذا ما توقعته...الحمام جاهز.

قصدت غرفتي لإحضار عدة الحمام.

بقيت حوالي عشرين دقيقة تحت دفق الدش الحارق، بيدي المتكئتين على الحائط، وظهري المقوس، وذقني المدفون في عنقي. استرخيتُ بفضل جريان الماء على جسدي. أحسست بعضلاتي ترتخي، وبتنفسي ينتظم. ناولتني كيم مبذلاً من خلف الستارة. ينتزع خفرها المفرط مني ابتسامة. جففتُ جسدي بمنشفة كبيرة، وفركتُ بقوة ذراعي وساقيّ، وارتديت المبذل الفضفاض الذي يخص بنيامين، ثم وافيتها إلى الشرفة.

ما كدت أجلس حتى رن أحدهم جرس الباب، فتبادلنا نظرات مستغربة.

سألتها : ـ هل تنتظرين زواراً؟

أجابت وهي تتوجه نحوْ الباب: ـ ليس على حد علمي.

كان رجل مديد القامة يعتمر القلنسوة اليهودية، ويرتدي فانلة قطنية يدفع كيم ليدخل. ألقى نظرة خاطفة خلفها، تفرَّس في وجهي، وقال:

ـ أنا جاركما، أسكن في الرقم 38. لمحت ضوءاً، وأتيت لألقي التحية على بنيامين.

أجابت كيم، منزعجة من وقاحته: ـ بنيامين ليس موجوداً. أنا أخته، الدكتورة كيم يهودا.

ـ أخته؟ لم أرك أبداً من قبل.

ـ الآن تراني.

رجح رأسه، ثم نقل نظرته إلي.

ـ حسناً. أرجو ألا أكون قد تطفلت عليكما.

ـ لا بأس.

رفع إصبعه إلى صدغه في تحية مبهمة، وانسحب. خرجت كيم تراقبه ينصرف قبل أن تغلق الباب.

غمغمت، وهي تعود إلى الطاولة: ـ لا تنقصه الجرأة.

شرعنا نتناول العشاء. كانت صرصرة الليل تشتد من حولنا، وفراشة هائلة تدور دوراناً مسعوراً حول اللمبة المعلقة فوق المدخل. في السماء حيث ذابت فيما مضى الكثير من الأغاني العاطفية، يتمخط هلالٌ في منديل الغمام. من وراء سور البيت، بوسع المرء أن يرى أضواء القدس، بمآذن جوامعها وأبراج كنائسها التي يمزقها ذلك الجدار المدنِّس للمقدسات، البائس

والقبيح، وليد تقلب البشر وإساءاتهم التي لا سبيل لتصحيحها. ومع ذلك، على الرغم من التحدي الذي يشكله جدارُ كل الخلافات، لا تتخاذل القدس المشوهة، فهي منتصبة دوماً، متكورة بين رحمة سهولها وقساوة صحراء يهودا، تنهل قدرتها على البقاء من منابع رسالاتها الخالدة التي لم يمسها لا ملوك الأمس ولا دجالو الحاضر. تظل محتفظةً بإيمانها، هذا المساء أكثر من أي وقت مضى، على الرغم من تضجرها المرير من انتهاكات بعضهم وتضحية بعضهم الآخر. يخال المرء أنها تخشع وسط شموعها، وتستعيد كل أبعاد نبوءاتها في هذه اللحظة التي يتهيأ فيها البشر للخلود إلى النوم. يريد الصمت أن يتحول إلى ملاذ آمن. تصرصر النسمة في أوراق الشجر، محملةً بالبخور والروائح الكونية. يكفي أن يصيخ المرء السمع للإحساس بنبض الآلهة، وأن يمد يداً ليقطف رحمتها، ويكون حاضر الذهن للتلاحم معها. لطالما أحببت القدس في مراهقتي. كانت تخالجني الرعشة نفسها أمام قبة الصخرة وعند حائط المبكى على حد سواء، ولا أستطيع ألّا أن أتأثر بالسكينة المنبعثة من كنيسة القبر المقدس. كنت أنتقل من حي إلى آخر مثلما أنتقل من أسطورة أشكنازية إلى قصة بدوية، بالقدر نفسه من السعادة، لا حاجة بي لأن أكون معارضاً للخدمة العسكرية كي أسحب ثقتي من نظريات التسلح والخطب

النارية. ما كان عليّ سوى أن أرفع ناظري إلى الواجهات المحيطة لكي أعترض على كل ما يخدش عظمتها الخالدة. واليوم أيضاً، تشعر القدس، الممزَّقة بين انتشاء المحظية وعفاف القديسة، بالظمأ للنشوة والعشاق، لا تتحمل جلبة أبنائها، راجيةً أن يأتي انفراجٌ لتحرير العقول من عذابها المظلم رغم كل الأنواء والشدائد. تباعاً سماءً ومعزلاً، سيدة وعشيقة، معبداً وحلبة، إنها تعاني بسبب عجزها عن إلهام الشعراء بدون أن تجمح الأهواء، فتتقشر، حزينةً، حسب الأمزجة مثلما تتفتت صلواتها وسط تجديف المدافع...

قاطعتني كيم: ـ كيف كان؟

ـ ماذا؟

ـ نهارك؟

مسحتُ فمي بفوطة.

قلت لها: ـ لم يتوقعوا مجيئي. أما وقد أصبحت بينهم، فهم حائرون في ما يفعلون.

ـ إلى هذا الحد؟... وما هي خطتك بالضبط؟

ـ ليست لدي خطة. بما أني لا أدري من أين أبدأ، أنقضُّ مباشرة.

سكبت لي مياهاً غازية. يدها ترتجف.

ـ هل تعتقد أنهم سوف ينقادون لك؟

ـ ليست لدي أدنى فكرة.

ـ في هذه الحالة، أين تريد أن تصل؟

ـ عليهم هم أن يقولوا لي ذلك يا كيم. لست شرطياً أو صحافياً محققاً. أشعر بالغضب، وغضبي قد يلتهمني حياً إذا ما بقيت مكتوف اليدين. بصراحة، لا أعلم بالضبط ما أسعى إليه. إنني أمتثل لشيء في داخلي، يقودني على هواه. أجهل أين أمضي، ولا أعبأ بذلك. ولكن أؤكد لك أنني أفضل حالاً بعد أن سددتُ رفسة إلى وكر النمل. كان لا بد من رؤيتهم وهم يرونني أعترض سبيلهم... هل تفهمين قصدي؟

ـ ليس بالفعل يا أمين. لا يبشر أسلوبك بالخير. وأرى أنك تخطئ الشخص. أنت بحاجة إلى طبيب نفسي لا إلى مرشد روحي. لا شيء يضطر هؤلاء الناس أن يبرِّروا لك أفعالهم.

ـ لقد قتلوا زوجتي.

قالت لي برفقٍ كأنها تخشى إيقاظ شياطيني القديمة:

ـ لقد قتلت سهام نفسها يا أمين. كانت تعلم ماذا تفعل. اختارت مصيرها. الأمر مختلف.

يغيظني كلام كيم.

أمسكت بيدي.

ـ إذا كنت لا تعرف ماذا تريد، فلماذا تصر على الانقضاض؟ هذا ليس الاتجاه الصحيح. لنسلِّم أن هؤلاء الناس سيتنازلون ويقابلونك، ماذا تنوي أن تنتزع

منهم؟ سيقولون لك إن زوجتك ماتت من أجل القضية، ويدعونك للقيام بالمثل. إنهم أناس تخلوا عن هذه الدنيا يا أمين. تذكر ما قاله لك نافيد؛ إنهم مشروع شهداء، يترقبون الضوء الأخضر للرحيل هباءً منثوراً. صدقني، أنت تضلُّ السبيل. لنعد أدراجنا، وندع الشرطة تتولى الأمر.

سحبتُ يدي من يدها.

ـ أجهل ما يحصل لي يا كيم. إنني متبصر كل التبصر، ولكنني أشعر بحاجة رهيبة للتصرف على هواي. ينتابني الشعور بأنني لن أستطيع الحداد على زوجتي إلا بعد أن أرى أمامي الحثالة الذي صادر رأسها. لا يهمني أن أعرف ماذا سأقول له أو أقذفه في وجهه. أريد فقط أن أرى سحنته، وأفهم ما يملكه أكثر مني... يشق عليّ أن أشرح ذلك يا كيم. ففي ذهني، تتفاعل الكثير من الأمور. ألوم نفسي أحياناً أشد اللوم، وأحياناً أخرى، تتراءى لي سهام أسوأ من كل العاهرات. لا بد أن أعرف من منا، نحن الاثنين، أخطأ بحق الآخر.

ـ وتعتقد أنك ستجد الجواب عند هؤلاء الأشخاص.

ـ لا أدري!

دوَّت صرختي في الصمت مثل الانفجار. انقبضت

كيم على كرسيها، وقد وضعت فوطة على فمها، جاحظة العينين.

رفعت يدي إلى مستوى كتفي لتهدئة نفسي:

ـ سامحيني... من الواضح أن هذه المسألة تتجاوزني، إنما عليك أن تدعيني أتصرف حسب ما تمليه رغبتي. إذا أصابني مكروه، فلربما كان هذا ما أسعى وراءه .

ـ إنني قلقة عليك.

ـ لا أشك بذلك لحظة واحدة يا كيم. أخجل أحياناً لأنني أتصرف على هذا النحو. ومع ذلك، أرفض أن أسمع صوت العقل. كلما حاول الآخرون إرجاعي إلى جادة الصواب، شعرت بعدم الرغبة في إعادة تجميع ذاتي... أتفهميني؟

وضعت كيم فوطتها جانباً ولم تجب.

اختلجت شفتاها دقيقة مديدة قبل أن تلحقا بكلماتهما. أخذت نفساً عميقاً، ورمقتني بعينين متألمتين، ثم قالت لي:

ـ عرفت رجلاً فيما مضى. كان شخصاً عادياً، إلا أنه جذبني حالما رأيته. كان لطيفاً وحنوناً. لا أدري كيف استطاع أن يفعل ذلك، ولكنه أصبح عندي مركز الكون إثر مغازلة بيننا. كنت أقع في حبه من النظرة الأولى كلما ابتسم لي، فاضطر لإضاءة كل مصابيحي

في وضح النهار لأرى بوضوح من حولي حين يخاصمني أحياناً. أحببته كما يندر العشق. أحياناً، وأنا في قمة السعادة، كنت أسأل نفسي هذا السؤال الفظيع: ماذا لو هجرني؟ وعلى الفور، أرى روحي تنفصل عن جسدي. بدونه، كنت منتهية. ومع ذلك، في إحدى الأمسيات، وبلا سابق إنذار، رمى أمتعته في حقيبة وخرج من حياتي. طوال سنوات عديدة، تراءى لي أنني شرنقة مهملة بعد انسلاخ غشائها، شرنقة شفافة معلقة في الفراغ. ثم انقضت سنوات أخرى، ولاحظت أنني باقية، وأن روحي لم تتنصل مني. وفجأة، استعدتُ رباطة جأشي...

احتضنتْ أصابعها أصابعي وهرستها:

ـ ما أريد قوله يا أمين بسيط. مهما توقعنا الأسوأ، سوف يفاجئنا دائماً. ولو حصل، لسوء الحظ، أن بلغنا القعر، فيتوقف علينا، وعلينا وحدنا، أن نبقى فيه أو نطفو على السطح. بين الساخن والبارد خطوة وحدة. على المرء أن يعرف موطئ قدميه، فمن السهل جداً الانزلاق. إذا ما استعجل، سقط في الحفرة. ولكن هل هذه نهاية العالم؟ لا أظن. يكفي أن يتقبل المرء ما جرى للسيطرة على الوضع.

في الخارج، توقفت سيارة وسط صرير فرامل. صفقت أبوابها، وغطت أصوات خطى على صرصرة

الليل. قرع الباب ثم رن الجرس. ذهبت كيم لتفتح. كانت الشرطة التي يرافقها الجار الذي يسكن في الرقم 38. الضابط أشقر متقدم في السن، هزيل ومهذب، يرافقه ثلاثة عناصر، مدججين بالأسلحة. اعتذر لإقلاق راحتنا، وطلب أن يرى أوراقنا الثبوتية. قصد كل منا غرفته لإحضار الوثائق المطلوبة، وعناصر الشرطة يتبعوننا عن كثب.

دقق الضابط في بطاقتي الهوية والمهنة. تلكأ وهو يدقق ببطاقتي.

ـ هل أنت إسرائيلي يا سيد جعفري؟

ـ ألديك مشكلة في ذلك؟

قاسني بنظرته، مغتاظاً من سؤالي، وأرجع لنا الأوراق، ثم خاطب كيم:

ـ سيدتي، هل أنت أخت بنيامين يهودا؟

ـ أجل.

ـ أخوك معرفة قديمة. ألم يرجع بعد من الولايات المتحدة؟

ـ إنه في تل أبيب من أجل التحضير لمنتدى.

ـ أجل، نسيت. سمعت أنه خضع مؤخراً لعملية جراحية. أرجو أن يكون قد تعافى...

ـ سيدي الضابط، لم يدخل أخي في حياته إلى غرفة عمليات.

هزَّ رأسه موافقاً على الفور، وألقى عليها التحية، ثم أشار إلى رجاله أن يتبعوه إلى الشارع. قبل إغلاق الباب، سمعنا الجار الساكن في الرقم 38 يقول إنه لم يسمع بنيامين يذكر أمامه أبداً أن لديه أختاً. صفقت الأبواب من جديد، وانطلقت السيارة.

قلت لكيم: ـ هذا المكان تعمُّه الثقة.

علقت على ملاحظتي وهي تعود إلى المائدة: ـ بكل تأكيد!

لم يغمض لي جفن هذه الليلة. اجتررتُ كلام كيم حتى التخمة بدون أن أجد له طعماً، محدقاً تارة إلى السقف حتى كدت أثقبه، ممتصاً سيجارة لم أعد أعرف كم رقمها. لا تفهمني كيم. والأدهى من ذلك أنني لا أفهم نفسي أكثر منها. غير أنني لا أطيق أن أسمع وعظاً. أريد الإصغاء فقط إلى ذلك الشيء الذي يحتل رأسي، ويجرني، رغماً عني، نحو النفق الوحيد الذي يقدم لي بصيص نور فيما كل المخارج الأخرى تتنكر لي.

في الصباح الباكر، انتهزت نوم كيم لأغادر البيت على رؤوس أصابعي، وأطلب من سيارة أجرة أن تقلني إلى بيت لحم. كان الجامع الكبير شبه فارغ. لم يتسن لأحد المصلين الذي كان يرتب بعض الكتب في مكتبة

مرتجلة أن يلحق بي. عبرت بلمح البصر المصلى، ورفعت الستارة خلف المنبر، ووصلت إلى حجرة متواضعة كان يقرأ فيها مصحفاً شاب يرتدي قميصاً أبيض ويعتمر قلنسوة. جلس متربعاً على حشية، وأمامه منضدة خفيضة. تبعني الرجل، وأمسك بكتفي، فدفعته ووقفت أمام الإمام الذي طلب من تلميذه أن يلزم الهدوء، مستهجناً هذا الاقتحام لخلوته. انسحب التلميذ متذمراً. أغلق الإمام المصحف ليتفرس في وجهي. امتلأت نظرته سخطاً.

ـ هذه ليست وكالة بدون بواب.

ـ آسف، ولكنها الطريقة الوحيدة لمقابلتك.

ـ ليس سبباً كافياً.

ـ أنا بحاجة للتحدث إليك.

ـ بأي شأن؟

ـ أنا الدكتور...

ـ أعلم من تكون. أنا الذي طلبت إبقاءك بعيداً عن المسجد. لا أعرف ماذا تتوقع أن تجده في بيت لحم، ولا أعتقد أن وجودك بين ظهرانينا فكرة صائبة.

وضع المصحف على مقرأ صغير قربه ونهض. كان قصير القامة، زاهداً، ولكن هيئته تشع زخماً وعزماً لمجابهة كل الصعاب.

تثاقلت عيناه بسوادهما المهيب على عيني.

ـ لست على الرحب والسعة بيننا يا دكتور جعفري. ولا يحق لك كذلك الدخول إلى هذا المكان الطاهر بدون أن تتوضأ وتخلع حذاءك. (أضاف ذلك وهو يمسح بإصبعه زاويتي فمه). إذا كنت قد فقدت صوابك، فحافظ على الأقل على شيء من الأدب. هذا مكان عبادة. ونحن نعلم أنك مسلم متمنع، تكاد تكون مارقاً، وأنك لم تنتهج نهج أجدادك، ولا تمتثل لمبادئهم، وأنك تخليت منذ وقت طويل عن قضيتهم إذ اخترتَ جنسية أخرى... هل أخطأت؟

إزاء صمتي، ارتسمت على وجهه تكشيرة مثقلة بالازدراء، وأعلن بنبرة واعظة:

ـ بالتالي، لا أرى ما يمكن أن نتحدث عنه.

ـ زوجتي!

انبرى بجفاء: ـ لقد ماتت.

ـ ولكني لم أحزن عليها بعد.

ـ هذا شأنك يا دكتور.

زعزعت كياني نبرته المجافية المقترنة بطابعها العجول. لم أصدق أن رجلاً من المفترض به أن يكون قريباً من الله يستطيع أن يكون بعيداً كل البعد عن البشر، متجاهلاً مصابهم الأليم.

ـ لا يروق لي أسلوبك في مخاطبتي.

ـ ثمة أمور كثيرة لا تروق لك يا دكتور، ولا أظن أن ذلك يعفيك من أي شيء. لا أدري من تولى تربيتك، ولكني على يقين بأنك لم تذهب إلى المدرسة الصالحة. من جهة أخرى، لا شيء يجيز لك أن تظهر بهذا المظهر المستنكر، أو أن تعتبر نفسك فوق البشر، لا نجاحك الاجتماعي ولا شجاعة زوجتك التي لا ترفع، بالمناسبة، من شأنك في نظرنا أبداً. أنت بالنسبة إلي مجرد بائس مسكين، يتيم شقي بلا إيمان ولا خلاص، يهيم كالماشي في نومه في وضح النهار. حتى لو مشيت على الماء، لن يغسل ذلك العار الذي تجسده، فابن الزنا الحقيقي ليس ذاك الذي لا يعرف أباه، بل ذاك الذي يجهل المعالم التي تهدي سبيله. ومن بين كل العنزات الجربانة، إنه أكثرها مثاراً للشفقة وأقلها بكاءً.

رمقني شزراً، وفمه يتهيأ للعض:

ـ الآن، انصرف. إنك تجلب الشؤم على مسجدنا.

ـ لا أسمح لك...

ـ أخرج من هنا!

امتد ذراعه نحو الستارة، بتاراً مثل السيف.

ـ ثمة أمر آخر يا دكتور: بين الاندماج والتفكك

هامشُ المناورة ضيقٌ للغاية بحيث قد يفسد أقل إسراف كل شيء.

ـ أيها الممسوس!

صوَّب كلامي: ـ بل المستنير.

ـ تظن نفسك موكلاً بمهمة إلهية.

ـ كل امرئ شجاع موكل بها، وإلا كان متبجحاً وأنانياً وظالماً.

صفَّق بيديه، فعاد تلميذه الذي كان يصيخ السمع عند الباب، ليجرني من كتفي. دفعته بنقمة، والتفت إلى الإمام.

ـ لن أغادر بيت لحم قبل أن أقابل أحد قادة حركتكم.

بادرني الإمام، وهو يتناول المصحف من على المقرأ: ـ أخرج من عندي، من فضلك.

ثم عاد فجلس على الحشية، وتجاهل وجودي.

اتصلت بي كيم على هاتفي المحمول. كانت متأثرة جداً بمغافلتي ومفارقتي لها. فوافقتُ تكفيراً عن ذنبي أن توافيني إلى بيت لحم، وواعدتها في محطة للمحروقات عند مدخل المدينة. ثم ذهبنا إلى بيت أختي بالرضاعة التي لم تتماثل بعد للشفاء من وعكتها الأخيرة.

بقينا قرب ليلى. كنت مقتنعاً أن رجال الإمام سوف يأتون. انضم ياسر إلينا لاحقاً. وجد كيم تعنى بزوجته، ولم يستفسر ما إذا كانت صديقة لي أم طبيبة استدعيت بصورة طارئة. انزوينا في الغرفة نتجاذب أطراف الحديث. ولئلا أنغص عليه نهاره الذي انتهى، عدَّد لي المخاطر التي تحدق بمعصرته، وديونه التي تتراكم، والابتزاز الذي يخضع له بسبب الدائنين. أصغيت إليه إلى أن لهثت أنفاسه. وبدوري، أطلعته على حديثي المقتضب مع الإمام. فاكتفى بهز ذقنه، وقد ارتسم أخدود عميق على جبينه. لم يجازف بأي تعليق، محترساً، ولكن موقف الإمام مني يثير قلقه فعلاً.

في المساء، عدت إلى الجامع، إذ لم يمر بي أحدهم. اعترض سبيلي رجلان في أحد الأزقة. أمسكني الأول من تلابيبي، ورفس ساقي بقدمه، أما الثاني فسدد ضربة بركبته إلى وركي قبل أن أهوي أرضاً. أخفيت رسغي الجريح تحت إبطي، وتقوقعت، مخفياً وجهي تحت ذراعي، لاتقاء الضربات التي راح وابلها ينهال عليّ من كل الجهات. أوسعني الرجلان ضرباً، متوعدين بإعدامي علناً لو صادفوني أحوم في الجوار. حاولت النهوض أو الزحف حتى مدخل بيت؛ ولكنهم جروني من ساقيَّ إلى وسط الطريق، وضربوني في

ظهري وساقي. سرعان ما تفرق المارة القلائل الذين تجمعوا في الزقاق، وتركوني تحت رحمة المعتدين عليّ. بين التقلصات والتأوهات، توهج في ذهني شيء ما، وأغمي عليّ...

اكتشفت، حين أفقت من إغمائي، قطيعاً من الأطفال يتحلقون حولي. تساءل أحدهم ما إذا كنت ميتاً، فأجابه آخر أنني سكرانٌ على الأرجح، وابتعدوا جميعاً مفزوعين عندما جلست على قاعدتي.

كان الليل قد أرخى ستائره. تعثرت متكئاً على الجدران بربلتيّ المتهالكتين، ورأسي الذي يطن. اضطررت للقيام بحركات بهلوانية كثيرة للوصول إلى بيت صهري.

صرخت كيم : ـ يا إلهي!

ساعدتني، مع ياسر، للاستلقاء على مصطبة تعلوها مرتبة، وراحت تفك أزرار قميصي. اطمأنت حين تحققت أن جسدي لا يحمل طعنة سكين أو طلقة رصاص، باستثناء بعض الكدمات والخدوش. انقضت على الهاتف، بعد أن قدمت لي الإسعافات الأولية، للاتصال بالشرطة، فكاد ياسر يصاب بنوبة قلبية. قلت لكيم إن ذلك غير وارد، وإنني لن أستسلم، لا سيما بعد الاعتداء الذي تعرضت له. احتجّت، نعتتني

بالمجنون، وتوسلت إلي أن أرافقها بدون مماطلة إلى القدس؛ فرفضت رفضاً قاطعاً أن أغادر بيت لحم. أدركت كيم أن الحقد يعمي بصيرتي، وأن لا شيء سيحملني على العدول عن الفكرة التي استحوذت على عقلي.

في اليوم التالي، عدت إلى الجامع بجسدي الرث ومشيتي العرجاء. لم يأت أحد ليرميني خارجاً. ظن بعض المصلين، إذ لم أنهض من أجل الصلاة، أنني متخلف عقلياً.

في المساء، اتصل أحدهم بياسر وقال إنهم سيمرون لاصطحابي خلال نصف ساعة. حذرتني كيم من كمينٍ محتمل، ولكنني لم أكترث. أنا متعب من تحدي الشيطان والخضوع فقط لهجماته المباغتة؛ أريد أن أراه بالكامل، ولو تطلب الأمر أن أعاني بقية حياتي.

جاء أولاً أحد الصبية إلى بيت ياسر. طلب إلي أن أتبعه حتى الساحة التي تسلم فيها صبي آخر المهمة. اصطحبني هذا الأخير مطولاً عبر شارع غارق في ظلام دامس؛ أظن أنه يلف ويدور بي لتضليلي. وأخيراً، وصلنا إلى دكان رث. كان رجل ينتظرنا قرب ستار حديدي أخفضه إلى النصف. صرف الرجل الصبي، ودعاني لأتبعه إلى داخل المبنى. في آخر ممر مغطى

بالصناديق الفارغة والعلب الكرتونية المبقورة، تلقفني رجل ثانٍ. اجتزنا فناءً صغيراً قبل ولوجنا إلى صحن دار خافت الإنارة. في حجرة عارية، طلب إلي أن أخلع ثيابي وأرتدي بدلة رياضية وحذاءً رياضياً جديداً. أوضح لي أنها تدابير أمنية، وأن (الشين بت) قد يكون ألصق بي رقاقة إلكترونية تحدد له موقعي في أية لحظة؛ وبالمرة، تأكد من أنني لا أحمل ميكروفوناً أو أي جهاز من النوع. بعد ساعة، وصلت شاحنة صغيرة لاصطحابي. سمعت، بعد الكثير من التعرجات والانعطافات، بوابة تئن ثم تغلق وراء الشاحنة. راح كلب ينبح، ولكن صوتًا رجولياً أسكته. أنهضني ذراعان، ونزعت عصابتي. أنا موجود في باحة فسيحة تنتظرني بثبات في آخرها هامات مسلحة. لوهلة، خدشت ظهري قشعريرة، أصابني الهلع فجأة، وشعرت بأنه قد قضي عليّ.

قبض عليّ سائق الشاحنة من مرفقي، ودفعني نحو بيت يقع لجهة اليمين. لم يرافقني أبعد من ذلك. دعاني رجل ضخم الجثة، لاح لي كمارد المولد، للدخول إلى بهوٍ غطيت أرضيته بالبسط الصوفية حيث شرع لي شاب يرتدي قميصاً أسود مطرز الأكمام والياقة ذراعيه.

قال بلهجة لبنانية خفيفة: ـ يا أخ أمين، إنها لحظوةٌ أن أستقبلك في بيتي المتواضع.

لم أتعرف إلى ملامحه. لا أظن أنني التقيته أو لمحته من قبل. كان وسيماً بعينيه الفاتحتين، وملامحه الرقيقة التي يفسدها شارب يبدو مستعاراً لشدة كثاثته؛ لعله لا يتجاوز الثلاثين.

اقترب مني، وضمني إلى صدره، مربتاً على كتفي على طريقة المجاهدين.

ـ أخ أمين، صديقي وقدري. لا تتصور كم تشرفت.

اعتبرت أنه من غير المجدي تذكيره بالضرب الذي أوسعني إياه رجاله بالأمس.

قال لي، ممسكاً بيدي: ـ تعال، واجلس إلى جانبي على هذه المصطبة.

رمقت المارد الذي يحرس الباب. صرفه مضيفي بإيماءة خفيفة من رأسه.

اعترف لي: ـ آسف لما جرى البارحة، ولكن لا بد أن تعترف أنك سعيت لذلك.

ـ إذا كان هذا هو الثمن لمقابلتك، فأرى أن الفاتورة باهظة.

ضحك.

أسر لي بشيء من الصفاقة: ـ لم يحالف الحظ من جاؤوا قبلك. إننا نعيش مرحلة لا يجب أن يترك فيها أي شيء للصدفة، فأقل تقاعس قد يؤدي إلى كارثة.

رفع أكمام قميصه، وتربع على حصيرة.

ـ أشعر بعميق التأثر لحزنك يا أخ أمين، ويشهد الله أنني أتعذب لعذابك.

ـ أشك بذلك، فهذه الأمور لا تكون فيها المشاركة متساوية.

ـ لقد فقدت أهلي كذلك.

ـ لم أتعذب لهم بقدر ما فعلت.

زمَّ شفتيه.

ـ مفهوم...

بادرته قائلاً : ـ هذه ليست زيارة مجاملة.

ـ أعلم... كيف أخدمك؟

ـ ماتت زوجتي، ولكنها زارت هذه المدينة لمقابلة مرشدها الديني قبل الذهاب لتفجير نفسها وسط مجموعة من التلامذة. أضفت عاجزاً عن احتواء الغيظ الذي راح يجتاحني مثل المدّ المظلم:

ـ أجيش غضباً لأنها فضلت أصوليين عليّ، وغضبي مضاعف لأنني لاحظت أنني غفلت عن ذلك. أعترف بأن غضبي بسبب غفلتي يفوق غضبي بسبب الأمور الأخرى. زوجتي إسلامية؟ ومنذ متى، قل لي؟ لم أستوعب ذلك حتى الآن. كانت امرأة عصرية. تحب السفر والسباحة وارتشاف عصير الليمون على شرفات المطاعم، وتفخر للغاية بشعرها لتخفيه وراء حجاب...ماذا قلتم لها لتتحول إلى وحش، إلى

إرهابية، إلى أصولية انتحارية، هي التي كانت لا تتحمل سماع جرو كلب يئن؟

خاب أمله، فيبدو أن عمليته الإغوائية التي لا بد أنه ظل يستعد لها ساعات طويلة قبل استقبالي قد فشلت. لم يتوقع رد فعلي هذا، وكان يرجو، من خلال الإخراج العجيب الذي أحاط الاقتراب مني ثم "خطفي" بملء إرادتي، أن يكون قد أبهرني بما فيه الكفاية لإضعاف موقعي. حتى أنا لا أدري كيف جاءتني تلك الصفاقة الشرسة التي تجعل يدي ترتعشان بدون أن يتهدج صوتي، وقلبي يخفق بدون أن تخور ركبتاي. اخترت الجرأة، إذ ألفيت نفسي في كلابة، بين هشاشة وضعي والحنق الذي يثيره في نفسي الحماس المتعالي لمضيفي وزيه المبتذل. كنت بحاجة لأن أبين بوضوح لزعيم هذه الأوبريت الهزلية أنني لا أخشاه، وأن أرمي في وجهه بالاشمئزاز والضغينة اللذين تفرزهما نماذج بشرية من صنعه في أعماقي.

سحق القائد مطولاً أصابعه، محتاراً من أين يبدأ؛ وأخيراً، قال متنهداً:

ـ لا تروق لي شراسة ملامتك يا أخ أمين، ولكني أضعها على حساب فجيعتك.

ـ ضعها حيث تشاء.

اضطرم وجهه:

ـ أرجوك، بدون بذاءة. لن أطيق ذلك، ولا سيما على لسان جرّاح مرموق. لقد وافقت على استقبالك لسبب بسيط: أريد أن أشرح لك نهائياً أن لا جدوى من استعراض نفسك في مدينتنا، فلن تجد فيها ضالتك. أردت أن تلتقي قيادياً في حركتنا، وقد حصل. والآن، سوف تعود إلى تل أبيب، وتمحو هذه المقابلة من ذاكرتك. وثمة أمر آخر: لم أعرف زوجتك شخصياً، فلم تكن تعمل تحت رايتنا، ولكننا أعجبنا بما أقدمت عليه.

شخص إلي بعينين متوقدتين:

ـ ملاحظة أخرى يا دكتور. لفرط ما تريد التشبه بإخوتك بالتبني، فقدت تبصر أبناء شعبك. الإسلامي مناضل سياسي، وهدفه الأوحد إقامة نظام حكم ديني في بلاده، والتمتع بكامل سيادتها واستقلالها... أما الأصولي فمجاهد حتى الرمق الأخير، لا يؤمن بسيادة الدول الإسلامية ولا باستقلالها الذاتي، لأنه يعتبرها دولاً تابعة مدعوة للاختفاء لصالح خلافة واحدة، لأن الأصولي يحلم بأمة واحدة غير قابلة للتجزئة، تمتد من أندونيسيا إلى المغرب، لإخضاع الغرب أو تدميره إن لم يستطع أن يحمله على اعتناق الإسلام... لسنا لا إسلاميين ولا أصوليين يا دكتور جعفري، إنما مجرد أبناء شعب منتهك ومضطهد يقاتلون بالوسائل المتاحة لاستعادة وطنهم وكرامتهم، لا أكثر ولا أقل.

رمقني برهة ليتحقق من استيعابي لكلامه؛ ثم تابع، مستغرقاً ثانية في تأمل أظافره التي تتميز بنظافتها الشديدة:

ـ لم أعرف زوجتك، ويؤسفني ذلك. كانت تستحق أن نقبل قدميها. ما قدمته لنا، بفضل تضحيتها، يعزينا ويعلمنا. أتفهم أن تشعر بنفسك مخدوعاً، لأنك لم تستوعب بعد أبعاد تضحيتها. في الوقت الحاضر، يتمرد كبرياء الزوج لديك. ويوماً ما، سوف يتواضع، وحينها، سينجلي بصرك وبصيرتك. إذا لم تخبرك زوجتك عن نضالها، فهذا لا يعني أنها خانتك. لم يكن لديها ما تقوله لك، لم يكن لديها تبريرات تقدمها لأحد...بما أنها فوضت أمرها لله...لا أطلب أن تغفر لها، فما هي مغفرة الزوج حين تكون قد حصلت على نعمة الله؟ أطلب منك أن تقلب الصفحة، فالمسلسل مستمر.

قلت له بغباء: ـ أريد أن أعرف لماذا؟

ـ لماذا؟ إنها قصتها؛ قصة لا شأن لك بها.

ـ كنت زوجها.

ـ لم تجهل ذلك. إذا لم ترغب أن تسرَّ لك بشيء، فلأنه كانت لديها أسبابها. على هذا النحو، كانت تقصيك من اللعبة.

ـ هذا هراء! كانت لديها واجبات تجاهي. لا تغافل المرأة زوجها هكذا، وبأي حال، لا تغافلني. لم أخطئ يوماً بحقها، وها هي قد دمرت حياتي، وليس

حياتها فقط، حياتي وحياة سبعة عشر شخصاً لا تعرفهم أبداً. وتسألني لماذا أريد أن أعرف؟ حسناً، أريد أن أعرف كل شيء، كل الحقيقة.

ـ أية حقيقة؟ حقيقتك أم حقيقتها؟ حقيقة امرأة أدركت أين يكمن واجبها أم حقيقة رجل يظن أنه يكفي أن يولي ظهره لمأساة كي يتنصل منها؟ ما هي الحقيقة التي تريد أن تعرفها يا دكتور أمين جعفري؟ حقيقة العربي الذي يعتقد أنه نجا بفضل جواز سفر إسرائيلي؟ حقيقة الشخص الذي يجسد نموذج العربي بامتياز، والذي يغدقون عليه التكريم في كل مناسبة، ويدعونه إلى حفلات استقبال راقية للتأكيد أمام المجتمع على مدى تسامحهم واهتمامهم؟ حقيقة ذاك الذي ظن أنه يبدِّل جلده إذ يتخلى عن مبادئه، وينجح في التحول تماماً؟ أهذه هي الحقيقة التي تبحث عنها، أم تلك التي تهرب منها؟... على أي كوكب تعيش يا سيدي؟ إننا نعيش في عالم يتناحر في كل يوم يمن الله علينا به، نمضي ليالينا نلملم موتانا، ونقضي نهارنا ندفنهم. وطننا ينتهك انتهاكاً أشبه بخبط عشواء، وأطفالنا نسوا ماذا تعني كلمة مدرسة، وبناتنا لم يعدن يحلمن منذ أن صار فرسان أحلامهن يفضلون عليهن الانتفاضة. تنوء مدننا تحت وطأة المجنزرات، وأولياؤنا الصالحون أصبحوا في حيرة، وأنت، بمجرد أنك مرتاح في قفصك الذهبي، ترفض أن ترى جحيمنا، وهذا حقك

في نهاية المطاف، فكل امرئ يقود مركبه كما يشاء. ولكن أرجوك، لا تأت وتسأل عن الذين لا يترددون، إذ تقززوا من برودك وأنانيتك، في التضحية بحياتهم لكي تثوب إلى رشدك... لقد ماتت زوجتك من أجل خلاصك يا سيد جعفري.

رفعتُ معه الكلفة: ـ يا له من خلاص! أنت الذي تحتاج له... تجرؤ أن تحدثني عن الأنانية، أنا الذي سُلِبتُ أعز كائن على قلبي؟... تجرؤ أن تسكرني بملاحمك عن الشجاعة والكرامة فيما تبقى في زاويتك، وترسل النساء والأطفال إلى حتفهم؟ لا تنخدعنَّ: إننا نعيش بالفعل في الكوكب نفسه، يا أخي، ولكننا لا نسكن في العنوان نفسه. لقد اخترتَ قتل الناس، وأنا اخترتُ إنقاذ حياتهم. عدوك هو مريضي. لست أنانياً ولامبالياً، ولديَّ من عزة النفس بقدر ما لدى أي كان. أريد فقط أن أعيش نصيبي من العيش بدون الاضطرار للتعدي على نصيب الآخرين. لست مؤمنا بالنبوءات التي تفضل العذاب على المنطق السليم. لقد جئت إلى هذا العالم عارياً، وسوف أرحل عنه عارياً؛ ما أملكه ليس لي، ولا كذلك حياة الآخرين. كل مآسي البشر بسبب سوء التفاهم ذاك: ما يمنحك إياه الله، عليك أن تعرف كيف ترده. لا شيء على الأرض ملك لك حقاً، لا الوطن الذي تتحدث عنه، ولا القبر الذي سيحيلك إلى تراب.

لم يكف إصبعي عن التلويح له بالضربة القاضية.
لم يحرك زعيم الحرب ساكناً. أصغى إلي حتى النهاية، وهو يتأمل أظافره، بدون أن يتنازل ويمسح رذاذ لعابي الذي تناثر على وجهه.

بعد صمت مديد لاح لي أنه لن ينتهي، حرك حاجباً، وتنفس عميقاً، ثم رفع عينيه نحوي.

ـ لقد صعقت بما سمعته للتو يا أمين، وهذا يفطر قلبي وروحي. مهما بلغ حزنك، لا يجوز أن تتفوه بمثل هذا التجديف. تحدثني عن زوجتك، ولا تسمعني أحدثك عن وطنك. إذا كنت ترفض أن يكون لك وطن، فلا ترغم الآخرين أن يتخلوا عن وطنهم، أولئك الذين يطالبون به بملء حناجرهم يهبون حياتهم ليلاً نهاراً. لا يقبلوا أن يموتوا وسط ازدراء الآخرين وازدرائهم لأنفسهم، فإما الكرامة أو الموت، إما الحرية أو القبر، إما العزَّة أو المقبرة الجماعية. ولا حزن، لا حداد، سيثنيهم عن القتال من أجل ما يعتبرونه، عن حق، جوهر الوجود، وهو الشرف. "السعادة ليست مكافأة الفضيلة. إنها الفضيلة عينها".

صفق بيديه، فظهر المارد في الباب. انتهت المقابلة.

قبل أن يصرفني، أضاف قائلاً:

ـ أشعر بالحزن الشديد لأجلك يا دكتور أمين جعفري. من الواضح أننا لا نسلك الدرب نفسها. قد

نمضي شهوراً وسنيناً نحاول أن يسمع أحدنا الآخر، ولكن لا أحد منا سيرغب بالإصغاء إلى الآخر. فلا داعي لقول المزيد. عد إلى بيتك. لقد انتهى الكلام بيننا.

12

كيم على حق؛ كان يجدر بي أن أسلم الرسالة إلى نافيد؛ لكان أحسن استعمالها أكثر مني. لم تخطئ كذلك حين كانت تحذرني من نفسي، فمن بين كل الأمور المستبعد حدوثها، كنت أكثرها صعوبة على التصديق. احتجت بعض الوقت للتسليم بذلك. حالفني حظ فريد بخروجي كاملاً، خالي الوفاض بالتأكيد، ليس سالماً بالضرورة، إنما على قدمين. سوف يلاحقني فشل هذه المغامرة طويلاً، لجوجاً مثل تأنيب الضمير، ماجناً مثل مقلب. فماذا استفدت منها في نهاية المطاف؟ لم أفعل سوى الدوران حول وهم، على غرار فراشة تدور حول مصباح خافت النور، أكثر هوساً بإغراءات فضولها من انبهارها بنور الشمعة القاتل. لم يبح لي المخبأ الذي كنت أصارع لرفع غطائه بأي سر من أسراره؛ وجل ما فعله أن لفظ في وجهي رائحته العفنة وشبكات عناكبه.

لم أعد أشعر بالحاجة للمضي أبعد من ذلك.

أما وقد شاهدت بأم العين هيئة زعيم حرب وصانع انتحاريين، فقد تراخت سيطرة شياطيني. قررت الكف عن هذه المهزلة: سأعود إلى تل أبيب.

تنفست كيم الصعداء. كانت تقود بصمت، وقد تشبثت يداها بالمقود كما لو أنها تتأكد من عدم إصابتها بالهلوسة، وأنها ترجعني حقاً إلى البيت. منذ الصباح، تتحاشى الكلام لئلا تتفوه بزلة لسان، وتراني أبدل رأيي على حين غرة. استيقظت قبل انبلاج الفجر، حزمت كل الأمتعة بهدوء، ولم توقظني إلا حين نظفت البيت، وجهزت السيارة، ونقلت معظم أمتعتنا إلى صندوقها.

غادرنا الأحياء اليهودية بدون أن ننظر إليها، فمن غير الوارد أن ننظر يميناً أو شمالاً، أو نتلكأ، لأن هفوة صغيرة قد تفسد كل شيء. لا ترى كيم سوى الطريق التي تنهبها، مباشرة حتى المخرج. يلوح النهار مشرقاً بعد تحرره من عذاب الليل. تتمطى سماء ناصعة بكسل، مثقلةً بنومها العميق. تبدو المدينة كأنها تجد مشقة في الانسلاخ عن فراشها. ينبثق بعض الصاحين باكراً من الظلمات، يتحركون خلسة، وقد تورمت عيونهم بأحلام مجهضة، يلامسون الجدران مثل ظلال صينية. تسمع أصواتٌ قليلة هنا وهناك، تفضح بوابة حديدية ترفع، أو سيارة تنطلق. تتغرغر إحدى الحافلات

بفظاظة في طريق عودتها إلى المحطة. في القدس، يسود الحذر الشديد في الصباح؛ بدافع التطير لأن سلوك الفجر يحدد عموماً بقية النهار.

تستفيد كيم من حركة السير الخفيفة لتقود بسرعة فائقة. لا تنتبه لتوترها. يخال الناظر إليها أنها تريد استباق تقلبات مزاجي، وأنها تخشى أن أبدل رأيي، وأقرر العودة إلى بيت لحم.

لم ينتصب ظهرها إلا بعد أن توارت الشوارع الأخيرة للمدينة في مرآتها العاكسة.

بادرتها قائلاً : ـ لا داعي للعجلة.

سحبت قدمها عن دوّاسة البنزين كأنها اكتشفت فجأة بأنها تمشي على ذيل ثعبان. في الواقع، ما يضايقها هو تمزق صوتي. أشعر بإرهاق شديد، ببؤس شديد. عمَّ ذهبت أبحث في بيت لحم؟ عن نتفة من كذبة لتجميل ما تبقى من صورتي؟ عن القليل من الكرامة فيما لا شيء يلائمني؟ عن استعراض غضبي علناً ليعلم الجميع كم ألفظ هؤلاء الحثالة الذين فقأوا حلمي مثل دُمَّل؟... فلنسلِّم أن الناس لا يكترثون إلّا لألمي واشمئزازي، وأنهم يفسحون لي الطريق، وأن الأعناق تنحني تحت نظرتي...ماذا بعد؟ ما الذي سيتغير؟ أي جرح أكوي، أي كسر أجبِّر؟... في قرارة نفسي، لم أعد متأكداً من رغبتي باقتفاء جذور مأساتي.

لا ريب أنني لا أخشى الصدام، ولكن كيف أتبارز مع أشباح؟ لا يخفى على أحد أنني لست كفؤاً. لا أفقه شيئاً في المرشدين الروحيين وأعوانهم. طوال حياتي، وليتُ ظهري بعناد للانتقادات اللاذعة لهؤلاء وللتصرفات السيئة لأولئك، متشبثاً بطموحاتي مثلما يتشبث فارسٌ بمطيته في سبق خيل. تخليت عن عشيرتي، وقبلت الانفصال عن أمي، ووافقت على التنازل تلو الآخر من أجل تكريس نفسي فقط لمهنتي كجراح؛ لم يكن لدي الوقت للاهتمام بالصدمات النفسية التي تقوض الدعوات إلى المصالحة بين شعبين مختارين اختارا أن يحولا أرض الله المباركة إلى ساحة رعب وغضب. لا أذكر أنني هللتُ لمعركة هؤلاء أو شجبت معركة أولئك، فقد اعتبرت موقفهم جميعاً منافياً للعقل ومؤسفاً. لم أشعر بنفسي أبداً معنياً، بأي شكل من الأشكال، بالنزاع الدموي الذي يقتصر في الحقيقة على المواجهة السرية بين الضحايا وأكباش المحرقة لتاريخ آثمٍ متأهب على الدوام لإعادة الكرة. لقد عرفت الكثير من العداوات الحقيرة بحيث أن الوسيلة الوحيدة لعدم التشبه بالمسؤولين عنها تقضي بعدم ممارستها بدوري. بين أن أدير خدي الأيسر وردّ الضربات، اخترتُ التخفيف عن المرضى. إنني أمارس أنبل مهنة في العالم، ولا أريد، لقاء كل كنوز الدنيا، أن أهدد الاعتزاز الذي تمنحني إياه. لم يكن وجودي في بيت

لحم سوى هروب إلى الأمام؛ وشجاعتي المزعومة مجرد إلهاء. فمن أنا لأزعم الانتصار حيث تخفق الأجهزة المختصة كل يوم؟ أواجه منظمة متمرسة، مدربة بفضل سنوات من المؤامرات والبطولات، قاومت أفضل مخبري أجهزة الشرطة السرية... ليس لدي ما أواجهه بها سوى خيباتي كزوج مخدوع، وغضب مستعر بلا مفعول حقيقي. في هذه المبارزة، لا مكان للعواطف، وأقله العطف، فوحدها المدافع، والأحزمة التفجيرية، والضربات المخاتلة، يحق لها أن تبدي رأيها، والويل للمتكلمين من بطنهم الذين تتعرض دميتهم للزكام. إنها مبارزة بلا رحمة أو قواعد التردد فيها قاتل والخطأ غير قابل للتصويب، والغاية تولد وسائلها الخاصة، والخلاص خرج من السباق، واستبدل بدوار العمليات الثأرية والمجازر الاستعراضية. لطالما شعرت بنفور فظيع من الدبابات والقنابل، إذ لم أعتبرها سوى أكثر الأشكال اكتمالاً لأسوأ ما في الجنس البشري. لا صلة تربطني بالعالم الذي قمت بتدنيسه في بيت لحم؛ لا أعرف طقوسه، أجهل متطلباته، ولا أظنني قادراً على التآلف معها. أمقت الحروب والثورات، وقصص أعمال العنف الخلاصية التي تدور حول نفسها كالبراغي بلا نهاية، جارفةً أجيالاً بحالها عبر العبثيات القاتلة نفسها بدون أن يحدث ذلك صحوة في الأذهان. أنا جرّاح، وأرى أن

في أجسادنا ما يكفي من الألم لكي يطالب أشخاص سليمو الجسد والذهن بآلام أخرى في كل مناسبة.

قلت لكيم عندما راحت أبنية تل أبيب تلتمع في الانعكاسات البعيدة: ـ خذيني إلى بيتي.

ـ ألديك حوائج تريد أن تأخذها من هناك؟

ـ لا، أريد العودة إلى بيتي.

قطبت جبينها.

ـ لم يحن بعد الأوان.

ـ هذا بيتي يا كيم. وعاجلاً أم آجلاً، سيتحتم عليّ أن أعود إليه.

أدركت كيم هفوتها. طردت خصلة كانت تغطي عينيها بيد متضجرة.

ـ لم أقصد ذلك يا أمين.

ـ لم أقل ذلك عن سوء نية.

تابعت القيادة بضعة مئات الأمتار وهي تعضض شفتيها.

ـ أهي تلك الإشارة اللعينة التي لم تحسن إدراكها، أليس كذلك؟

لم أرد على سؤالها.

انتفض جرار زراعي على سفح تلة، واضطر الفتى الذي يقوده للتشبث بالمقود لئلا يفقد توازنه. يرافقه كلبان أصهبان يسير كل منهما من هذا الجهة وتلك من

الآلية، الأول يمسح التراب بخطمه، والثاني شارداً. ظهر بيت خلف سياج، صغيراً ومنخوراً، قبل أن تخفيه مجموعة من الأشجار ببراعة الحاوي. من جديد، تستعيد الحقول هرولتها المحمومة عبر السهل، ويبدو الموسم طافحاً بالخيرات.

تريثت كيم لتتجاوز قافلة عسكرية قبل أن تستأنف الحديث:

ـ ألم تكن تشعر بالراحة في شقتي؟

التفت نحوها، ففضلت أن تنظر أمامها مباشرة.

ـ لما بقيت ثانية واحدة إضافية يا كيم، وأنت تعرفين ذلك. أقدر حضورك إلى جانبي، إلا أني بحاجة إلى بعض المسافة لأقوم بجردة هادئة لهذه الأيام الأخيرة.

تخشى كيم أكثر ما تخشاه أن أسبب لنفسي الأذى، ألا أتحمل خلوتي مع نفسي، وأن أستسلم لحصار عذابي. تظن أنني على قاب قوسين من الانهيار، على مقربة من الفعل النهائي. لا حاجة بها لتعترف لي بذلك فكل ما فيها يفضح مخاوفها الدفينة: أصابعها التي تنقر على أي شيء، شفتاها اللتان لا تعرفان ماذا تفعلان بتكشيراتهما، عيناها اللتان تتهربان كلما ألحت عيناي، حلقها الذي عليها أن تسلكه كلما كان لديها ما تقوله

لي... أتساءل كيف تتصرف لئلا تفقد الأثر، وتظل تلاحقني بمثل هذه اليقظة الدؤوب.

تنازلت وقالت: ـ موافقة. سأقلك إلى البيت وأمر لاصطحابك في المساء. ستتعشى في شقتي.

كان صوتها مرتبكاً.

انتظرت بصبر أن تلتفت صوبي لأقول لها:

ـ أنا بحاجة للبقاء وحدي قليلاً.

تظاهرت بالتفكير ملياً، ثم استفسرت وقد انقبض فمها:

ـ إلى متى؟

ـ إلى أن تعود الأمور إلى نصابها.

ـ قد يدوم ذلك طويلاً.

ـ إطمئني، لست مصاباً إلى هذا الحد. أنا بحاجة فقط لاستجلاء أفكاري.

قالت بنبرة يجيشُ فيها غضبٌ لم تفلح في كظمه:

ـ عظيم.

بعد صمت مديد:

ـ هل أستطيع على الأقل أن أزورك؟

ـ سأتصل بك حالما أمكن ذلك.

جُرحَتْ مشاعرها.

ـ لا تستائي يا كيم. لست المعنية. أعلم أن الأمر

يستعصي على التبرير، ولكنك تفهمين تماماً ما أحاول أن أقوله لك.

ـ أريد فقط ألّا تنعزل، وأرى أنك لست قادراً بعد على استعادة رباطة جأشك بمفردك. ولست على استعداد لعض الأصابع القليلة المتبقية لي ندماً.

ـ سألوم نفسي على ذلك.

ـ لماذا لا تدع البروفسور (ميناك) يعاينك؟ إنه طبيب نفسي مشهور وصديقك العزيز.

ـ سأذهب لاستشارته، أعدك، إنما ليس في وضعي الراهن. أحتاج لإعادة ترميم نفسي أولاً، فسأكون في وضع أفضل للإصغاء.

أوصلتني إلى بيتي، ولم تجرؤ على مرافقتي إلى الداخل. ابتسمت لها قبل إغلاق البوابة خلفي. غمزتني غمزة حزينة.

ـ لا تدع إشارتك تفسد وجودك يا أمين. على المدى الطويل، هذا يضني الإنسان، ومن ثم، لن تستطيع أن تستعيد زمام الأمور بدون أن تتفتت بين الأصابع مثل المومياء المتعفنة.

انطلقت بدون أن تنتظر رد فعلي.

عندما اختفى هدير سيارة النيسان، وألفيتُ نفسي أمام بيتي وصمته، أدركت حجم وحدتي؛ بدأت أشتاق لكيم منذ هذه اللحظة... أنا وحدي مجدداً... قالت لي

سهام عشية سفرها إلى كفركنّا : لا أحب أن أتركك وحيداً. وعلى حين غرة، تذكرت كل شيء، في اللحظة التي كنت لا أتوقعها. أعدّت لي سهام وليمة ملوكية ذلك المساء؛ كل المآكل التي أعشقها. تعشينا على ضوء الشموع في الصالون. كانت لا تأكل بل تنقر نقراً خفيفاً في طبقها، جميلة ونائية في آن. سألتها : "لماذا هذا الحزن يا حبيبتي؟"، فأجابت: "لا أحب أن أتركك وحيداً". اعترضت قائلاً: " ولكن ثلاثة أيام ليست بفترة طويلة". اعترفت لي: " إنها دهرٌ عندي". كانت تلك رسالتها؛ الإشارة التي لم أدركها، إنما أنّى لي أن أفطن إلى الهوة خلف ضياء العينين، وإلى الوداع خلف كل هذا السخاء بما أنها وهبت نفسها لي في تلك الليلة كما لم تفعل أبداً من ذي قبل؟

بقيت دهراً أرتعش أمام عتبة بيتي قبل أن تطأها قدماي.

لم تمر الشغالة. حاولت الاتصال بها هاتفياً، وكنت أصادف بانتظام مجيبها الآلي. قررت أن أتولى الترتيب. كان البيت في الحالة التي تركه فيها رجال النقيب موشي؛ الغرف مقلوبة رأساً على عقب، الدروج ملقاة أرضاً، ومحتواها مبعثر، الخزانات مفرغة، الرفوف مقلوبة، الأثاث في غير مكانه المعهود، وأحياناً مقلوب. في هذه الأثناء، كانت الأغبرة والأوراق

الذابلة قد اجتاحت المكان بسبب الواجهات الزجاجية المحطمة والنوافذ التي أغفلت إغلاقها. كانت الحديقة منكوبة، مغطاة بالعبوات المعدنية، والصحف وشتى الأشياء التي خلفها المعتدون عليّ للتعويض عن فشل مخططهم. اتصلت بزجَّاج من معارفي، قال لي إنه ينجز عملاً ووعد بالمجيء قبل حلول المساء. من جهتي، شرعت في ترتيب الغرف، ولملمت ما كان مبعثراً، وأجلستُ ما كان مقلوباً، وأرجعت الرفوف والدروج إلى مكانها، وفصلت الأشياء التالفة عن تلك التي سلمت من الأذى. حين وصل الزجَّاج، كنت أنتهي من الكنس. ساعدني على إخراج أكياس القمامة، وذهب لتفحص النوافذ فيما انسحبت إلى المطبخ للتدخين واحتساء القهوة. ثم عاد بمفكرة دوَّن عليها العمليات المختلفة التي عليه القيام بها.

سألني: ـ إعصار أم تخريب؟

قدمت له فنجان قهوة قبله عن طيب خاطر. إنه رجل أصهب وسمين، ينتشر النمش في وجهه الذي يلتهم فم كبير نصفه، مدور ورخو المنكبين، قصير الساقين اللتين تهبطان سريعاً في جزمة عسكرية مخددة. أعرفه منذ سنوات عديدة؛ وقد أجريت لوالده عمليتين جراحيتين.

أخبرني: ـ هناك عمل كثير ينتظرنا. لا بد من

تبديل ثلاثة وعشرين لوحاً زجاجياً. وأنصحك كذلك باستدعاء نجار؛ فلديك نافذتان مخلوعتان، ومصاريع بحاجة للتصليح.

ـ هل تعرف نجاراً ماهراً؟

فكر ملياً وهو يضيِّق عينيه.

ـ أعرف واحداً لا بأس به، ولكنني لا أدري إن كان متوافراً على الفور. سأبدأ غداً، فقد اشتغلت اليوم كثيراً، وأصابني الإعياء. مررت فقط من أجل تحديد الكلفة. هل هذا يناسبك؟

ألقيت نظرة على ساعتي.

ـ اتفقنا. إلى الغد.

شرب الزجَّاج قهوته دفعة واحدة، وأرجع مفكرته إلى حقيبته المترهلة الأحزمة، ثم انصرف. كنت أخشى أن يذكر العملية التفجيرية بما أنه يعلم من وراءها بديهياً؛ ولكنه لم يفعل. لقد دوَّن المهام التي عليه إنجازها وكفى. أعجبني موقفه كثيراً.

بعد انصرافه، أخذت دشاً، وذهبت إلى المدينة. أقلتني سيارة أجرة أولاً إلى المرأب الذي ركنت فيه سيارتي قبل سفري إلى القدس. ثم توجهت إلى الشاطئ، مستقراً خلف مقودي. ترغمني حركة السير المحمومة على التوقف في مرأب قبالة المتوسط. كان الأزواج والعائلات يتنزهون بهدوء في الباحات. تناولت العشاء في مطعم صغير وغير معروف، واحتسيت بضع

كؤوس من الجعة في إحدى الحانات التي تقع في الجهة الأخرى من الشارع، وتسكعت على الشاطئ حتى ساعة متأخرة من الليل. نفحني صوت الأمواج نوعاً من الامتلاء. عدت إلى البيت، ثملاً بعض الشيء، إنما متخفف الذهن من بقايا كثيرة.

غفوت في الأريكة، بكامل ثيابي ومنتعلاً حذائي، فقد اختطفني النوم بين نفختين من سيجارتي. استيقظت مفزوعاً بسبب اصطفاق إحدى النوافذ. لاحظت أنني غارق في عرقي. أظن أني رأيت كابوساً، ولكنني لا أتذكره. نهضت متعثراً. انقبض قلبي، وخدشت القشعريرةُ ظهري. سمعت نفسي أصرخ، من هنا؟ أطفأت بهو المدخل، والمطبخ، والغرف، مترصداً صوتاً مشبوهاً... من هنا؟ كان باب زجاجي مفتوحاً في الطابق الأول، والستارة منتفخة بفعل الريح. لا أحد على الشرفة. أغلقت المصراعين وعدت إلى الصالون. ولكن الحضور الخفي ظلَّ موجوداً، غامضاً وقريباً في آن. اشتدت قشعريرتي. إنها سهام، أو لعله شبحها، أو الاثنين معاً... سهام... يمتلئ بها الفراغ شيئاً فشيئاً. بعد بضعة اختلاجات، يمتلئ بها البيت مثل بيضة، بحيث لم يتبق لي سوى جيب هوائي صغير كيلا أختنق. يتحول كل شيء إلى سيدة المكان؛ البيت، الثريا، الخزانات، أسلاك الستائر المعدنية، الكونسولات، الألوان...اللوحات، هي اختارتها، وهي كذلك علقتها

على الجدران. أتذكرها تنكفئ بضع خطوات إلى الوراء، وإصبعها على ذقنها، ثم تحني رأسها يمنة ويسرة للتحقق من ثبات الإطار. كانت سهام تتمتع بحس تفصيلي حاد. لا تترك شيئاً للصدفة، وتبقى ساعات طويلة تتساءل عن موقع لوحة أو ثنية ستارة. من غرفة المعيشة إلى المطبخ، من غرفة إلى أخرى، أشعر بأنني أقتفي أثرها. تأتي مشاهد شبه حقيقية لتحل محل الذكريات. على الأريكة الجلدية، تسترخي سهام. هنا، تطلي أظافرها بطبقات خفيفة من اللون الوردي. كل زاوية تحتفظ بشيء من ظلها، كل مرآة تعكس لطخة من صورتها، كل خرير يسردها. أمدُّ يدي فأقطف ضحكة، تنهيدة، أو تضوُّعَ عطرها... كنت أقول لها في مستهل مواسم وصالنا، أود أن تنجبي لي بنتاً... سألتني وقد احمر وجهها خجلاً: شقراء أم سمراء؟... أريدها معافاة وجميلة. لا يهمني كثيراً لون عينيها ولون شعرها. أود أن يكون لديها جوهر نظرتك وغمازتيك لكي تكون نسخة طبق الأصل عنك ....دخلت إلى الطابق الأول المزين بالمخمل الأحمر الداكن، بستائره الحليبية المعلقة على النوافذ، وأريكتين مهيبتين وسط سجادة عجمية جميلة، تسهر عليها منضدة من الزجاج والكروم. تحتل مكتبة كبيرة من خشب الكرز جناحاً كاملاً، من أوله إلى آخره، محملة بالكتب المرتبة بعناية والتحف القادمة من بلدان بعيدة. كانت هذه الغرفة برجنا

العاجي. لا أحد يدعى للجلوس فيها. كانت ركننا الحميم، وخلوتنا الذهبية. نأتي إليها أحياناً لنتحد مع لحظات صمتنا، ونعيد تدوير أحاسيسنا التي أوهنتها الضوضاء اليومية. نتناول كتاباً أو نسمع الموسيقى، وننطلق. نطالع كافكا أو جبران خليل جبران، ونصغي بالامتنان نفسه إلى أم كلثوم أو بافاروتي... فجأة، تسري في بدني قشعريرة من رأسي إلى أخمص قدمي. أحس بأنفاسها في باطن عنقي، كثيفة، حارة، لاهثة، متيقناً أنني سأبصرها أمامي حالما أستدير، وأباغتها واقفة في رقصة أمواجها الصاخبة، مشرقة، ونجلاء العينين، أبهى مما هي عليه في أكثر أحلامي جنوناً...

لا ألتفت.

أخرج من الصالون القهقرى إلى أن تتبدد أنفاسها في تيار الهواء، أعود إلى غرفتي لأضيء كل المصابيح والأنوار، تبديداً للظلمات، أخلع ثيابي، وأدخن سيجارة أخيرة، أبتلع قرصين مهدئين، ثم أنزلق في فراشي.

لا أطفئ الأنوار.

في اليوم التالي، فوجئت بوجودي في الطابق العلوي، وقد ألصقت وجهي بزجاج النافذة، أترقب طلوع الفجر. كيف رجعت إلى هذا المكان المسكون؟ بملء إرادتي أم مشياً أثناء نومي؟ لا أدري أبداً.

تتفوق سماء تل أبيب على نفسها؛ فلا سحابة واحدة تخترقها. القمر مختزل إلى قلامة صغيرة. تختفي نجوم الليل الأخيرة برفق وسط غبش الشروق. في الجهة الأخرى من البوابة، يلمِّع الجار الساكن قبالتي الزجاج الواقي من الهواء في سيارته. إنه أول المستيقظين في الحي. يحرص على الذهاب إلى السوق قبل منافسيه نظراً لأنه يدير أحد أرقى المطاعم في المدينة. كان يصدف أحياناً أن نتبادل التحية في العتمة، هو متأهب للذهاب إلى السوق، وأنا عائد من المستشفى. منذ العملية التفجيرية، يتجاهل وجودي كلياً.

وصل الزجَّاج قرابة التاسعة صباحاً في شاحنة باخ طلاؤها. أنزل معداته وألواحه الزجاجية باحتراس صانع الأسهم النارية، يساعده مراهقان تغطي البثور وجهيهما. أخبرني أن النجار سوف يصل بعد قليل. وصل هذا الأخير بعد لحظات على متن شاحنة ملفوفة بغطاء واق. إنه رجل مديد القامة معروق، مخدد السحنة، رصين النظرة. طلب أن يرى نوافذي المتلفة، غارقاً في عفريتة منسلة ومهترئة. تولى الزجَّاج مهمة إطلاعه عليها. بقيت في الطابق الأرضي، جالساً في أريكة، أحتسي القهوة وأدخن. خطر ببالي لوهلةٍ الخروج من أجل التريض في حديقة صغيرة قريبة من بيتي. الطقس جميل، والشمس تسفح ذهباً على الأشجار المحيطة ـ إلا أن المجازفة بلقاء مزعج قد يفسد نهاري ردعتني.

كالمني نافيد رونين حوالي الحادية عشرة قبل الظهر. في غضون ذلك، كان النجار قد اصطحب في شاحنته النوافذ التي سيصلحها في مشغله. أما الزجَّاج ومعاوناه، فقد صعدوا إلى الطابق الأول للعمل بدون إحداث جلبة.

قال لي نافيد، مسروراً لسماع صوتي عبر الهاتف:

ـ كيف حالك يا أخي؟ هل فقدت ذاكرتك أم أنك شارد الذهن فقط؟ ترحل، تعود، تختفي ثم تظهر، ولا يخطر ببالك للحظة واحدة أن تتصل بصديقك العزيز، وتترك له عنوانك.

ـ أي عنوان؟ أنت نفسك تعترف بأنني لا أستقر في مكان.

ضحك.

ـ هذا ليس مانعاً. أنا كثير التنقل، ولكن زوجتي تعرف بالضبط أين تتصل بي متى أرادت أن تسجل نقطة ضدي. هل سارت الأمور على ما يرام في القدس؟

ـ كيف علمت أنني كنت في القدس؟

ـ أنا شرطي... (بعد ضحكة مقتضبة). اتصلت بكيم، فردَّ بنيامين، وهو الذي أخبرني أين كنتما.

ـ من أخبرك أنني رجعت؟

ـ اتصلت ببنيامين فردَّت كيم... هل يناسبك هذا الجواب؟...أتصل بك لأنه من دواعي سرور مارغريت

أن تدعوك إلى العشاء عندنا. تقول إنها لم ترك منذ فترة طويلة.

ـ ليس هذا المساء يا نافيد. لدي بعض الأشغال التي أنجزها في البيت. وأصلاً، عندي فريق من الزجّاجين، وقد جاء النجار هذا الصباح.

ـ نؤجل الدعوة إذن إلى الغد.

ـ لا أدري إن كنت سأنجز كل هذه الأشغال بحلول الغد.

تنحنح نافيد، وفكر ملياً، ثم اقترح عليّ:

ـ إذا كان لديك أشغال كثيرة تنجزها في بيتك، فبوسعي أن أرسل لك من يساعدك .

ـ إنها مجرد تصليحات بسيطة، والبيت يعجُّ بالناس...

تنحنح نافيد ثانية. إنها عادة تظهر لديه كلما ارتبك.

ـ وهل سيعملون طوال الليل؟

ـ لا ، ولكن الوضع أشبه بذلك. شكراً على اتصالك ، وتحياتي لمارغريت.

قرابة الظهيرة، لما لم تطل كيم أو تتصل، فهمت أنها هي التي أرادت، من خلال نافيد، التحقق من بقائي على قيد الحياة.

أحضر لي النجار النوافذ، وركبّها بمفرده، ثم تحقق من حسن تشغيلها بحضوري. طلب مني توقيع

فاتورة، ثم وضع النقود في جيبه وانصرف، بعقب سيجارة مطفأ عند زاوية فمه. كان الزجّاج ومعاوناه قد انصرفوا منذ وقت طويل. استرجعت بيتي، وسكينة نقاهته، وأسرار ظلماته؛ صعدت إلى الصالون العلوي لأتحدى أشباحي. لا شيء يهتز في الزوايا. غُصت في أريكة، قبالة النافذة الجديدة، وراقبت الليل يهبط كنصل مقصلة على المدينة، مُضرِّجاً الأفق بالدماء.

تبتسم سهام في إطار صورة، فوق آلة الستيريو. لديها عين أكبر من العين الأخرى، ربما بسبب ابتسامتها المتكلفة. يبتسم المرء دائماً للمصور حين يكون هذا الأخير مقنعاً وإن لم يرغب بالإبتسام. إنها صورة قديمة، من الصور الأولى بعد زواجنا. أذكر إنها تصورت من أجل طلب جواز سفر. كانت سهام لا ترغب حقاً أن نسافر لقضاء شهر العسل. كانت تعلم أن إمكاناتي المادية محدودة، وتفضل الاستثمار في شقة أقل كآبةً من تلك التي نقطنها في الضواحي.

نهضت واقتربت من الصورة. إلى يساري، على رف مثقل بالاسطوانات، يوجد ألبوم صور مغلف برداء جلدي. تناولته بصورة شبه آلية، ثم عدت إلى الأريكة، وتصفحته. لا يخالجني انفعال محدد، كما لو أنني أتصفح مجلة ريثما يأتي دوري في عيادة طبيب الأسنان. تمر الصور أمام ناظري، أسيرة لحظة

التقاطها، باردة مثل الورق الصقيل الذي تسرد عليه قصتها، مجردة من أية شحنة عاطفية من شأنها إثارة حناني... سهام تحت مظلة شمسية، تخفي وجهها نظارات شمسية ضخمة، في شرم الشيخ؛ سهام في جادة الشانزليزيه بباريس؛ نحن الاثنين واقفين قرب عنصر من الحرس الملكي في بريطانيا؛ مع قريبي عادل في الحديقة؛ في سهرة اجتماعية؛ أثناء حفل استقبال أقيم على شرفي؛ مع جدتها في مزرعة كفركنّا؛ وخالها عباس الذي ينتعل جزمة مطاطية ويخوض في الوحل حتى الركبتين؛ سهام أمام مسجد حيها في الناصرة... تابعت ملامسة الذكريات بدون التلكؤ عندها، كما لو كنت أقلب صفحات حياة سابقة، أو قضية محفوظة...ثم استوقفتني صورة. يظهر فيها قريبي عادل ضاحكاً، وقد وضع يديه على خصره، أمام أحد مساجد الناصرة. عدت إلى الوراء، إلى تلك الصورة التي تقف فيها سهام أمام مسجد طفولتها. إنها صورة حديثة العهد، التقطت منذ أقل من سنة، بسبب حقيبة اليد التي اشتريتها لها بمناسبة عيد مولدها في يناير الماضي. إلى جهة اليمين. يظهر غطاء سيارة حمراء وطفل مقرفص أمام جرو كلب. أتفحص صورة عادل. السيارة الحمراء نفسها، والطفل والجرو أيضاً. يتعلق الأمر إذن بصورتين التقطها كلاهما في اللحظة نفسها، بالتناوب على الأرجح. استغرقت بعض الوقت لأسلم بذلك. كانت

سهام تذهب بانتظام إلى الناصرة حين تزور جدتها. كانت تعشق تلك المدينة، مسقط رأسها. ولكن عادل؟... لا أذكر أنني التقيته هناك. لم تكن بيئته. غالباً ما كان يأتي لزيارتنا في تل أبيب، حين تبعده أعماله عن بيت لحم، أما أن أتخيله في الناصرة...انقبض قلبي، واجتاحني ضيق مبهم. أرعبتني الصورتان. حاولت أن أجد لهما عذراً أو سبباً أو فرضية إنما بلا جدوى. كانت زوجتي لا تخرج أبداً برفقة أحد الأقارب على حد علمي. كانت تقول لي دائماً عند من ستذهب، ومن التقت، ومن اتصل بها هاتفياً. لا شك أنها كانت تحب عادل لظرفه وعفويته، أما أن تقابله خارج البيت، في مكان آخر غير تل أبيب بدون أن تخبرني، فهذه ليست عادتها.

تقض مضجعي هذه المصادفة، تلاحقني إلى المطعم، تنغص عشائي، تعترض سبيلي في البيت، تبقيني صاحياً على الرغم من القرصين المنومين اللذين تجرعتهما...عادل، سهام... سهام، عادل... حافلة تل أبيب ـ الناصرة ...تذرعت بسبب طارىء وترجلت من الحافلة لتقلها سيارة كانت تسير خلفنا... مرسيدس قديمة الطراز عاجية اللون ...شبيهة بتلك التي لمحتها في المستودع المهجور ببيت لحم ...إنها لعادل، قالها لي ياسر باعتزاز... سهام في بيت لحم، محطتها الأخيرة قبل التفجير... صدف كثيرة تسيء إلى الصدفة.

أبعدت أغطيتي. يشير المنبه إلى الخامسة صباحاً.

ارتديت ثيابي، ركبت سيارتي، واتجهت إلى كفركنَّا.

لم أجد أحداً في المزرعة. أخبرني أحد الجيران أن الجدة نقلت إلى مستشفى الناصرة، وأن قريبها عباس إلى جانبها. في المستشفى، لم يسمح لي برؤية المريضة التي نقلت فوراً إلى غرفة العمليات. أعلمتني إحدى الممرضات أنها أصيبت بنزيف في الدماغ. ألفيت عباس في قاعة الانتظار، غافياً على مقعد. لم ينهض حين رآني. هذه هي طبيعته، بليد الحركة مثل بندقية قديمة. كان عازباً في الخامسة والخمسين، لم يفارق المزرعة في حياته، لا يثق بالنساء وسكان المدن الذين يتحاشاهم مثل الطاعون، ويفضل تجزية الوقت في العمل طوال النهار بدلاً من تناول وجبة مع شخص لا تفوح منه رائحة ثلم المحراث أو عرق الجبين. كان رجلاً خشناً مصنوعاً من سنديانة، حاد الشفتين خرساني السحنة. ينتعل جزمة ملطخة بالوحل، ويرتدي قميصاً أبيض عند الإبطين بسبب التعرق، وسروالاً خشناً ومريعاً يخاله المرء مصنوعاً من غطاء واق...أوضح لي باقتضاب أنه عثر على الجدة أرضاً، فاغرة الفم، وأنه هنا منذ ساعات، وقد أغفل فك وثاق الكلاب. تزعجه النوبة التي تعرضت لها الجدة أكثر مما تؤثر فيه.

انتظرنا في الصالة إلى أن جاء طبيب، وأعلن انتهاء

العملية. كان وضع الجدة مستقراً، ولكن فرصها بالنجاة ضئيلة. استأذن عباس للعودة إلى المزرعة.

غمغم بدون أن يبدي اكتراثاً بتقرير الطبيب: ـ يجب أن أطعم الدجاجات.

قفز في شاحنته الصدئة وانطلق إلى كفركنًا. تبعته في سيارتي. انتبه إلى وجودي فقط بعد أن أنجز أعمال المزرعة المختلفة.

أكد لي أنه لمح مراراً سهام برفقة الشاب الذي في الصورة. المرة الأولى، وهو عائد إلى صالون الحلاق ليرجع لها محفظة النقود التي نسيتها على مقعد الشاحنة. هناك، تفاجأ بسهام تتناقش مع هذا الشاب. في بادئ الأمر، لم تخطر ببال عباس خاطرة سيئة. ثم خامرته الشكوك لاحقاً إذ عاد فشاهدهما معاً في أماكن عديدة. ولما تجرأ الشاب الذي في الصورة واقترب من المزرعة، هدده عباس بتهشيم رأسه بالمعول. استاءت سهام جداً من هذه الحادثة، ولم ترجع إلى كفركنًا أبداً منذ ذلك الحين.

قلت له: ـ هذا غير معقول. لقد أمضت سهام عيدي الفطر والأضحى مع جدتها.

ـ أقول لك إنها لم تعد منذ أن توليتُ تأديب ذلك الأرعن.

حزمت أمري واستفسرت منه عن طبيعة العلاقة بين زوجتي والشاب الذي في الصورة. صوب فيّ طرفه

وصعَّده وهو يكشر تكشيرة مغتاظة، مدهوشاً للوهلة الأولى من سذاجة سؤالي، ثم برطم:

ـ هل أرسم لك لوحة أم ماذا؟

ـ ألديك الدليل على الأقل؟

ـ ثمة إشارات لا تخطئ. لم أكن بحاجة لأباغتهما الواحد بين ذراعي الآخر، فأسلوبهما في التجول معاً كان يكفيني.

ـ لماذا لم تخبرني؟

ـ لأنك لم تسألني، ومن ثم، فأنا أهتم فقط بشؤوني.

في هذه اللحظة بالذات، كرهته كما لم أكره أحدهم في حياتي.

عدت إلى سيارتي وانطلقت بدون أن ألقي نظرة واحدة في المرآة العاكسة. لا أرى حتى إلى أين أمضي، وقدمي تضغط بقوة على دواسة البنزين. لا خطر يخيفني سواءً أغفلتُ منعطفاً أم اصطدمتُ مباشرة بمقطورة. أظن أن هذا ما تمنيته لنفسي بالضبط، ولكن الطريق كان مهجوراً بصورة قاسية. كانت أمي تقول لي: من يحلم كثيراً ينسى أن يعيش. كان أبي لا يصغي إليها. لا يفطن إلى تعاستها كعشيقة ووحدتها كزوجة. كان يفصل بينهما حاجز خفي، رقيق كالعدسة، إنما يبقي كل منهما على طرف نقيض من الآخر. كان أبي لا يرى سوى لوحته، إياها، تلك التي يرسمها صيفاً

شتاءً، ويثقلها بالتفاصيل إلى أن تتوارى خلف اللمسات والتعديلات قبل أن يعود فيرسمها كما هي على حاملة لوحات أخرى، هي نفسها على الدوام، بأدق التفاصيل، متيقناً بأنه سوف يرفع عذراءه المغلولة بالأصفاد إلى مصاف الجوكوندا، وأنها ستفتح له الآفاق الواسعة، وتكلِل بالغار صالات العرض المرموقة حيث سيعرضها. ولأنه كان لا يرى سوى ذلك التكريس المستحيل، لم يلمح شيئاً آخر من حوله، لا خيبات زوجة مهملة ولا غضب أب مهزوم... وهذا ما حصل لي ربما مع سهام. كانت لوحتي، وتكريسي العظيم. لم أنتبه إلا للأفراح التي تمنحني إياها، ولم أفطن إلى أي حزن من أحزانها، إلى أي موطن من مواطن ضعفها...لم أكن أعيشها حقاً، لا، وإلّا لما كنت وضعتها في هذه المرتبةِ المثالية، ولما كنت عزلتها هذه العزلة، والآن إذ أفكر بالأمر، كيف كان بوسعي أن أعيشها وأنا لا أكف أحلمها؟

13

أسمع صوتاً يناديني عبر سلسلة من الدهاليز الجوفية: سيد جعفري... سيد جعفري ...يتحلل الصوت الكهفي في تلعثماتي، يتردد في لازمة متواصلة، تارة ملحة، وطوراً مفزوعة. يبتلعني غورٌ، يجترني؛ أرفرف ببطء في الظلمات. ثم يلحق بي الصوت، يحاول أن يطفو بي على السطح ...سيد جعفري ...يخترق برق العتمة، يحرق عيني مثل سيف متوهج.

ـ سيد جعفري...

أصحو، ورأسي في كلابة.

ينحني رجل فوقي، يده خلف ظهره، والأخرى معلقة على بعد سنتمترات من جبيني. كان وجهه الناحل الذي ينتهي بذقن مثل القُمع لا يعني لي شيئاً. حاولت أن أحدد موقعي. إنني ممدد على سرير، جاف الحلق، مفكك الأوصال. يهدد السقف، من فوقي، بأن يدفنني. أغمض عيني لاحتواء الدوار الذي يتمايل بي تمايلاً

ساحراً، يرغمني على استعادة حواسي، على تلمس سبيلي. ببطء، أتعرف على الحائط إلى لوحة رخيصة تصور نسخة عن عباد الشمس لفان جوخ، والورق الجداري الذابل، والنافذة الحزينة التي تطل على أسطح مصنع...

سألت، متكئاً على مرفقي: ـ ماذا جرى؟

ـ أظن أنك مريض يا سيد جعفري.

تهالك مرفقي، وتهاويت على الوسادة.

ـ أنت في هذه الغرفة منذ يومين، ولم تغادرها مرة واحدة.

ـ من تكون؟

ـ مدير الفندق، سيدي. الشغالة...

ـ ماذا تريد؟

ـ الاطمئنان على صحتك.

ـ لماذا؟

ـ وصلت إلى الفندق منذ يومين. استأجرت هذه الغرفة، وأقفلت على نفسك الباب بالمفتاح. يحدث لبعض زبائننا أن يفعلوا ذلك، إنما...

ـ أنا بخير.

انتصب مدير الفندق مجاملاً. لا يعرف كيف يجدر به أن يرد على كلامي. دار حول السرير، وذهب ليفتح النافذة. تدفقت نفحة من الهواء العليل إلى الغرفة

وصفعتني. أخذت نفساً عميقاً إلى أن نبضَ الدم في عروق صدغي.

مسَّد مدير الفندق الغطاء الموجود أسفل السرير بحركة آلية. تأملني باهتمام، وتنحنح في قبضة يده المتكورة، ثم قال:

ـ نعرف طبيباً ماهراً يا سيد جعفري. لو شئت، نستدعيه.

أجبت بعناء، مقتلعاً نفسي من السرير اقتلاعاً: ـ أنا طبيب.

اصطكت ركبتاي، لم أفلح في الوقوف، وتهاويت على حافة السرير، محتضناً وجنتي براحتي. ارتبك مدير الفندق أمام جسدي العاري الذي حاول سروال داخلي بالكاد أن يستره. تمتم شيئاً لم أستوعبه، وغادر الغرفة القهقرى.

عادت أفكاري إلى مواقعها تباعاً، واستعدت ذاكرتي دفعة واحدة. تذكرت أنني غادرت كفركنَّا بسرعة جنونية، ونظمت الشرطة بي غرامة بسبب تجاوز السرعة قرب العفولة. تابعتُ طريقي إلى تل أبيب في حالة من الخدر. باغتني الليل لحظة وطأت عتبة المدينة. توقفت أمام أول فندق على طريقي. لم يكن وارداً عندي العودة إلى البيت وإلى أكاذيب حياة بكاملها. في طريق العودة، كنت أرغي وأزبد متحاملاً على العالم وعلى

نفسي، وقدمي تهرس دواسة البنزين، وترتج بسبب صرير العجلات المرعب الذي يتعالى في أعماقي مثل العويل الدينوني لأفعى الهدرة ذات الرؤوس التسعة. كنت كمن يجهد لاخترق جدار الصوت، لتحطيم نقطة اللاعودة، للتفكك في تفتت كبريائي. لا شيء بات يبدو لي قادراً على استبقائي في أي مكان، على مصالحتي مع الأيام المقبلة. أية أيام مقبلة؟ هل هناك حياة بعد يمين الزور، أو قيامة بعد العار؟ كنت أشعر بأنني نكرة، سخيف جداً بحيث أن فكرة التحسر على مصيري كانت لتقضي عليّ في الحال. حين يلاحقني صوت عباس، أجعل محرك السيارة يعول حتى الانفجار. أرفض أن أسمع شيئاً، ما عدا خوار العجلات في المنعطفات الحادة، والضغينة التي تنهشني بشراهة حمام من الحامض.لا أجد لنفسي أعذاراً، لا أبحث عنها، لا أستحق أياً منها. أستسلم استسلاماً مطلقاً للغيظ الذي يريدني له حصراً، يريدني أن أجسده حتى جذور شعري، حتى أطراف أظافري.

كان الفندق رثاً، واللوحة التي تحمل إسمه مزودة بمصباح نيون متداعٍ. استأجرت غرفة كما يصبر المرء على وجعه. بعد أن أخذت دشاً حارقاً، تناولت العشاء في أحد المقاهي، ثم شربت حتى ثملت في حانة وضيعة. استغرقت ساعات لأجد سبيلي. وفور عودتي إلى غرفتي، هويت إلى الحضيض بلا تحذير.

عليّ أن أتكئ على الحائط للوصول إلى الحمام. لا يستجيب إلا نصف أعضائي. يحاصرني الغثيان، يغشى بصري، ويمضني الجوع. يتراءى لي أنني أتحرك على غيمة. غفوت لمدة يومين في هذه الغرفة النتنة، بلا حلم أو ذكرى؛ وبتُّ ليلتين في أغطية يشبه عناقها الكفن... يا إلهي! ماذا حل بي؟

تعكس لي المرآة سحنة معذبة تمعن في تشويهها لحية نابتة. تبرز هالاتٌ زيتونيةٌ بياضَ العينين، وتحفر في وجنتي أكثر من ذي قبل حتى ليخال الناظر إلي أنني معتوه خارج من هذيانه.

ارتويت من الصنبور مباشرة، مطولاً، ثم انزلقت تحت الدش، وبقيت بلا حراك تحت دفق الماء، الوقت الكافي لاستعادة توازني.

عاد مدير الفندق يقرع بابي، ويتحقق من عدم استسلامي لغيبوبة المدمنين على الكحول. ارتاح لأنه سمعني أغمغم، وانصرف بخطى مخنوقة. ارتديت ثيابي ثانية، وغادرت الفندق لتناول الطعام، وانحراف مزاجي لا يفارقني.

غفوت على مقعد عمومي في حديقة صغيرة مشمسة، يهدهدني حفيف الأشجار.

حين استيقظت، كان المساء قد حل. لا أعلم أين أذهب، وماذا أفعل بلحظات وحدتي. نسيت هاتفي المحمول في البيت، وكذلك ساعة اليد. فجأة، أخشى

الخلوة مع ذاتي. لا أثق بعد اليوم بالرجل الذي لم يستبق مأساته. وفي الوقت نفسه، لا أشعر بنفسي مستعداً لتحمل نظرة الآخرين. قلتُ في سرِّي إنه من المستحسن أنني نسيت هاتفي المحمول. لا أتخيل نفسي أكالم أحدهم وأنا في هذه الحالة. قد يتسع جرحي بسبب كيم؛ قد يعرض عليّ نافيد الذريعة التي لا يجب اللجوء إليها. ومع ذلك، فالصمت يقتلني في هذه الحديقة المقفرة، أشعر بأني وحيد في هذا الكون، أشبه بحطام أهملته الأمواج على ضفة مشؤومة.

عدت أدراجي إلى الفندق، وتنبهت إلى أنني نسيت عدة الحمام وأقراصي. يتحداني الهاتف الموضوع على المنضدة قرب السرير. بمن أتصل؟ وكم الساعة؟ تمتلئ الحجرة بلهاثي. لا أشعر بالارتياح؛ أنزلق بلا رحمة في مكان ما...

ها أنا ذا في الشارع مجدداً. على حين غرة. لا أذكر كيف غادرت الفندق، ولا أدري منذ كم من الوقت أحوم في الحي. لا نافذة واحدة ساهرة من حولي. وحده هدير محرك يعلو بعيداً، ثم يستعيد الليل حقوقه على ما هو نائم... ألمح هاتفاً عمومياً، هناك، قرب الكشك. تقودني إليه خطواتي بالقوة، ترفع يدي السماعة؛ ترقن أصابعي رقماً. بمن أتصل؟ ماذا سأقول له؟ سمعت رنة في الطرف الآخر من الخط. تكررت خمس، ست، سبع مرات. ثم رفع أحدهم السماعة،

وتأفف صوت مثقل بالنعاس... " آلو؟ من أنت؟ هل تعرف كم الساعة؟ إنني أعمل غداً، أنا...". تعرفت إلى صوت ياسر. فوجئت بسماع صوته. لماذا أتصل به؟

ـ أنا أمين...

خيم الصمت، ثم تكوَّم صوت ياسر المتحشرج:

ـ أمين؟ ما الخطب؟

سمعت نفسي أسأله: ـ أين عادل؟

ـ إنها الثالثة فجراً، بربك!

ـ أين عادل؟

ـ وما أدراني؟ حيث تقوده مصلحته بالتأكيد. لم أره منذ أسابيع.

ـ هل ستقول لي أين هو، أم عليّ المجيء وانتظاره عندك؟

صرخ: ـ لا، لا تسوّل لك النفس المجيء إلى بيت لحم. الأشخاص إياهم يبحثون عنك. يقولون إنك خدعتهم، وإن جهاز (الشين بت) أرسلك.

ـ أين عادل يا ياسر؟

خيَّم الصمت مرة أخرى كانت أطول من سابقتها، ثم أجاب ياسر، متضجراً:

ـ في جنين... عادل في جنين.

ـ إنها ليست المكان الأمثل لتوظيف المال في شركة يا ياسر. جنين تشتعل.

ـ إسمع، أؤكد لك أن آخر الأنباء أشارت إلى وجوده في جنين. ليس لدي أي مبرر للكذب عليك. سأخبرك فور عودته، لو شئت... هلا تقول لي ما الأمر؟ ما باله لكي تتصل بي في مثل هذه الساعة؟

أقفلت الخط.

لا أدري، ولكني أشعر بأني أفضل حالاً.

ليس الحارس الليلي مسروراً لأنني أيقظته في الثالثة فجراً. يقفل الفندق أبوابه عند منتصف الليل، وقد نسيت الرمز السري للدخول. إنه شاب هزيل، لعله طالبٌ جامعيٌ يقضي لياليه في السهر على نوم الآخرين لتمويل دراسته. فتح لي بدون حماس، وبحث عن مفتاحي، فلم يعثر عليه.

ـ أمتأكد أنك سلمته قبل خروجك؟

ـ لماذا تريدني أن أثقل نفسي بمفتاح؟

انحنى مجدداً خلف ردهة الاستقبال، ونبش في الأوراق والمجلات التي تتكوم حول هاتف ناسوخي وناسخة، ثم نهض صفر اليدين:

ـ هذا غريب.

أمعن التفكير ليتذكر أين توجد النسخة الثانية من المفاتيح الأصلية، ولم يفلح في أن يصحو تماماً.

ـ هل بحثت في جيوبك سيدي؟

أجبته وأنا أتلمس جيوبي: ـ قلت لك إنني لا أحمله.

تشنجت يدي: كان المفتاح في جيبي. أخرجته بحركة مرتبكة. كظم الحارس الليلي تنهيدته، والسخط بادٍ على وجهه. تجمَّل بالصبر، وتمنى لي ليلة هانئة.

بما أن المصعد كان معطلاً، ارتقيت سلماً ضيقاً حتى الطابق الخامس حيث انتبهت أن غرفتي في الطابق الثالث، فرجعت على عقبي.

لم أشعل النور في الغرفة.

خلعت ثيابي، وتمددت على السرير كما هو، وحملقت في السقف الذي راح يجذبني شيئاً فشيئاً مثل ثقب أسود.

ابتداءً من اليوم الخامس، أدركت أن قدراتي الذهنية تتخلى عني الواحدة تلو الأخرى. تستبق ردود فعلي نواياي، وتتدهور بسبب تصرفاتي الخرقاء. في النهار، أحبس نفسي في غرفتي، منكمشاً على الكرسي أو مستلقياً على السرير، مقلوب العينين كأنني أحاول أن ألتقط من الخلف أفكاري الخفية لأن أفكاراً غريبة تلاحقني بلا كلل. يخطر لي تسليم دارتي إلى شركة عقارية، أن أنسى الماضي، وأهاجر إلى أوروبا أو الولايات المتحدة. في الليل، أخرج مثل الوحش

المفترس أرتاد الحانات المشبوهة، متيقناً، في هذه الأماكن التي لم أزرها من قبل، بأنني لن أصادف أحد معارفي أو زملائي السابقين. كانت عتمة تلك الحانات الملوثة بدخان السجائر والروائح الزنخة تبعث فيّ إحساساً غريباً بالتخفي. على الرغم من جيرة تتألف من السكارى المتذمرين والنساء ذوات النظرات المبهورة، لا أحد يعيرني انتباهاً. جلست إلى طاولة في ركن معزول، حيث ما عادت النساء المخمورات يجرؤن على الاقتراب، ورحت أشرب بهدوء إلى أن جاء أحدهم يعلمني أن الحانة سوف تقفل أبوابها. ذهبت لأنام تحت تأثير الخمر في الحديقة نفسها، على المقعد العمومي عينه، ولم أرجع إلى الفندق إلا مع انبلاج الفجر.

ثم أفلت مني زمام الأمور في إحدى الحانات. طغى عليّ الغضب الذي يجيش في أعماقي منذ أيام. توقعت أن يحدث ذلك، فبسبب حساسيتي المرهفة، كنت أعلم أنني سأنفجر عاجلاً أم آجلاً. أصبح كلامي فظاً، وتسارعت أجوبتي؛ صرت نافد الصبر، أستشيط غضباً حين يحدق فيّ أحدهم ببصره. مما لا شك فيه أنني أتحول إلى شخص آخر، مزاجياً وساحراً في آن. ولكنني أتفوق على نفسي هذا المساء في الحانة. منذ الوهلة الأولى، لم يرق لي المكان الذي أجلسوني فيه. كنت أرغب بموقع هادئ، ولكن الطاولات الشاغرة لم

تعد متوافرة. تجهمت، ثم قبلت على مضض. ومن ثم، أخبرتني النادلة أن الكبد المشوي نفد من الحانة. كانت تبدو صادقة، ولكن ابتسامتها لم تعجبني.

عاندتها: ـ أريد كبداً مشوياً.

ـ آسفة، فقد نفد من عندنا.

ـ هذه ليست مشكلتي. قرأت على قائمة الطعام المعلقة في الخارج أنكم تقدمون كبداً مشوياً. ولأجل ذلك، دخلت فقط لا غير.

توقفت قرقعة الشوك بسبب صياحي. التفت الزبائن نحوي. صرخت بهم: ـ ما بكم تحملقون هكذا؟

جاء صاحب الحانة. وظف كل لباقته المهنية لتهدئتي؛ أطلقت كياسته المفرطة العنان لشياطيني. طالبت بإحضار الكبد المشوي في الحال. اجتاحت الصالة موجة استنكار. اقترح أحدهم أن يُرمى بي خارجاً. إنه رجل متقدم في السن، يلوح بهيئته كالشرطي أو العسكري بثياب مدنية. دعوته ليطردني بنفسه. وافق عن طيب خاطر، وأمسك بخناقي. وقف صاحب الحانة والنادلة بالمرصاد للرجل الفظ. انقلب أحد الكراسي محدثاً جلبة، ثم انضم صرير أثاث إلى الشتائم. وصلت الشرطة. كان الضابط سيدة شقراء، عريضة النهدين، أنفها مضحك وعيناها متوقدتان. شرح لها الرجل الفظ كيف تدهور الموقف. تعززت إفادته بفضل شهادة النادلة وعدد لا بأس به من الزبائن.

أخرجتني السيدة التي ترتدي البدلة الرسمية إلى الشارع، وطلبت أن ترى أوراقي الثبوتية. رفضت أن أسلمها إياها.

غمغم أحد عناصر الشرطة: ـ لقد شرب حتى طفح.

قررت الضابط : ـ سنضعه في الحجز.

دفعوني داخل سيارة، وقادوني إلى أقرب مركز للشرطة. وهناك، أرغموني على إبراز أوراقي، وإفراغ جيوبي، واحتجزوني في زنزانة ينام فيها سكيران نوماً عميقاً، وهما يشخران. بعد ساعة، جاء أحد عناصر الشرطة لاصطحابي. رافقني لاسترجاع أغراضي الشخصية، وأوصلني إلى بهو الاستقبال. كان نافيد رونين هناك، متكئاً على مكتب الاستقبال، مذهولاً.

صرخت بفظاظة: ـ ها قد جاءت قدوتي الحسنة.

صرف نافيد الشرطي بإيماءة من رأسه.

ـ كيف عرفت أنني في السجن؟ هل طلبت من رجالك أن يتعقبوني؟

أجاب بصوت متعب: ـ لا شيء من كل هذا يا أمين. أنا مسرور لأنك واقف على قدميك. كنت أتوقع الأسوأ.

ـ ماذا على سبيل المثال؟

ـ اختطافاً أو انتحاراً. أبحث عنك منذ أيام وليالٍ.

منذ أبلغتني كيم عن اختفائك، بلّغت أوصافك ومهنتك إلى مراكز الشرطة والمستشفيات. أين اختفيت بربك؟

ـ لا أهمية لذلك...

سألت الضابط الجالس خلف المكتب: ـ هل أستطيع الإنصراف؟

ـ أنت حر طليق يا سيد جعفري.

ـ شكراً.

تكنس الشارع ريح ساخنة. يثرثر شرطيان وهما يدخنان، وقد اتكأ أحدهما على حائط قسم الشرطة، وافترش الآخر درجة شاحنة سجن.

كانت سيارة نافيد مركونة قرب الرصيف المقابل، ونواسّاتها مضاءة.

سألني: ـ أين أنت ذاهب؟

ـ سأريض ساقي.

ـ تأخر الوقت. ألا تريد أن أقلّك إلى البيت؟

ـ فندقي ليس بعيداً...

ـ فندقك؟ أضللت السبيل إلى بيتك؟

ـ أنا مرتاح جداً في الفندق.

مرَّر نافيد يداً على وجنتيه، مصعوقاً.

ـ أين فندقك؟

ـ ستقلني سيارة أجرة.

ـ ألا تريد أن أصحبك إلى هناك؟

ـ لا داعي لذلك. ثم، أنا بحاجة للبقاء بمفردي.

ـ هل أفهم من ذلك...

قاطعته: ـ لا يوجد شيء تفهمه. أنا بحاجة البقاء وحيداً، وانتهى الأمر. هذا واضح.

لحق بي نافيد إلى زاوية الشارع. اضطر لتجاوزي واعتراض سبيلي بسيارته.

ـ ما تفعله سيء يا أمين، صدقني. لو رأيت ما فعلته بنفسك.

ـ وماذا أرتكب من سوء؟ قل لي أين أخطأت؟...كان زملاؤك كريهين، لو شئت أن تعلم. إنهم عنصريون. كان الآخر هو البادئ، ولكن سحنتي تلائمهم. لست ذميماً لمجرد أنني خارج من مركز للشرطة. لقد اكتفيت بما قاسيته هذا المساء. والآن، أريد العودة إلى فندقي. اللعنة، أنا لا أطلب لبن العصفور! وما المانع من بقائي وحيداً؟

قال لي نافيد، وهو يضع يده على صدري ليمنعني من التقدم: ـ لا مانع أبداً، ولكنك قد تلحق بنفسك الأذى لو انعزلت. عليك أن تسترجع رباطة جأشك، هيا. إنك تفقد صوابك، وتخطئ لو ظننت أنك وحيد. ما زال لديك أصدقاء يمكنك الاعتماد عليهم.

ـ هل يمكنني الاعتماد عليك؟

باغته سؤالي.

أبعد ذراعيه، وأجاب: ـ بالطبع.

تفرست في وجهه. لم يشح بنظراته، وحده عصبٌ كان ينتفض في أعلى خده.

غمغمت: ـ أريد الانتقال إلى الجهة الأخرى من المرآة، إلى الجانب الآخر من الجدار.

ـ إلى فلسطين؟

ـ أجل.

كشر تكشيرة خفيفة، والتفت إلى الشرطيين اللذين كانا يراقباننا خلسة.

ـ ظننتُ أنك سويت هذه المسألة.

ـ ظننت ذلك بدوري.

ـ وما الذي بدل رأيك؟

ـ لنقل إنها مسألة شرف.

ـ شرفك مصان يا أمين. لا نلقي على أنفسنا بالذنب بسبب الإساءة التي تلحق بنا، إنما فقط بسبب الإساءة التي نلحقها بغيرنا.

ـ من الصعب تقبل ذلك.

ـ لست مضطراً.

ـ في هذه الناحية، أنت تخطئ.

أمسك نافيد بذقنه بين سبابته وإبهامه، وقد تجمع حاجباه. لا يتخيلني في فلسطين بحالتي الاكتئابية، ويبحث عن وسيلة أكثر ذكاءً ليثنيني عن عزمي.

قال لي وقد استنفد حججه: ـ لن تكون فكرة محمودة العواقب.

ـ ليست لدي غيرها.

ـ إلى أين تريد أن تذهب بالضبط؟

ـ إلى جنين.

حذرني قائلاً: ـ المدينة في حالة حصار.

ـ وأنا كذلك... لم تجب عن سؤالي. هل أستطيع أن أعتمد عليك؟

ـ أفترض أن لا شيء قد يُسمعك صوت العقل.

ـ وما هو العقل؟... هل أستطيع أن أعتمد عليك، نعم أم لا؟

بحثت في جيوبي، ووجدت علبة سجائر مجعدة أخرجت منها سيجارة، ووضعتها في فمي. انتبهت إلى أنني لا أحمل قداحة.

اعتذر نافيد: ـ لا أحمل قداحة. يجدر بك الإقلاع عن التدخين.

ـ هل يمكنني الاعتماد عليك؟

ـ لا أدري كيف. ستذهب إلى أرض ملغومة لا أمارس فيها أية سلطة، ولا نفوذ لي فيها. أجهل ما تسعى إلى إثباته. لا شيء هناك يعنيك. القتل مستعر أينما كان، والعيارات الطائشة تلحق أضراراً أكثر من المعارك النظامية. أحذرك، فبيت لحم منتجع صيفي بالمقارنة مع جنين.

أدرك هفوته، وحاول تصحيحها، إنما بعد فوات

الأوان. انفجرت جملته الأخيرة في أعماقي مثل المفرقعة. اصطدمت تفاحة آدم بحلقي حين حاصرته:

ـ وعدتني كيم أنها لن تتكلم، ولطالما وفت بوعدها. إذا لم تتكلم، فكيف علمت بأنني كنت في بيت لحم؟

ارتبك نافيد فقط لا غير. لم يعكس وجهه أي تزعزع داخلي.

بادرني مغتاظاً: ـ وماذا كنت فعلت مكاني؟ زوجة أعز أصدقائي انتحارية. باغتتنا جميعاً، زوجها، وجيرانها، وأقاربها. كنت تريد أن تعرف كيف ولماذا؟ هذا حقك، ولكنه كذلك واجبي.

لم أصدق ما أسمع.

صعقت.

هتفت: ـ هكذا إذاً!

حاول نافيد أن يقترب مني. رفعت يدي الاثنتين أتوسل إليه أن يبقى في مكانه، ثم سلكت أول زقاق أمامي، وتواريت تحت جنح الليل.

14

في جنين، يبدو أن العقل هشَّم أسنانه ورفض أي جهاز صناعي من شأنه أن يعيد البسمة إلى ثغره. لقد شدَّ المرح القديم الرحال منذ أن صارت الرياح مؤاتية للأكفان والرايات.

قال جميل كأنه يقرأ أفكاري: ـ وانتظر بعد، فأنت لم تشاهد كل شيء. الجحيم مأوى بالمقارنة مع ما يجري هنا.

ومع ذلك، فقد شاهدت الكثير من الأمور منذ أن عبرت إلى الجهة الأخرى من الجدار العازل: البلدات المحاصرة، نقاط التفتيش عند كل طريق فرعية، الطرقات التي تنتشر فيها السيارات المحروقة، بعد أن جندلتها الطائرات المسيّرة لاسلكياً، جحافل المستضعفين الذين ينتظرون دورهم على حواجز التفتيش، ويتعرضون للإهانة، وغالباً ما يمنعون من المرور؛ جنود لم يطر شاربهم ينفد صبرهم فيسددون

الضربات عشوائياً؛ نساء يعترضن، لا تحميهن من ضربات الهراوات سوى أياديهن المكلومة؛ سيارات الجيب التي تجوب السهول، والسيارات الأخرى التي ترافق المستوطنين اليهود الذاهبين إلى أماكن عملهم كما يذهبون إلى حقل ألغام...

أضاف جميل: ـ منذ أسبوع، كانت نهاية العالم. هل سبق لك يا أمين أن شاهدت دبابات ترد على مقالع؟ في جنين، فتحت الدبابات النار على الأطفال الذين يقذفونهم بالحجارة. إنه جليات يسحق داود عند كل زاوية شارع.

لم أفطن أبداً إلى أن التفسخ بلغ هذا المبلغ، وأن الآمال تضاءلت. كنت أعرف العداوات التي تشوه الذهنيات من هذه الجهة وتلك، والتفتت الذي يظهره المتناحرون الذين يرفضون الحوار ولا يصغون إلا لضغينتهم القاتلة؛ ولكن مشاهدة ما لا يطاق بأمّ العين يصدمني. في تل أبيب، كنت أعيش على كوكب آخر. كان قصر بصري يخفي عني جوهر المأساة التي تنهش بلدي؛ والتكريم الذي أحظى به يخفي حقيقة الفظائع التي تقوم بتحويل أرض الله المباركة إلى مكبٍّ لا مفر منه تتعفن فيه القيم الإنسانية التأسيسية، بأحشائها الظاهرة، وحيث تفوح من البخور روائح نتنة مثل الوعود التي لا تحترم، وحيث طيف الأنبياء يواري

وجهه في كل صلاة تتلاشى وسط قعقعة أعقاب البنادق وصرخات التحذير.

حذرني جميل: ـ لن نستطيع الذهاب أبعد من ذلك. إننا على خط التماس عملياً. انطلاقاً من صحن الدار المدمر لجهة اليسار، يصبح الموقع مرمى نيران.

دلني على كومة من الأحجار المسودة.

ـ لقد أعدم الجهاد الإسلامي خائنين يوم الجمعة الفائت. جرى تفجير جثتيهما. كانا منتفخين مثل طبلين.

نظرت من حولي. كان الحي مقفراً إلا من وحدة فريق تلفزيوني أجنبي يصور الأنقاض تحت الحراسة المشددة لأدلائه المسلحين. وصلت سيارة رباعية الدفع من حيث لا ندري، مدججة بالرشاشات، اندفعت مباشرة، ثم اختفت عند أحد المنعطفات في صرير عجلات فظيع؛ استغرق انقشاع سحابة الغبار التي خلفتها وقتاً طويلاً .

دوَّت عيارات نارية على مسافة قريبة، ثم خيَّم الصمت المطبق، مثيراً للإحباط.

رجع جميل إلى الخلف حتى بلغ مستديرة، وتفرَّس في شارع صامت، ثم درس كافة الاحتمالات، وقرر عدم التهور في مجازفات غير مضمونة العواقب.

قال لي: ـ هذا ليس مؤشراً إيجابياً على الإطلاق. لا ألمح مسلحي كتائب الأقصى. في هذا الموقع،

يكون هنالك عادة ثلاثة أو أربعة منهم لإرشادنا، وعدم وجود أحد منهم يعني أن كميناً نصب لهم في الجوار.

ـ أين يقطن أخوك؟

ـ على بعد أمتار من المسجد، بالضبط خلف تلك السطوح الهزيلة لجهة اليمين. غير أن الوصول إلى هناك يتطلب عبور الحي المزروع بالقناصين. لقد اجتزنا المرحلة الشاقة، ولكن المعارك متواصلة. لقد احتل جنود شارون قسماً كبيراً من المدينة، وهم يسدون منافذها الرئيسة. لن يسمحوا لنا حتى بالاقتراب منهم بسبب خشيتهم من السيارات المفخخة. أما مقاتلونا فهم متوترون ويطلقون النار قبل أن يطلبوا الأوراق الثبوتية. لا شك أننا أسأنا اختيار اليوم لزيارة خليل.

ـ ماذا تقترح إذن؟

مرر جميل لسانه على شفتيه المزرقتين.

ـ لا أدري. لم أتوقع ذلك.

عدنا أدراجنا حتى المستديرة، وصادفنا سيارتين تابعتين للصليب الأحمر، فتعقبناهما على مسافة. انفجرت قذيفة بعيداً، ثم قذيفة ثانية. في السماء الغبراء، تطن طوافتان، وقد جهزتا صواريخهما. مضينا خلف سيارتي الإسعاف بحيطة وحذر. دمرت الدبابات والجرافات بيوتاً بالكامل، وهناك بيوت أخرى دمرت بالديناميت، فخلفت مكانها مساحات خاوية مرعبة

تنفخها أكوام من الردم والحديد المصاب بداء المفاصل، نصبت فيها مستعمرات من الجرذان معسكرها بانتظار تعزيز مملكتها. ما زالت الأنقاض المصطفة تذكر بشوارع الأمس المحكومة بالصمت، مشرئبة بواجهاتها المعطوبة أمام العالم، مغطاة بشعارات أكثر حدة من شقوقها. وفي كل مكان، خلف القاذورات، وسط هياكل السيارات التي سحقتها الدبابات، بين الأسيجة المخردقة بالرصاص، في الساحات المتوجعة ـ في كل مكان، يعم الإحساس بإحياء الفظائع التي ساد الاعتقاد بأنها ألغيت، يعززه شبه اليقين بأن الشياطين القديمة أصبحت من الجاذبية بحيث أن لا ممسوس يرغب بالإفلات من براثنها.

وصلت سيارتنا الإسعاف إلى مخيم تسكنه أطياف مذعورة.

أوضح لي جميل: ـ إنهم الناجون. البيوت المدمرة كانت لهم، وها هم ينكفئون إلى هنا.

لم أتفوه بكلمة واحدة؛ يتملكني الخوف. ترتعش يدي وهي تتناول علبة السجائر .

ـ هلا تعطيني سيجارة؟

توقفت سيارتنا الإسعاف أمام خربة تنتظر أمامها بعض الأمهات بنفاذ صبر، وقد تعلق أطفالهن بثيابهن. ترجل السائقان، وفتحا أبواب السيارتين، فظهرت

المساعدات الغذائية التي باشرا توزيعها رمياً مما أثار تدافعاً من حولهم.

توصل جميل إلى سلوك سبحة من الطرق المختصرة، عائداً أدراجه كلما فزعنا بسبب عيار ناري أو هامة مشبوهة.

بلغنا أخيراً الأحياء السالمة نسبياً. كان بعض عناصر الجماعات المسلحة باللباس العسكري، وبعضهم الآخر ملثماً ومنهمكاً انهماكاً محموماً. أوضح لي جميل أنه مضطر لركن سيارته في مرأب، وأن علينا الاعتماد، انطلاقاً من هذا الموقع، على صلابة كواحلنا.

تسلقنا أزقة لا تنتهي يموج فيها الساخطون قبل أن نلمح بيت خليل.

قرع جميل الباب مرات عديدة، ولكنه لم يلق جواباً.

أخبرنا أحد الجيران أن خليلاً وأسرته رحلوا، قبل ساعات، إلى نابلس.

صرخ جميل: ـ يا لسوء الحظ! هل ذكر لك إلى أين في نابلس؟

ـ لم يترك عنواناً... هل كان يعلم بقدومكما؟

قال جميل، حانقاً لتكبده مشقة المجيء بلا فائدة:

ـ لم أتمكن من الاتصال به! جنين مقطوعة عن العالم... هل تعرف لماذا ذهب إلى نابلس؟

ـ هكذا بلا سبب. ماذا تريده أن يفعل هنا؟ لا مياه ولا كهرباء لدينا، وقد نفدت المؤن، ولا يغمض لنا جفن نهاراً أو ليلاً. لو كان لدي قريب قادر على استضافتي في مكان آخر، لحذوتُ حذو أخيك.

طلب جميل مني سيجارة أخرى.

قال متأففاً: ـ ما هذا النحس! لا أعرف أحداً في نابلس.

دعانا الجار للدخول للاستراحة قليلاً.

قلت له: ـ لا، شكراً. نحن على عجلة من أمرنا.

حاول جميل أن يفكر، ولكن خيبته شتت أفكاره. قرفص أمام بيت أخيه، وسحب نفساً من السيجارة بعصبية، وقد تشنج حنكاه.

نهض بقفزة واحدة:

ـ ماذا سنفعل؟ لا أستطيع البقاء في الجوار. لا بد لي من العودة إلى رام الله لإرجاع السيارة إلى صاحبها.

اعتراني الضيق بدوري. كان خليل دليلي الوحيد، فآخر الأنباء تفيد أن عادل يقيم عنده. كنت أرجو أن يصحبني إليه.

خليل وجميل وأنا أولاد عمومة. لا أعرف الأول جيداً، فهو يكبرني بعشر سنوات، ولكن جميل وأنا كنا قريبين جداً في سنوات المراهقة. تباعدت لقاءاتنا في

الآونة الأخيرة بسبب التفاوت بين مهنتي ومهنته، أنا الجرّاح في تل أبيب، وهو مرافق الشاحنات في رام الله. ولكن جميل كان يزورني في بيتي كلما مر بالصدفة في الجوار. إنه رب أسرة طيب ومحب ونزيه يحترمني جداً ويحتفظ بمودة عميقة لصداقتنا السابقة. حين أعلمته بمجيئي، طلب في الحال إجازة من رب العمل للاهتمام بي. إنه يعلم بشأن سهام. حكى له ياسر عن زيارتي العاصفة إلى بيت لحم، وأسرَّ له بالشكوك التي تحيط بي بشأن استغلالي المحتمل من جانب المخابرات الإسرائيلية. رفض جميل هذا الكلام، وهدَّد بأنه لن يكلمني لو نزلت في ضيافة غيره.

أمضيت ليلتين في رام الله بسبب عطل في سيارتي لم يرفق الميكانيكي في تصليحه. فاضطر جميل لاستعارة سيارة أحد الأقارب، ووعده بإرجاعها قبل حلول المساء. كان يعتزم أن يقلّني عند أخيه خليل، ويعود على الفور.

سألت الجار: ـ هل يوجد فندق في الجوار؟

ـ بالتأكيد، ولكن الفنادق محجوزة بسبب وجود كل هؤلاء الصحافيين. لو شئت انتظار خليل عندي، لا مانع، ففي بيت كل مؤمن متسعٌ للضيوف.

ـ شكراً، ولكننا سنتدبر أمرنا.

وجدنا غرفة شاغرة في نزلٍ يقع على مقربة من بيت خليل. طلب إلي عامل الاستقبال الدفع سلفاً قبل مرافقتي إلى الطابق الثاني حيث أدخلني إلى غرفة ضيقة يوجد فيها سرير متهالك، ومنضدة بدائية، وكرسي معدني. دلني على المرحاض في آخر الممر، ومخرج طوارئ إذا لزم الأمر، وتركني لحالي. بقي جميل في غرفة الانتظار. وضعت حقيبة السفر على الكرسي، وفتحت النافذة التي تطل على وسط المدينة. في البعيد، ترمي مجموعات من الصبية الدبابات الإسرائيلية بالحجارة قبل أن تتفرق بسبب النيران التي فتحها عليهم الجنود؛ تسفح القنابل المسيلة للدموع دخانها الأبيض في الأزقة المشبعة بالغبار؛ يتحلق الناس حول جسد سقط للتو... أغلقت النافذة، ووافيت جميل في الطابق الأرضي. كان صحافيان عاريا الصدر نائمين على أريكة، وقد تبعثرت من حولهما معداتهما. أخبرنا عامل الاستقبال أن ثمة مقصفاً صغيراً في آخر البهو لجهة اليمين لو رغبنا بشراب أو طعام. استأذنني جميل بالعودة إلى رام الله.

ـ سأمر ببيت خليل، وأترك عند الجار عنوان الفندق ليتصل بك فور عودة أخي.

ـ اتفقنا. لن أغادر الفندق. ولا أظن أصلاً أن بوسع المرء التريض في هذا الحي.

ـ أنت محق. إبق في غرفتك إلى أن يأتي أحدهم لاصطحابك. سيرجع خليل اليوم بالتأكيد، أو غداً على أبعد تقدير. لا يترك البيت أبداً فارغاً.

ضمني إلى صدره.

ـ لا تتهوَّر يا أمين.

بعد انصراف جميل، قصدت المقصف لتدخين بضع سجائر وارتشاف فنجان قهوة. وصل بعض الشبان المسلحين الذين عصبوا رأسهم بمنديل أخضر وارتدوا سترات واقية للرصاص. انتحوا زاويةً حيث انضم إليهم فريق من التلفزيون الفرنسي. اقترب أصغرهم سناً مني، وشرح لي أنها مقابلة، وطلب مني بلطفٍ أن أغادر المقصف.

صعدت إلى غرفتي، وفتحت مجدداً النافذة على المعارك المنظمة. انقبض قلبي أمام المشهد الذي ارتسم أمامي... جنين...المدينة الكبرى في طفولتي. بما أن أراضي عشيرتنا تبعد عنها ثلاثين كيلومتراً، غالباً ما كنت أرافق أبي حين يذهب إلى المدينة ليعرض أعماله على باعة لوحات فنية مريبين. في تلك الفترة، كانت جنين تبدو لي غامضة مثل بابل، يحلو لي فيها أن أتخيل بُسُطها مثل بُسط الريح. ثم، لما أضحيت بسبب سن البلوغ أكثر انتباهاً لتمايل أرداف النساء، تعلمت أن أزورها بمفردي مثل الكبار. كانت جنين المدينة

المنشودة للملائكة المتهتكين، بمظهرها، مظهر البلدة الكبيرة التي تحاكي المدن، وزحمتها المتواصلة التي تذكر بالسوق في يوم رمضاني، ودكاكينها الشبيهة بمغارات علي بابا حيث تجهد التذكارات للتخفيف من شبح القلة، وأزقتها العطرة التي يُذكِّر صبيتها بالأمراء الحفاة؛ إنما كذلك روعتها التي كانت تبهر الحجاج في حياة سابقة، ورائحة خبزها التي لم أشمها في أي مكان آخر، وطيبتها الأصيلة أبداً على الرغم من صروف الدهر الكثيرة... أين اختفت تلك اللمسات الطفيفة التي تؤلف سحرها وطابعها المميز، وتجعل خفر بناتها زائلاً بقدر جرأتهن، وشيوخها أجلاء رغم مراسهم الصعب؟ لقد قضى حكم العبثية حتى على أفراح الأطفال. غرق كل شيء في اكفهرار مريب حتى يخال المرء أنه على جناح منسي في المطهر، مسكون بالأرواح المترهلة، الكائنات المحطمة، أنصاف الأطياف وأنصاف الملعونين، العالقين في صروف الحياة مثل الذباب في طلاء مسفوح، بسحناتهم المضطربة ونظراتهم المقلوبة، الملتفتة نحو الليل الذي لا تستطيع شمس السامرة نفسها أن تضيئه لشدة بؤسه.

أصبحت جنين مدينة منكوبة، وتلفاً هائلاً، لا معنى لها، غامضة مثل ابتسامة شهدائها المعلقة صورهم في كل شارع. ترتع في لعناتها، مقطوعة الأنفاس، وقد نفدت منها الأدعية، بعد أن شوهتها الغارات الكثيرة

للجيش الإسرائيلي، تارة يصار إلى التشهير بها، وطوراً إلى إحيائها لإدامة المتعة...

سمعت أحدهم يقرع باب غرفتي.

استيقظت. كانت الغرفة غارقة في العتمة، وساعة يدي تشير إلى السادسة بعد الظهر.

سمعت صوتاً خلف الباب يقول: ـ سيد جعفري، لديك زيارة.

كان أحد الفتيان ينتظرني أمام ردهة الاستقبال، محشوراً في زيٍّ مبرقش. لعله في الثامنة عشرة، ولكنه يحاول أن يظهر أكبر سناً. تجوب وجهه الرقيق الملامح أشرطة من الوبر المبعثر الذي يعتبره لحية.

قدم نفسه بحذلقة: ـ أنا أبو دمار. إنه إسمي الحركي. أنا شخص موثوق. أرسلني خليل لإحضارك.

عانقني على طريقة المجاهدين.

تبعته عبر حي محموم تختفي فيه الأرصفة تحت طبقات من الركام. لا بد أن الجيش الإسرائيلي أخلى المكان مؤخراً لأن الطريق المليئة بالحفر تحتفظ بعضَّة المجنزرات مثلما يحتفظ شخص خضع للتعذيب بآثار عذابه. لحقت بنا مجموعة من الأطفال في موكب صاخب، واختفت في أحد الأزقة، وهي تقذف سيلاً من الشتائم.

كان دليلي يسير أسرع مني؛ ويضطر للتوقف بين الحين والآخر لانتظاري.

أشرت إليه: ـ هذه ليست الطريق.

أوضح لي: ـ سيهبط الليل بعد قليل. هناك أحياء محظور فيها التجول مساء، منعاً للخطأ. إننا منضبطون جداً في جنين، والتعليمات تنفذ بحذافيرها، وإلا لما استطعنا أن نتحمل الوضع.

التفت نحوي وأضاف: ـ ما دمت معي، لا تخشى شيئاً. هذه منطقتي، وبعد سنة أو سنتين، سأتولى قيادتها.

وصلنا إلى طريق مسدودة خالية من الإنارة. كانت هامة مسلحة تتولى الحراسة أمام بوابة. دفعني الفتى نحوها.

قال فخوراً بإنجاز مهمته: ـ هذا هو طبيبنا.

قال الحارس: ـ عظيم يا ولد. عد إلى بيتك، وانس أمرنا.

أحس الفتى بشيء من الارتباك أمام النبرة الحازمة التي خاطبه بها الحارس. ألقى علينا التحية، وتوارى سريعاً في العتمة.

طلب إلي الرجل المرابط أن أتبعه إلى صحن دار كان مسلحان يكملان فيه تهيئة رشاشيهما على ضوء مشعل. وقف رجل مديد القامة، محزَّماً بسترة مظليين، على عتبة صالة مكتظة بالأسِّرة الميدانية وأكياس النوم. إنه القائد. ليس مسروراً لرؤيتي، بسحنته المبرْغَلة وعينيه المتوقدتين.

بادرني على الفور: ـ أتريد الانتقام يا دكتور؟
باغتني ولزمني بعض الوقت لاستعادة رباطة جأشي.
ـ ماذا؟
أجاب، وهو يدخلني إلى غرفة جانبية: ـ لقد سمعتني جيداً. يرسلك (الشين بت) لتسدد رفسة في وكر النمل، وتخرجنا من مخابئنا، وترمينا لقمة سائغة للطائرات المُسيَّرة لاسلكياً.
ـ غير صحيح.
هدَّدني، وهو يقذف بي نحو جدار: ـ إخرس. إننا نراقبك منذ بعض الوقت. كانت زيارتك إلى بيت لحم محط الأنظار. ماذا تريد بالضبط؟ أن تُذبح في مجرى ماء أم تُشنق في الساحة؟
فجأة، أوحى لي هذا الرجل بهلع فظيع.
حشر فوهة مسدسه في خاصرتي، وأرغمني على الركوع. سحب أحد المسلحين الذي لم ألمحه يدخل، يديّ إلى الخلف، ووضع فيهما أصفاداً، بدون أيما عنف، كما لو أن الأمر يتعلق بتمرين. يشق عليّ أن أصدق ما يجري لي لشدة ما فوجئت بمنحى الأمور، وسهولة وقوعي في الفخ.
قرفص الرجل ليرمقني عن كثب:
ـ هذا آخر الخط يا دكتور، وعلى الجميع الترجل. ما كان يجدر بك أن تبالغ إلى هذا الحد. فعند هذا

الحد، نحن لا نصبر على الأنذال، ولا نسمح لهم بتنغيص حياتنا.

ـ لقد أتيت لألتقي نسيبي خليل.

ـ لاذ خليل بالفرار حالما علم بزيارتك. ليس مغفلاً. هل تقدِّر حجم الفوضى التي تسببت بها في بيت لحم؟ بسببك، اضطر إمام الجامع الكبير للانتقال إلى مدينة أخرى. اضطررنا لوقف كل العمليات هناك للتحقق من عدم انكشاف مواقع شبكاتنا. لا أدري لماذا وافق أبو مقاوم على مقابلتك، ولكنها كانت مبادرة سيئة جداً. وقد اضطر بدوره لتغيير مكان إقامته منذ ذلك الحين. فهل تأتي الآن إلى جنين لإعادة الكرة؟

ـ لست مُسيَّراً من أجهزة المخابرات.

ـ حقاً... يلقون عليك القبض إثر العملية التي نفذتها زوجتك؛ ثم يفرجون عنك بعد ثلاثة أيام، بكل بساطة، بدون ملاحقات أو محاكمة، لا بل يعتذرون عن المضايقات التي تسببوا بها لك. لماذا؟ لسواد عينيك؟ نُسلِّم بذلك، بل نكاد نصدقه، غير أننا لم نشهد ذلك من ذي قبل أبداً. لم يسبق أبداً لأية رهينة لدى (الشين بت) أن أطلق سراحه بدون أن يكون قد باع نفسه أولاً للشيطان.

ـ إنك تخطئ الظن...

قبض على حنكي، وضغط عليهما ليبقي فمي فاغراً:

ـ يلومنا السيد الدكتور. ماتت زوجته بسببنا. كانت بخير في قفصها الذهبي، أليس كذلك؟ تأكل جيداً، تنام جيداً، وتتسلى جيداً. لم يكن ينقصها شيء؛ وإذ بزمرة من المعتوهين يجعلونها تحيد عن سعادتها لإرسالها ـ كيف تقولها؟ ـ إلى الحَرْق. يعيش السيد الدكتور على مقربة من حرب، ولكنه لا يرغب بالسماع بها، ويعتقد أن زوجته كذلك لا يجب أن تكترث لها... السيد الدكتور مخطئ.

ـ لقد أفرجوا عني لأن لا علاقة لي بالعملية التفجيرية. لم يجندني أحد. أريد فقط أن أفهم ما جرى. ولهذا السبب، أبحث عن عادل.

ـ ولكن الأمور واضحة. إننا نخوض حرباً. هناك من حملوا السلاح، وهناك من لا يحركون ساكناً، وآخرون يتكسبون بإسم القضية. هذه هي سنَّة الحياة. لا بأس ما دام كل فريق يلزم موقعه. ولكن الأمور تتعقد حين يأتي المرتاحون لتوبيخ المتورطين في المعمعة حتى آذانهم... لقد اختارت زوجتك معسكرها. كانت للسعادة التي تعرضها عليها رائحة تحلل تشمئز منها، أتفهم؟ لقد رفضتها. لم تعد تطيق أن تتمتع بأشعة الشمس فيما ينوء شعبها تحت النير الصهيوني. هل أرسم لك لوحة لكي تفهم، أم أنك أنت الذي ترفض مواجهة الواقع؟

انتصب واقفاً، منتفضاً لشدة سخطه، ودفعني بركبته نحو الحائط، ثم خرج وقفل الباب وراءه.

بعد ساعات، أُلقي بي في صندوق سيارة، مكمم الفم ومعصوب العينين. أحسست بأنها النهاية. سوف يصطحبونني إلى أرض مهجورة ويعدمونني. ولكن ما يزعجني هو انصياعي لمشيئتهم. فالحمل الوديع كان ليدافع عن نفسه أكثر مني. حين أطبق غطاء الصندوق عليّ، صادر مني القليل من الاحترام الذي كنت أطالب به لشخصي. وفي الوقت نفسه، عزلني عن العالم الخارجي. كل هذا الدرب، كل ذلك المسار المهني المدهش لينتهي بي المطاف في صندوق سيارة مثل بقجة حقيرة! كيف انحدرت إلى هذا الدرك؟ كيف أقبل أن أعامل على هذا النحو، ولا أحرك ساكناً؟ يحملني شعور بالغضب العاجز بعيداً في غياهب الماضي. أستحضرُ صباحاً انزلق فيه جدي، وهو يصطحبني بعربته عند قلّاع الأسنان، على ثلم، وأوقع البغّال أرضاً. نهض هذا الأخير، وراح يقذف جدي بكل أنواع الشتائم. توقعت أن يستشيط جدي الشيخ الجليل بدوره غضباً ملحمياً، كذلك الذي يرعب المتمنعين في العشيرة. وكم حزنتُ حين رأيتُ ذلك (السنتور) الخرافي، ذلك الكائن الذي أكاد أرتقي به، لشدة إجلالي له، إلى مصاف الإله، يكتفي بالإسراف في الاعتذار، ولملمة كوفيته التي انتزعها الآخر من بين

يديه، ورماها أرضاً. لشدة ما حزنت، ما عدت موجوعاً بسبب تسوس ضرسي. كنت في السابعة أو الثامنة من العمر. لم أشأ التسليم بأن جدي يقبل بمثل هذا الهوان. كانت كل صيحة يطلقها البغّال تهوي بي درجةً إلى الحضيض، وتشعرني بالنقمة والعجز. لم أكن أملك سوى رؤية معبودي يتداعى مثل ربان يشاهد سفينته تغرق. ذلك هو تماماً الحزن الذي استولى عليّ لحظة محاني من الوجود غطاء صندوق السيارة. لشدة ما خجلت من تلقي كل هذه الإهانات بدون أن أحرك ساكناً، بتُّ لا أعبأ بالمصير الذي ينتظرني؛ أصبحتُ نكرة .

15

احتجزت في قبو مظلم لا منور فيه ولا إنارة.

قال لي الرجل الذي يرتدي سترة المظليين: ـ ليس فندقاً فخماً، ولكن الخدمة ممتازة. لا تحاول أن تتذاكى لأن فرصك بالهروب معدومة. لو كان الأمر بيدي، لكنتَ الآن جثة نتنة. للأسف، أنا أتلقى الأوامر من رؤسائي، وهم لا يشاطروني مزاجي دائماً.

كاد قلبي يتوقف عن الخفقان حين صفق الرجل الباب خلفه. تكوَّمتُ حول ركبتي، وكففتُ عن الحراك.

في اليوم التالي، أتوا لاصطحابي. ها أنا ذا من جديد في صندوق سيارة، مغلولاً بالأصفاد، مغطى الرأس بكيسٍ ومكمم الفم. بعد رحلة طويلة مليئة بالمطبات، رُميتُ أرضاً. أجبرت على الركوع، وأُخرج رأسي من الكيس. أول ما لفت انتباهي حجرة كبيرة ملطخة بالدم المخثر ومخردقة بطلقات الرصاص. تفوح رائحة الموت في هذا المكان بشدة. لا بد أن الكثيرين

أعدموا هنا. ألصق أحدهم فوهة رشاش على صدغي. قال لي: " أعلم أنك لا تعرف أين توجد الكعبة، ولكن تلاوة صلاة أمر محمود دائماً". تلتهمني العضة المعدنية للسلاح من رأسي إلى أخمص قدمي. لست خائفاً، ومع ذلك، ولشدة ارتعاشي، تصطك أسناني حتى تكاد تتفتت. أغمضت عيناي، ولملمت الأجزاء الأخيرة من كرامتي الباقية، وانتظرت النهاية... أنقذتني خشخشة جهاز لاسلكي في اللحظة الأخيرة؛ وأعطي الأمر إلى الجلادين بتأجيل مهمتهم القذرة إلى وقت لاحق، وإرجاعي إلى مكان احتجازي.

من جديد، العتمة، إلا أني وحدي، هذه المرة، في العالم، بدون ملاك حارس أو ذكريات، ما عدا ذلك الهلع المقزز في الأحشاء، وأثر الفوهة في صدغي... في اليوم الثالث، عادوا لاصطحابي. بعد الرحلة عينها، وخشخشة الجهاز اللاسلكي نفسه، أدركتُ أن الأمر يتعلق بمحاكاة مبتذلة لإعدام، وأنهم يدفعونني للانهيار.

ثم لم يرجع أحد لمضايقتي.

بقيتُ ستة أيام وستة ليالٍ محتجزاً في جحر منتن، فريسةً للقمل والصراصير، قوتي حساءٌ بارد، وسريري فراش صلد مثل شاهد قبر يحزُّ فقرات ظهري حزاً مثل المبرد!

كنت أتوقع استنطاقات عنيفة، وجلسات تعذيب أو

أموراً من هذا القبيل، إنما لا شيء حصل. يتولى مراقبتي بعض الفتية المنبهرين، الذين يستعرضون رشاشاتهم مثل غنائم الحرب. مرة بالصدفة، يحضرون لي الطعام بدون أن يوجهوا لي الكلام، متجاهلين وجودي كلياً.

في اليوم السابع، زارني أحد القادة مخفوراً بحماية مشددة في قبوي. إنه شاب في الثلاثين من العمر، ناحل بالأحرى، سحنته مسننة مثل النصل، محروقة في جانب منها، وعيناه تتميزان ببياضٍ مشبوه. كان يرتدي زياً عسكرياً باخ لونه، ويحمل بالعرض رشاشاً فدائياً.

تريث لحين نهضت، ودسَّ في يدي مسدسه، ثم تراجع خطوتين.

ـ إنه ملقَّم يا دكتور. هيا، أقتلني.

وضعت المسدس أرضاً.

ـ هيا، أقتلني، هذا حقك. وبعدها، يمكنك أن تعود إلى بيتك، وتقلب الصفحة نهائياً. ولا أحد هنا سيمس شعرة من رأسك.

اقترب، ودسَّ المسدس في يدي ثانية.

رفضت أن أتناوله.

سألني: ـ هل أنت رافض للخدمة العسكرية؟

أجبته: ـ بل جرَّاح.

هزَّ كتفيه، ودسَّ مسدسه تحت حزامه، ثم أسرَّ لي:

ـ لا أدري إن كان النجاح قد حالفني يا دكتور، ولكنني أردت لك أن تعيش في جسدك وذهنك الحقد الذي ينهشنا. طلبت تقريراً مفصلاً عنك. يقال إنك رجل صالح، محب للمبادئ الإنسانية، وإن لا سبب لديك لتضمر الشر للبشر. لذا، كان من الشاق عليّ إفهامك ذلك بدون أن أقصيك عن مرتبتك الاجتماعية، وأمرِّغك في الوحل. أما وقد لمستَ لمس اليد القذارات التي كان نجاحك المهني يعفيك منها، فقد تتعزز فرصتي بإفهامك. لقد علمتني الحياة أن بوسع المرء العيش على الماء والخضرة، الفتات والوعود، إنما ليس بوسعه أن يُكتب له البقاء في الذل والهوان. وأنا لم أعرف سواهما منذ أبصرت النور. كل صباح، وكل مساء. لم أشهد غير ذلك طوال حياتي.

أومأ بيده إيماءة خفيفة، فرمى أحد المسلحين بكيس عند قدمي.

ـ أحضرت لك ثياباً جديدة. دفعت ثمنها من جيبي.

لم أفهم قصده.

ـ أنت حر طليق يا دكتور. طلبت مقابلة عادل. إنه ينتظرك خارجاً، في سيارة. يود عمك أن يستقبلك في بيت جدك. لو شئت ألا تقابله، فلا بأس. سنبلغه أن لديك مشاغل. حضرنا لك حماماً، ووجبة أفضل نوعية، إذا لم يكن لديك مانع.

بقيت حذراً، لا أحرك ساكناً.

قرفص القائد، وفتح الكيس، ثم ناولني ثياباً وزوج أحذية لإثبات حسن نيته.

بادرني وهو ينهض، ويضع يديه على خصره: ـ كيف أمضيت هذه الأيام الستة في هذا القبو النتن؟ أتمنى أن تكون قد تعلمت الحقد، وإلّا فإن هذه التجربة لم تكن مفيدة أبداً. لقد احتجزتك في هذا المكان لتتذوق طعم الحقد، والرغبة بممارسته. ولعلمك، لم أعرضك للإهانة. لا أحب أن أُهين. لقد تعرضت للإهانة، وأعرف ما هي. كل المآسي ممكنة حين تنتهك الكبرياء، ولا سيما حين يلاحظ المرء أنه لا يملك وسائل كرامته، وأنه عاجز. أعتقد أن أفضل مدرسة للحقد في هذه اللحظة بالذات. يتعلم المرء حقاً أن يحقد انطلاقاً من اللحظة التي يدرك فيها عجزه. إنها لحظة مأساوية؛ أفظع اللحظات وأبغضها.

قبض على كتفي بفظاظة:

ـ أردت أن تفهم لماذا نحارب يا دكتور جعفري، لماذا يرتمي الأطفال على الدبابات كأنهم يرتمون على علب المُلبَّس، لماذا مقابرنا متخمة، ولماذا أريد الموت وسلاحي بيدي... لماذا ذهبت زوجتك لتفجر نفسها في مطعم. لا كارثة أكبر من المهانة. إنها مأساة غير قابلة للقياس يا دكتور، تحرمك من رغبة العيش. وما دام موتك مؤجلاً، فثمة فكرة واحدة تقض

مضجعك: كيف تموت بكرامة بعد أن عشت بائساً، أعمى، وعارياً؟

انتبه إلى أن أصابعه توجعني، فسحب يديه.

ـ لا أحد ينضم إلى كتائبنا من أجل المتعة يا دكتور. كل الشبان الذين شاهدتهم، بعضهم بالمقالع وبعضهم الآخر بالراجمات، يكرهون الحرب كرهاً أعمى لأن رصاص العدو يحصد كل يوم واحداً منهم في شرخ شبابه. هم بدورهم يريدون أن يتمتعوا بحياة لائقة، وأن يصبحوا جرّاحين ومطربين مشهورين وممثلين معروفين، وأن يقودوا سيارات فارهة، ويقضموا القمر كل ليلة. المشكلة أنهم يمنعونهم من تحقيق أحلامهم يا دكتور. يسعون لاحتجازهم في معازل، إلى أن يتماهوا معها كلياً. ولذلك، يفضلون الموت. عندما تُحبطُ الأحلام، يصبح الموت الخلاص الأخير... لقد أدركت سهام ذلك يا دكتور، وعليك أن تحترم خيارها، وتدعها ترقد بسلام.

أضاف قبل أن ينصرف:

ـ في جنون البشر موقفان متطرفان فقط يا دكتور: اللحظة التي يدرك فيها المرء عجزه، واللحظة التي يدرك فيها ضعف الآخرين، فإما أن يتبنى جنونه يا دكتور، أو أن يخضع له.

وعليه، دار على عقبيه، وانصرف، يتبعه أعوانه.

بقيت واقفاً وسط زنزانتي، قبالة الباب الكبير المُشرع الذي يطل على فناء يغمره النور. وصل ارتداد أشعة الشمس إلى دماغي. سمعت سيارات تنطلق، ثم خيَّم الصمت. أظن أنني في حلم، ولا أجرؤ أن أقرص نفسي لأتأكد من أنني في علم. هل هذه محاكاة أخرى؟

ارتسمت هامةٌ في فتحة الباب. عرفتها على الفور؛ ربعةً إلى قصر، منتفخة، مترهلة المنكبين، قصيرة الساقين اللتين تقوستا قليلاً ـ إنه عادل. لا أدري لماذا زعزعني نشيجٌ من رأسي إلى أخمص قدمي حالما رأيته يوافيني في قلب عتمتي.

ارتفع صوته المتهدج: ـ عَمُّو؟

اقترب مني، بخطى صغيرة، كما لو أنه يغامر بالدخول إلى وكر دب.

ـ عمُّو؟ أنا عادل... قيل لي إنك تبحث عني. وها قد أتيت.

ـ استغرقت وقتاً طويلاً.

ـ لم أكن في جنين. أمرني زكريا البارحة مساء فقط بالعودة. وصلت منذ أقل من ساعة. كنت أجهل أن الأمر يتعلق بك. ماذا يجري يا عمُّو؟

ـ لا تناديني عمُّو. كم تبدلت الأحوال منذ كنت أستقبلك في بيتي، وأعاملك مثل إبني.

نكّس رأسه قائلاً: ـ فهمت.

ـ ماذا تستطيع أن تفهم، أنت الذي لم تبلغ الخامسة والعشرين بعد؟ أنظر ماذا حلَّ بي بسببك.

ـ لا ذنب لي. وليس ذنب أحد. لم أشأ أن تذهب وتفجر نفسها، ولكنها كانت مصممة. حتى الإمام مروان لم يستطع أن يثنيها عن عزمها. قالت إنها فلسطينية مئة في المئة، وإنها لا تفهم لماذا تدع الآخرين يفعلون ما يحتم عليها الواجب أن تقوم به. أقسم لك أنها لم تكن تريد أن تسمع رأياً مغايراً. حاولنا أن نقنعها بأنها مفيدة لنا حية أكثر منها ميتة. كانت تساعدنا كثيراً في تل أبيب. نتنكر بزي سمكريين أو كهربائيين، ونحضر معداتنا، في شاحنات التصليح لئلا نثير الشكوك. كانت سهام تضع حسابها المصرفي بتصرفنا؛ كنا نودع فيه أموال القضية. كانت مُحرِّك فرعنا في تل أبيب...

ـ والناصرة...

قال بدون أيما ارتباك: ـ أجل، والناصرة أيضاً.

ـ وأين كنتم تعقدون اجتماعاتكم في الناصرة؟

ـ لم نكن نعقد اجتماعات في الناصرة. كنت أوافيها إلى هناك لجمع التبرعات. وعندما ندور على كل المتبرعين، تتولى سهام نقل المبلغ إلى تل أبيب.

ـ أهذا كل شيء؟

ـ هذا كل شيء.

ـ حقاً؟

ـ ماذا تعني؟...

ـ ما كانت طبيعة علاقتكما؟

ـ نضالية...

ـ فقط نضالية... بحجة القضية، كم تكثر المبررات.

حكَّ عادل أعلى رأسه. يستحيل أن يعرف المرء ما إذا كان في حيرة أم في ضيق شديد. النور خلفه يخفي عني تعبير وجهه.

قلت له: ـ عباس ليس من هذا الرأي.

ـ من يكون عباس؟

ـ خال سهام، ذاك الذي كان يريد تهشيم جمجمتك بالمعول في كفركنّا.

ـ عرفته! المعتوه.

ـ بل هو عاقل جداً، ويدري ماذا يفعل وماذا يقول... لمحكما تتجولان في الناصرة.

ـ وما العيب في ذلك؟

ـ يقول إن ثمة إشارات لا تخطئ.

في هذه اللحظة بالذات، كنت لا أعبأ بالحرب، والقضايا النبيلة، والسماء والأرض، والشهداء ومآثرهم. أعتبر أن عدم انهياري بمثابة أعجوبة. قلبي ينتفض كالمجنون في ضلوعي؛ أحشائي تعوم في عصارة تحلُّلها اللاذعة. أقوالي تسبق هواجسي، تنفر من أعماق كياني كالشرر الحارق. أخشى كل كلمة تفلت مني، أخشى أن تعود إلي مثل الحدوة الارتدادية، محمَّلة

بشيء قد يقضي عليّ فوراً. ولكن الحاجة الملحة ليطمئن قلبي أقوى. يتراءى لي أنني ألعب الروليت الروسية، وأنني لا آبه لمصيري بما أن لحظة الحقيقة ستفصل بيننا نهائياً. لا أبالي بمعرفة اللحظة التي انخرطت فيها سهام في النضال الانتحاري، أو إذا ما أخطأتُ بحقها، وأسهمتُ بطريقة أو بأخرى في هلاكها. لقد أصبح كل ذلك في مرتبة ثانوية. ما أريد أن أعرفه بالدرجة الأولى، ما يهمني أكثر من أي شيء آخر في العالم، هو ما إذا كانت سهام تخونني.

استوعب عادل تلميحاتي أخيراً، واستنكرها.

غص بالكلام: ـ ماذا تقصد؟...لا، غير معقول. أين نحن، هنا؟... هل تلمِّح أن... لا أصدق! كيف تجرؤ؟

ـ لقد أخفت عني ما كانت تخطط له.

ـ ليس الشيء عينه.

ـ بل الشيء عينه، فحين يكذب المرء، يستطيع أن يخون.

ـ لم تكذب عليك. لا أسمح لك...

ـ أنت، تجرؤ أن تسمح لي...

زعق مثل نابضٍ كان مضغوطاً: ـ أجل، لا أسمح لك. لن أسمح لك بتلطيخ ذكراها. كانت سهام امرأة تقية، لا يمكن أن تخون زوجها وإلا أغضبت ربها.

هذا هراء. حين يختار المرء أن يهب حياته لله، فهذا يعني أنه قد عزف عن الأمور الدنيوية، كل الأمور الدنيوية بلا استثناء. كانت سهام امرأة فاضلة، كانت ملاكاً طاهراً. لكانت اللعنة حلَّت عليّ لو أطلتُ فيها النظر.

وأنا أصدقه يا إلهي! أصدقه. ينقذني كلامه من شكوكي، وعذاباتي، ومن نفسي؛ أشربه حتى الثمالة، وأتشبع به بالمطلق. في سمائي، تتبدد خيوط من الغمام الأسود بسرعة جنونية، مفسحةً المجال للانقشاع. يتسلل إلى داخلي دفق من الهواء، يطرد العفونة التي كانت تنتن أعماقي، يضفي على دمي لوناً أقل تقززاً، أكثر ضياءً. يا إلهي! أنا سالم؛ الآن، وقد أرجعت خلاص البشرية إلى شخصي المتناهي الصغر، الآن وقد تحققت من أن شرفي مصان، تناسيت حزني وغضبي، وأكاد أرغب بغفران كل شيء. تغرورق عيناي بالدموع، ولكني لا أدعها تفسد هذه المصالحة الفرضية مع نفسي، هذا اللقاء الحميم الذي لا يحتفل به غيري في مكان ما من جسدي وذهني. ولكن هذا يفوق قدرة رجل جريح على التحمل؛ فخارت ربلتاي، وتهاويت على فراشي الحقير، محتضناً رأسي بين يدي.

لست مستعداً للخروج إلى الفناء. لم يحن بعد

الأوان. أفضل البقاء قليلاً في زنزانتي، ريثما أستجمع ذاتي، وأحدد موقعي في هذه السلسلة من الاعترافات التي تتطاير في كل الاتجاهات. يجلس عادل قربي. يتردد ذراعه طويلاً قبل أن يلتف حول عنقي، في حركة تقزّزني، تزعزع كياني، ولكني لا أتنكر لها. فهل هو ندم أم شفقة؟ في كلتا الحالتين، ليس هذا ما أنتظره. هل يجب أن أنتظر حقاً شيئاً ما من رجل مثل عادل؟ لا أظن. لدى كل منا مفهوم مختلف جذرياً عما يجب أن نتوقعه من الآخرين. يؤمن بأن الجنة تقع في نهاية حياة الإنسان؛ أما أنا فأؤمن بأنها بمتناول يدي. كانت سهام بالنسبة إليه ملاكاً. كانت بالنسبة إلي زوجتي. الملائكة عنده خالدة؛ وهي عندي تموت جراء جراحنا...لا، بالكاد لدى الواحد منا ما يقوله للآخر. الحظ حليفي لأنه يدرك ألمي. تنشر شهقاته هزاتها في أعماق كياني. تفلت يدي مني، بدون أن أنتبه لها، وبدون أن أستطيع تبريرها، وتدنو لمواساة يده... ثم، تحدثنا، وتحدثنا، وتحدثنا لكأننا نسعى إلى فك السحر عن كل خلية في جسدنا. لم يكن عادل يأتي إلى تل أبيب من أجل تجارته، بل لمد خلية الانتفاضة المحلية بالمال. كان يستفيد من شهرتي وضيافتي لئلا يثير الشبهات. بالصدفة، اكتشفت سهام حقيبة مخفية تحت

السرير. وقعت منها وثائق ومسدس. أدرك عادل على الفور، لدى عودته، أن مخبأه قد اكتشف. خطر له أن يرسل إنذاراً، ويتوارى عن الأنظار، لا بل أن يقتلها لئلا يترك شيئاً للصدفة. كان يخطط "الموت العرضي" لسهام، حين دخلت إلى غرفته، وهي تحمل رزمة من الشيكلات. قالت له: " من أجل القضية". ظل عادل أشهراً قبل أن يضع ثقته فيها. كانت سهام تريد الانضمام إليه في المقاومة. أخضعتها الخلية للامتحان، فكانت مقنعة. لماذا لم تخبرني؟ ماذا تقول لك؟ لم يكن بوسعها أن تقول لك شيئاً، لم يكن يحق لها ذلك. وكانت لا تشاء كذلك أن يعترض أحدهم سبيلها. ومن ثم، فهذه التزامات يتكتم المرء حولها. لا يبوح علناً بقسم من المفترض أن يبقى في سرية تامة. يظن أبي وأمي أنني أعمل في التجارة. ينتظر كلاهما أن أجني ثروة للانتقام من بؤسهما. يجهلان كل شيء عن أنشطتي النضالية، مع أنهم مناضلون بدورهم. لن يترددوا لحظة في التضحية بحياتهم في سبيل فلسطين... إنما ليس بحياة فلذة كبدهم. هذا ليس طبيعياً. الأبناء هم استمرارية أهلهم، حصتهم الصغيرة من الخلود...لن يعرفوا السلوان لو علموا باستشهادي. أقدر كل التقدير الألم الفظيع الذي سأسببه لهما، ولكنه سيكون ألماً من

بين آلام أخرى كثيرة تضاف إلى آلامهم. مع الوقت، سوف تنقضي فترة الحداد، ويغفرون لي. ليست التضحية فقط من واجب الآخرين. إذا قبلنا أن يموت أبناء الآخرين من أجل أبنائنا، فعلينا القبول بأن يموت أبناؤنا من أجل أبناء الآخرين، وإلا لن تكون المسألة نزيهة. وهذا ما لا تستوعبه يا عمو. سهام امرأة قبل أن تكون زوجتك. لقد ماتت من أجل الآخرين...لماذا هي ؟...ولم لا؟ لماذا تريد لسهام أن تبقى خارج تاريخ شعبها؟ ما الذي كانت تتمتع به أكثر أو أقل من النساء اللواتي استشهدن قبلها؟ هذا هو ثمن الحرية... كانت كذلك، كانت سهام حرة. تتمتع بكل شيء. لم أحرمها شيئاً .ليست الحرية جواز سفر يُسلم في مركز الشرطة يا عمُّو. فالسفر أينما شئنا ليس الحرية، والأكل حتى الشبع ليس النجاح. الحرية اقتناع عميق؛ إنها أم كل أشكال اليقين. وسهام كانت غير متأكدة جداً من أنها تستحق فرصتها. كنتما تعيشان تحت سقف واحد، وتتمتعان بالامتيازات نفسها، ولكنكما لا تنظران في الاتجاه نفسه. كانت سهام أقرب إلى شعبها من الفكرة التي تكونها عنها. ربما كانت سعيدة، إنما ليس بما فيه الكفاية لتشبهك. كانت لا تلومك لأنك تنخدع بأكاليل الغار التي يغدقونها عليك، ولكنها لم تشأ أن تراك في

هذا النعيم، لأنها كانت ترى فيه جانباً غير لائق، ونبرة وقحة، كما لو أنك تقيم حفل شواء على أرض محروقة. كنتَ لا ترى سوى الشواء، أما هي فكانت ترى الباقي، التعاسة التي تنغص أفراحك حولها. لم يكن الذنب ذنبك؛ إلا أنها ما عادت تطيق عمى الألوان الذي كنت مصاباً به...

لم ألاحظ شيئاً يا عادل. كانت تبدو لي في منتهى السعادة...

أنت الذي كنت تتمنى بكل جوارحك أن تسعدها بحيث رفضت أن تعتبر ما بوسعه أن يعكر صفو سعادتها. لم ترغب سهام بهذه السعادة. كانت تعيشها مثل تبكيت ضمير، والأسلوب الوحيد للتنصل منه كان الانضمام إلى صفوف القضية. إنه المسار الطبيعي لمن تنتمي إلى شعب يعاني. لا سعادة بلا كرامة، ولا حلم ممكن بدون حرية... وكونها امرأة لا يخرج المناضلة من السباق، ولا يعفيها. لقد اخترع الرجل الحرب؛ لقد اخترعت المرأة المقاومة. كانت سهام إبنة شعب مقاوم، وموقعها يخولها معرفة ما تفعل... كانت تريد أن تستحق العيش يا عمُّو، أن تستحق انعكاسها في المرآة، أن تستحق الضحك عالياً، لا أن تنتهز فرصها فقط. أنا بدوري أستطيع خوض غمار التجارة والاغتناء أسرع من أوناسيس. ولكن كيف أقبل البقاء أعمى

البصر لأكون سعيداً، كيف أولي ظهري لذاتي بدون مواجهة الغائي؟ ليس بوسعنا أن نسقي بيدٍ الزهرة التي نقطفها بيد أخرى؛ لا يمكن إعادة الرونق إلى الوردة التي نضعها في مزهرية، نشوه طبيعتها؛ نظن أننا نُجّمِل صالوننا، وفي الواقع، لا نفعل سوى تشويه حديقتنا...

أصطدم بنقاوة منطقه مثلما تصطدم ذبابة بشفافية واجهة زجاجية؛ أتبين رسالته بوضوح، إنما يستحيل عليّ استيعابها. أحاول أن أفهم فعل سهام، ولا أجد له لا إدراكاً ولا عذراً. كلما أمعنت فيه التفكير، يقل تقبلي له. كيف بلغت بها الأمور هذا المبلغ. لقد قال لي نافيد: " قد يحصل ذلك لأي كان. فإما أن يقع على رأسك كطوبة، أو يعشش في داخلك كالدودة الوحيدة. بعدها، لن تنظر إلى العالم النظرة نفسها". لا بد أن سهام كانت تحمل حقدها في أعماقها على الدوام، حتى قبل أن تتعرف إلي بكثير. ترعرعت قرب المضطهدين، يتيمة وعربية في عالم لا يغفر لا لهذه ولا لتلك. اضطرت لطأطأة الرأس جداً، بالضرورة، مثلي، إلا أنها لم تستطع النهوض أبداً. إن عبء بعض التنازلات أثقل من وطأة السنين. لئن انتهى بها المطاف إلى أن تتحزم بالمتفجرات، وتمضي إلى حتفها بعزم لا يلين، فلأنها كانت تحمل في أعماقها جرحاً تخجل من البوح به لي لشدة بشاعته وفظاعته؛ والطريقة الوحيدة للتخلص منه كانت أن تدمر نفسها معه، مثل ممسوسٍ

يرمي بنفسه من أعلى هضبة للانتصار على هشاشته وشيطانه. لا ريب أنها كانت تُخفي بصورة تثير للإعجاب ندوبها ـ لعلها حاولت تجميلها، بلا فائدة؛ إذ تكفي صحوة صغيرة لإيقاظ الوحش الذي يرقد في أعماقها. منذ أية لحظة حصلت هذه الصحوة؟ لم يسألها عادل. كانت سهام نفسها لا تدري على الأرجح. اعتداء إضافي على شاشة التلفاز، انتهاك في الشارع، إهانة عابرة؛ أبسط الأمور تؤدي إلى عواقب وخيمة حين يحمل المرء الحقد في أعماقه... يتكلم عادل، ويتكلم، ويدخن بشراهة... لاحظت أنني لم أعد أصغي إليه. لم أعد أريد أن أسمع شيئاً. العالم الذي يسرده على مسمعي لا يلائمني. الموت فيه غاية بحد ذاتها. وهذه كارثة بالنسبة إلى طبيب. لقد أرجعت من الموت الكثير من المرضى حتى كدتُ أظن نفسي إلهاً. عندما كان أحد المرضى ينسلُّ من بين يدي في غرفة العمليات، أعود ذلك الفاني الضعيف والحزين الذي لطالما رفضت أن أكونه. لا أتماهى مع ما يقتل؛ فدعوتي إلى جانب ما ينقذ. أنا جرّاح. وعادل يطلب مني أن أتقبل تحول الموت إلى طموح، إلى أغلى أمنية، إلى فعل مشروع؛ يطلب مني أن أتقبل فعل زوجتي، أي بالضبط ما تحظره مهنة الطب حتى في أكثر الحالات يأساً، حتى في حالة الموت الرحيم. هذا ما أسعى وراءه. لا أريد أن أكون فخوراً بترمُّلي، لا

أريد العدول عن السعادة التي جعلت مني زوجاً وعشيقاً، سيداً وعبداً، لا أريد أن أدفن الحلم الذي جعلني أعيش كما لن أعيش أبداً بعد الآن.

دفعتُ بالكيس المرميّ عند قدمي، ونهضت:

ـ هلم بنا يا عادل.

بوغت قليلاً لأنني قاطعته، ولكنه نهض بدوره.

ـ أنت محق يا عمُّو، فهذا ليس المكان المناسب للتحدث في هذه الأمور.

ـ لا أريد أن أتحدث عنها أبداً، لا هنا ولا في مكان آخر.

وافق على كلامي.

ـ يعلم عمك عمرو أنك في جنين. لقد طلب أن يراك. إذا كنت مشغولاً، فلا بأس. سأبرِّر له.

ـ ليس هناك ما يستدعي التبرير يا عادل. لم أتخل عن أهلي أبداً.

ـ لم أقصد ذلك.

ـ لقد فكرت بصوت مسموع فقط.

تحاشى نظرتي.

ـ ألا تريد أن تأكل لقمة أولاً، أن تستحم؟

ـ لا. لا أريد شيئاً من أصدقائك. لا يروق لي لا طبخهم ولا نظافتهم.

ثم أضفتُ، مبعداً الكيس عن طريقي: ـ كما لا

أريد ثيابهم. يجب أن أعود إلى فندقي لاسترجاع أمتعتي، اللهم إلا إذا وُزِّعتْ على المعوزين.

اعتدى النور في الفناء الخارجي على عيني، ولكن الشمس أراحتني. انصرف المسلحون. وحده شاب بشوش كان يقف قرب سيارة غبراء.

قال عادل: ـ هذا وسام، حفيد عمرو.

عانقني الشاب، وضمني بشدة إلى صدره. توارى خلف ابتسامته، فيما كنت أبتعد لأنعم فيه النظر، وقد ارتبك بسبب الدموع التي اغرورقت في عينيه. وسام! عرفته زاعقاً في قماطه، بالكاد أكبر من قبضة يد، وها هو أطول مني بقامة، وقد طرَّ شاربه، وأصبح على قاب قوسين من اللحد في سنٍّ كل الانحرافات فيها مؤثرة إلا تلك التي اختارها. أشعر بقلبي ينفطر وأنا ألمح المسدس المتواري تحت حزامه.

أمره عادل: ـ تصطحبه أولاً إلى فندقه. لديه أمتعة عليه أن يأخذها. وإذا نسي عامل الاستقبال أين وضعها، فأنعشْ ذاكرته.

دهش وسام: ـ ألن ترافقنا؟

ـ لا.

ـ كنت ستفعل منذ قليل.

ـ بدلتُ رأيي.

ـ كما تشاء، أنت أدرى. إلى اللقاء، ربما غداً.

ـ من يدري؟

توقعت أن يتقدم ويعانقني. ولكن عادل لم يبرح مكانه، وقد أحنى رقبته ووضع يديه على خصره، ملاعباً حصوةً بطرف حذائه.

أضاف وسام: ـ إلى اللقاء إذاً.

شخصَ عادل نحوي بعينين ممتلئتين قتامةً. يا لتلك النظرة!

إنها النظرة نفسها التي رمقتني بها سهام صباح ذلك اليوم الذي أقليتها فيه إلى المحطة البرية.

ـ أنا آسف حقاً يا عمُّو.

ـ وأنا كذلك.

لا يجرؤ أن يقترب مني، ومن جهتي، لا أساعده، ولا أتقدم نحوه. لا أريده أن يتخيل بعض الأمور؛ أحرص أن يعلم بأن جرحي لا شفاء منه. فتح وسام لي باب السيارة، وانتظر أن أجلس، ثم هرع وراء المقود. رسمت السيارة دائرة في الباحة الصغيرة، وكادت تلامس عادل المستغرق في خواطره، وسلكت الشارع. أرغب برؤية تلك النظرة ثانية، بمعاينتها؛ لم ألتفت. بعد مسافة، تشعبت الطريق في أزقة كثيرة. لحقت بي ضوضاء المدينة، أسكرني هيجان الجموع؛ قلبت رأسي على مسند المقعد، وحاولت ألا أفكر بشيء.

في الفندق، سلموني أمتعتي وسمحوا لي بالاستحمام. حلقت ذقني، وبدلت ثيابي، ثم طلبت إلى

وسام أن يصطحبني لزيارة موطن أجدادي. غادرنا جنين بدون أي حادث. توقفت المعارك منذ بعض الوقت؛ وانسحب قسمٌ لا بأس به من الجيش الإسرائيلي. تجوب فرق تلفزيونية عديدة الأنقاض بحثاً عن فظاعة تستغل مردوديتها. تجتاز السيارة حقولاً على مدِّ النظر قبل أن تصل إلى الطريق الرثة التي تقود إلى بساتين الجد. أُسرح البصر في السهول مثل طفل يركض وراء أحلامه، ولكني لا أستطيع إلا أن أفكر بنظرة عادل، بالظلال التي كانت تعتمها. لقد خلف عندي انطباعاً غريباً، مثل إحساس منكَّس. أعود فأراه في الفناء ذاك الملتهب بسبب القيظ. ليس عادل الذي عرفته، الظريف والكريم؛ كان شخصاً آخر، شخصاً تراجيدياً، يدفعه طموح ذئب لا يفكر أبعد من وجبته القادمة، وفريسته القادمة، ومجزرته القادمة التي ما وراءها العدم الأبيض، البكر، حيث يبقى كل شيء معلقاً أو مرشحاً للتخمين. دخن سيجارته كأنها الأخيرة، تحدث عن نفسه كأنه لم يعد حياً يرزق، وحمل في نظرته عتمة غرف الموت. من البديهي أن عادل ليس متعلقاً بعد اليوم بما هو حيّ. ولى ظهره إلى غير رجعة للغدوات التي يرفض أن يكتب له البقاء بعدها، كما لو أنه يخشى أن تُخيب أمله. اختار لنفسه الوضع الذي يرى أنه أفضل ما يتلاءم مع صورته، وضع الشهيد. هكذا شاء أن ينهي حياته، أن يلتحم مع القضية التي يدافع

عنها. تحمل شواهد القبور إسمه أصلاً، وتتخلل ذاكرة أهله مآثره الحربية. لا شيء قد يُشَنِّف آذانه أكثر من أزيز رشاش؛ لا شيء قد يتوِّجه على عرشٍ أعلى من وجوده في مرمى قناص منفرد. ولئن كان لا يشعر بتأنيب الضمير، ولا يلوم نفسه إطلاقاً على تلقين سهام التضحية الأسمى، ولئن أصبحت الحرب فرصته الوحيدة لاحترام الذات، فلأنه مات، ولم يعد ينتظر سوى أن يوارى في الثرى ويرقد بسلام.

أظن أنني بلغت وجهتي. كان المسار رهيباً، إنما لا يتراءى لي أنني حققتُ شيئاً ما، أو توصلتُ إلى جوابٍ خلاصي. وفي الوقت نفسه، أشعر بالتحرر؛ في سرِّي أقول إنني بلغت خاتمة آلامي، وإن لا شيء بوسعه أن يأخذني على حين غرة انطلاقاً من ذلك. هذا السعيِ الأليم وراء الحقيقة رحلتي التلقينية الخاصة بي. هل سأعيد النظر بمجرى الأمور من الآن فصاعداً، وأراجعه، وأعيد تحديد موقعي بالنسبة إليه؟ بالتأكيد، إنما لن يخالجني الإحساس بأنني أُسهم في أمر هام. فالحقيقة الوحيدة التي تكتسب قيمةً عندي هي تلك التي ستساعدني يوماً على تسلم زمام أموري مجدداً، واسترجاع مرضاي؛ لأن المعركة الوحيدة التي أؤمن بها، والتي تستحق حقاً أن ننزف من أجلها، هي معركة الجرَّاح الذي أكون، والتي تقوم على إعادة إبداع الحياة حيث اختار الموت أن يتدخل.

16

عمرو، عميد العشيرة، وآخر أنفاس ملحمةٍ هدهدت سهراتنا الغابرة... عمرو، عمي الأكبر، ذلك الصبي الذي اجتاز القرن مثل نجم مذنب، ولم تتحقق كل أمنياته أبداً، لشدة سرعته... ها هو في فناء بيت جدي، يبتسم لي. إنه مسرور لرؤيتي، يختلج وجهه الذي تحفر فيه أخاديد حادة فرحة يخالها المرء، لشدة ما هي مؤثرة، فرحة صبي التقى أبيه بعد غيبة طويلة. لقد حجَّ مراراً، وعرف المجد والتكريم، وزار بلداناً كثيرة، وامتطى خيولاً عربية أصيلة أسطورية اجتاز بها بقاعاً سحرية. قاتل في جيوش لورانس العرب "ذلك الإبليس الشاحب القادم من بلاد الضباب ليستنهض القبائل ضد العثمانيين ويزرع الفتنة بين المسلمين" ـ، وخدم في الحرس الملكي لإبن سعود قبل وقوعه في غرام محظية وفراره معها خارج شبه الجزيرة العربية. ثم انفرط زواجهما بسبب حياة التشرد والانحطاط، فتنقل،

بعد أن هجرته معشوقته، من إمارة إلى سلطنة، سعياً وراء فرصة يثمرها، وتعاطى اللصوصية هنا وهناك، ثم تحول إلى مهرب أسلحة في صنعاء، وتاجر سجاد في الإسكندرية قبل إصابته بجروح بليغة، وهو يذود عن القدس عام 1947. عرفته يعرج بسبب رصاصة استقرت في ركبته، ثم مقوس الظهر على عصاه إثر نوبة قلبية أصابته يوم شاهد الجرافات الإسرائيلية تدمر بساتين الجد لصالح مستوطنة يهودية. واليوم، ألتقيه شديد الوهن، ممتقع السحنة، ذابل النظرة، بالكاد حزمة من العظام منسية على كرسي متحرك.

لثمتُ يده، وقرفصتُ عند قدميه. عبثت أصابعه المعروقة بشعري، فيما راح يجهد ليستعيد أنفاسه، ويقول لي كم تغمره الفرحة بعودتي إلى كنف الأسرة. ارتاح رأسي على صدره، مثلما كنت ألجأ إليه، طفلاً، فيما مضى، وأبكي معروفاً لم أحصل عليه.

تهدَّج صوته: ـ يا دكتوري، يا دكتوري...

كانت فاتن، حفيدته البالغة من العمر خمسة وثلاثين عاماً، تقف بجانبه. لما كنت تعرفتُ إليها لو صادفتها في الشارع. كم انقضى وقت طويل. تركتها طفلة برية تتشاجر دائماً مع أبناء عمومها قبل أن تلوذ بالفرار كأن الشيطان يتعقبها: كانت الأخبار التي تصلني متفرقةً إلى تل أبيب تفيد بأنها منحوسة. يلقبها بعض

ألسنة السوء بالأرملة العذراء. لم يحالف الحظ فاتن على الإطلاق. توفي زوجها الأول في موكب العرس الذي انفرط إثر انثقاب مشؤوم لعجلة السيارة؛ وقتل خطيبها الثاني في اشتباك مع دورية اسرائيلية قبل ليلة الدخلة بيومين. على الفور، اعتبرتها النسوة السليطات منحوسة، ولم يعد أي عريس يطرق بابها. إنها امرأة قوية البنية وخشنة الطباع، عركتها الأعمال المنزلية وتقشف الحياة في الكفور المعزولة. كان عناقها لي قوياً، وقبلتها مدوية.

خففني وسام من حقيبتي، ثم اصطحبني إلى غرفتي حين قبل العجوز أن يحرر يدي. غفوت قبل أن يلامس رأسي الوسادة. قرابة المساء، رجع ليوقظني. نصب هو وفاتن المائدة تحت العريشة. لم يبخلوا بوسيلة لإكرام وفادتي. كان العجوز يجلس على رأس المائدة، متكوِّماً في كرسيه المتحرك، وعيناه لا تفارقاني لحظة واحدة؛ كان مبتهجاً. تعشينا نحن الأربعة في الهواء الطلق. سرد وسام على مسمعنا نوادر الجبهة حتى ساعة متأخرة من الليل. كان عمرو يضحك بطرف عينه، وقد تهدَّل ذقنه على حلقه. وسام شاب خفيف الظل؛ أكاد لا أصدق أن شاباً خجولاً مثله يسيل الظرف من أعطافه.

دخلت إلى غرفتي منتشياً بحكاياته.

في الصباح، ساعة يُشمّر الليل بطانته على مداعبات

النهار الأولى، كنت قد استيقظت. غفوت مثل طفل. ربما راودتني أحلام مبهجة، ولكني لا أذكر أياً منها. أشعر بأنني غضٌّ ومتطهر. كانت فاتن قد أخرجت العجوز إلى صحن الدار؛ لمحته عبر النافذة، جليلاً على عرشه، شبيهاً بطوطم في نقاهة. إنه ينتظر شروق الشمس. انتهت فاتن من إعداد الخبز. تقدم لي الفطور في البهو؛ قهوة بالحليب، زيتون وبيض مسلوق، فاكهة الموسم، وشطائر مدهونة بالزبدة ومغمسة بالعسل. أكلت بمفردي، فوسام لم يستيقظ بعد. أطلت فاتن بين الحين والآخر لتتحقق من أن لا شيء ينقصني. بعد الفطور، وافيتُ عمرو في صحن الدار. احتضن يدي بشدة حين انحنيت أقبل جبينه. ذهبت فاتن إلى القن لإطعام الصيصان. كلما مرت أمامي، ابتسمت لي الابتسامة نفسها. تتشبث على الرغم من قساوة المزرعة وظلم القدر. نظرتها قاحلة، حركاتها عديمة الرشاقة، ولكن ابتسامتها تحتفظ بحرصٍ على حنانٍ ملؤه الخفر.

قلت لعمرو: ـ سأذهب في نزهة. من يدري، لعلني أعثر على الزر النحاسي الذي ضاع مني في الجوار منذ أكثر من أربعين عاماً.

رجح عمرو رأسه، ناسياً أن يفرج عن يدي. تلمع عيناه الطاعنتان اللتان نخرتهما الرياح الرملية وصروف الدهر مثل حجرين كريمين تشوبهما الشوائب.

اختصرت الطريق عبر الجنينة، وسلكت بقية بستان شحيح الأشجار، باحثاً عن دروب طفولتي. اختفت دروب الأمس، ولكن الماعز شقَّ غيرها، أقل جمالاً إنما تتمتع بالقدر نفسه من العبث. لمحت التلة التي كنت أنطلق منها للهجوم على الصمت والسكينة. تداعى الكوخ الذي جعل أبي منه مرسماً؛ ولكن أحد جدرانه أبى أن يستسلم، ولكن كل ما تبقى أصبح أطلالاً جندلتها السيول. بلغت السور الصغير الذي كنا نرتب خلفه الكمائن ضد جيوش وهمية مع رهطٍ من الأطفال. انهار قسم من جهة، معرِّضاً أحشاءه لغزو الأعشاب الضارة. في هذا الموقع بالذات، دفنت أمي جروي الذي ولد ميتاً. لشدة ما حزنت عليه، شاركتني البكاء. أمي... نفس رحيمة تتلاشى في عرض الذكريات؛ حب مفقود إلى الأبد في لغط السنين. جلست على حصوة كبيرة وتذكرت. لم أكن إبن سلطان، ولكنني أرى أميراً صغيراً بسط ذراعيه مثل جناحي عصفور، محلقاً فوق بؤس الكون مثل الصلاة في ساحات المعارك، مثل النشيد الصامت للذين عيل صبرهم.

تصل الشمس الحين إلى خواطري. نهضت وارتقيت التلة التي تسهر عليها بعض الأشجار الوارفة الأغصان. تسلقت منحدر ربوة حتى بلغت قمتها؛ كانت عرزالي

في زمن الحروب السعيدة. فيما مضى، حين كنت أقف هنا، يمتد بصري بعيداً فأكاد ألمح نهاية بقليل من التركيز. اليوم، يتمرد جدار شنيع، انبثق لا أدري من أين، مشروع لئيم، تمرداً غير لائق على سمائي الماضية، ولشدة فجوره، تفضل الكلاب أن تبول على الأشواك بدلاً من أسفله.

سمعت صوتاً خلفي يقول لي: ـ شارون يقرأ التوراة بالمقلوب.

كان كهلاً ملفوفاً بثوب باخت ألوانه ولكنه نظيف. وقف خلفي، يقيس الجدار الذي يخفي الأفق، متكئاً على عصا، حائر الملامح، وأبيض الشعر، لكأنه موسى أمام العجل الذهبي.

بادرني بدون أن يعيرني انتباهاً: ـ يتوه اليهودي لأنه لا يطيق الحيطان. ليست صدفة أنه شيد حائطاً ليبكي عليه. شارون يقرأ التوراة بالمقلوب. يظن أنه يحمي إسرائيل من أعدائها، ولكنه يحتجزها في معزل آخر، أقل هولاً بالتأكيد، إنما يتسم بالقدر نفسه من الظلم...

التفت صوبي قائلاً:

ـ عذراً على تطفلي. لمحتك قادماً، وظننت أنني لمحت صديقاً قديماً لم يعد موضع اهتمام منذ عشر سنوات، وأفتقده. لديك هامته، ومشيته، وشيء من

ملامحه، وأنا أنعم فيك النظر عن كثب. ألست أمين، إبن رضوان جعفري الفنان؟

ـ هذا صحيح.

ـ كنت متأكداً. لكم تشبه أباك. لوهلةٍ، ظننت أنك شبحه.

مد لي يداً معروقةً:

ـ إسمي شلومي هيرش، ولكن العرب يدعونني (زيف) الناسك، بسبب أحد الزاهدين القدامى. أقطن في الكوخ، هناك، خلف أشجار البرتقال. في الماضي، كنت أعمل سمساراً عند كبير أسرتكم. منذ أن خسر أراضيه، تحولت إلى دجال. لا يخفى على أحد أنني لا أتمتع بقدرات خارقة أكثر من الدجاجات التي أضحي بها على مذبح الأحزان الضائعة، إنما لا أحد يعبأ بذلك. ما زال الناس يقصدونني، ويطلبون أن أجترح لهم معجزات لن أحققها. أعدهم بأيام فضلى لقاء بضعة شيكلات بائسة؛ وبما أن هذا لا يكفي لإسعادي، فزبائني لا ينقمون عليّ حين لا تصيب تنبؤاتي.

صافحته.

ـ هل أزعجك؟

أكدت له: ـ ليس بعد الآن.

ـ عظيم. قلما يتنزه الناس في الجوار هذه الأيام

بسبب الجدار. إنه شنيع حقاً هذا الجدار، أليس كذلك؟ كيف يمكن تشييد مثل هذه الفظائع؟

ـ الفظائع ليست مرتبطة بالبنية التحتية فقط.

ـ هذا صحيح، إنما كان بوسعهم في هذه الحالة أن يجدوا شيئاً أفضل. جدار؟ ماذا يعني الجدار؟ لقد ولد اليهودي حراً مثل الريح، منيعاً مثل صحراء يهودا. إذا كان قد نسي رسم حدود وطنه بحيث كاد هذا الوطن أن يصادر، فلأنه لطالما ظن أن أرض الميعاد هي أولاً تلك التي لا يعيق فيها أي سور بصره من الامتداد أبعد من صرخاته.

ـ وماذا يفعل بصرخات الآخرين؟

أحنى العجوز رأسه.

غرف بيده حفنة من التراب، وفتتها بين أصابعه.

ـ ما فائدتي من كثرة ذبائحكم، يقول الرب؟

قلت له: سفر أشعيا، 1، 11.

حرك العجوز حاجبيه، مبدياً إعجابه:

ـ عافاك!

فتلوتُ على مسمعه:

ـ كيف صارت المدينة الأمينة زانية؟

لقد كانت مملوءة عدلاً

وفيها كان مبيت البرّ

أما الآن فإنما فيها قتلة.

ـ يا شعبي، إن مرشديك يضلونك

وقد أفسدوا سبيل طرقك.
ـ فكان الشعب مثل وقود النار
لا يشفق واحد على أخيه
فيقطع عن اليمين ولا يزال جائعاً
ويلتهم عن الشمال ولا يشبع
يلتهم كل واحد لحم مساعده.

ـ ويكون، بعد استكمال السيد عمله كله في جبل صهيون وفي أورشليم، أني أعاقب ثمرة قلب ملك أشور المتكبر، وافتخار عينيه الطامحتين.

ـ وما على شارون إلا أن يحترس، آمين!

انفجرنا ضاحكين.

اعترف لي: ـ لقد أفحمتني. أين تعلمت هذه الآيات من سفر أشعيا؟

ـ كل يهودي من فلسطين هو عربي بعض الشيء، وما من عربي من عرب إسرائيل يستطيع الإدعاء أنه ليس يهودياً بعض الشيء.

ـ أوافقك الرأي تماماً. فلماذا كل هذا الحقد وأواصر القربى هي نفسها؟

ـ لأننا لم نفهم شيئاً من النبوءات وأبسط قواعد الحياة.

رجح رأسه موافقاً، وحزيناً.

سألني: ـ فماذا نفعل؟

ـ أولاً نفرج عن الله، بعد كل هذا الوقت الذي كان فيه رهينة تزمتنا وتعصبنا.

وصلت سيارة من المزرعة، مخلفة وراءها سحابة من الغبار.

نبهني العجوز: ـ لقد جاءت بالتأكيد لاصطحابك، فمن يأتون لمقابلتي يمتطون ظهور الحمير دائماً.

صافحته مودعاً، ونزلت منحدر الربوة باتجاه الطريق الصالحة للسيارات.

يعج بيت الجد بالناس. حتى الخالة نجاة حضرت؛ كانت تزور ابنتها في طوباس، وعادت حالما عرفت بعودتي إلى بيت الأسرة. لقد بلغت التسعين من العمر، ولكن عودها لم يلتوِ أبداً. ما زالت منتصبة على ساقيها، بنظرتها الثاقبة وحركاتها الدقيقة. إنها أمنا جميعاً، أصغر زوجات الجد سناً وأرملته الوحيدة. عندما كانت أمي تريد تأنيبي، كان يكفي أن أصرخ اسمها لأنجو بفعلتي... راحت تبكي، وهي تدفن رأسها في قميصي. ينتظر أنسباء آخرون، وأعمام، وأبناء وبنات عمومة، وقريبات بصبرٍ دورهم لتقبيلي. لا أحد منهم يلومني على رحيلي بعيداً، وبقائي طويلاً هناك. إنهم جميعاً سعداء باكتشافي، واسترجاعي للحظة عناق، يغفرون لي جميعاً تجاهلي لهم سنوات طويلة، وتفضيلي الأبنية المتلألئة على التلال الغبراء،

والجادات الرحبة على دروب الماعز، والبريق الزائف على بساطة الحياة. حين شاهدت كل هؤلاء الناس يعربون لي عن محبتهم، وليس لدي ما أتقاسمه معهم سوى ابتسامة، أدركت مدى الفقر الذي أصابني. اعتقدت أنني أقطع أواصري إذ أولي الظهر لهذه الأراضي المخربة والمكمَّمة. كنت لا أريد أن أشبه أهلي، وأخضع لبؤسهم، وأتغذى بصلابتهم. أذكر أنني كنت لا أكف أعدو وراء أبي الذي يعاند في تعقب حيوان القارن الخرافي، متذرعاً بلوحته، وشاهراً رمح ريشته، عبر بلد تثير الخرافات فيه الحزن. كلما قابله تاجر تحف فنية بالرفض، يمحونا نحن الإثنين. كان الأمر فظيعاً. لم يستسلم أبي، مقتنعاً بأنه سيجترح المعجزة في نهاية المطاف. كانت إخفاقاته تثير سخطي، ومثابرته تشد أزري. لقد تخليت عن بساتين جدي، وألعاب طفولتي، وحتى عن أمي لئلا أضطر للارتباط بإيماءة رأس سخيفة كانت السبيل الوحيد، كما يبدو لي، لتحويل مصيري إلى ملحمة بما أن كل الملاحم الأخرى تخرجني حكماً من السباق...

ذبح وسام ثلاثة خراف ليتحفنا بحفل شواء يليق بالأفراح والمناسبات. كان لقاؤنا مؤثراً؛ بالكاد تحملني ساقاي. تعود حقبة كاملة إلي عدواً، رائعة مثل مهرجان فرسان. قدموا لي أطفالاً مفزوعين، وأصهرةً جدداً، وأقارب عتيدين. توافد بعض الجيران، ومعارف قدامى،

وأصدقاء لوالدي، وأفاقون طاعنون. تواصل الاحتفال حتى ساعات الفجر الأولى.

في اليوم الرابع، استرجع بيت الجد سكينته. استعادت فاتن زمام الأمور. يمضي كل من الخالة نجاة والعم عمرو نهاراتهما في صحن الدار، يتأملان رقصة البعوض فوق الجنينة. استأذننا وسام للعودة إلى جنين. أمره اتصال هاتفي بالعودة. حزم أمتعته، وقبّل العجوز، وأخته فاتن. قبل أن يفارقنا، أخبرني كم حالفه الحظ لأنه تعرف إلي في \الموعد \المضروب .لم أفهم معنى \الموعد \المضروب؛ لم أطمئن حين رأيته يغادر، فثمة شيء في نظرته ذكّرني بسهام في المحطة البرية، وعادل المذهول في تلك الباحة المليئة بالحصى، بمدينة جنين.

لست نادماً على هذه الاستراحة بين أهلي. تعزيني حرارة ضيافتهم، ويشيع كرمهم في نفسي الطمأنينة. أمضي أيامي بين المزرعة، ورفقة العم والحاجة نجاة، والتلة التي التقيت فيها بزيف العجوز ونوادره عن سذاجة العامة.

زيف شخصية ساحرة، فيه لوثة جنون قليلاً ولكنه حكيم، بمثابة الولي الذي يعيش على هامش المجتمع، يفضل أن يتلقى الأمور كما تأتي، مبعثرة أولاً قبل أن يبادر إلى فرزها، مثلما نركب القطار الذي انطلق، بحجة أن أي اكتشاف يسهم في إثراء الكائن البشري، حتى ذلك المدعو إلى مصائر غير رحيمة. لو كان الأمر

مرهوناً به فقط، لاستبدل عصا موسى بمكنسة ساحرة، واستمتع بتحويل سحره إلى وصفات علاجية بقدر الأعاجيب التي يعد بها المستضعفين الوافدين طلباً لرحمته، متظاهرين بأن عوزه تعففٌ وهامشيته زهد. تعلمت الكثير عن البشر وعن نفسي برفقته. كان ظرفه يخفف صروف الحياة، واعتداله يبعد مساوئ واقع يتناسى وعوده، ويقتل آماله. يكفي أن أصغي إليه لأتخفف من همومي. حين ينطلق في عرض نظرياته المتدفقة حول هيجان البشر وأباطيلهم، لا شيء يوقفه؛ يكتسح كل شيء في طريقه، وأنا أولاً. اعترف، وقد استقرت نظرته في نظرتي: " حياة البشر أهم بكثير من تضحية، مهما كانت سامية. فأعظم القضايا وأكثرها عدلاً ونبلاً على الأرض هي حق الحياة...". ذلك الرجل متعة حقيقية. يتمتع بموهبة عدم التأثر بالأحداث، ولياقة عدم الاستسلام أمام حصار النوائب. امبراطوريته؟ الكوخ الذي يقطنه. وليمته؟ الوجبة التي يتقاسمها مع الذين سيكتب لهم البقاء بعده.

تناقشنا ساعات بحالها على قمة التلة، جالسين على حصوة ضخمة، نولي ظهرنا للجدار، ونلتفت بعناد إلى البساتين القليلة الباقية على أرض العشيرة...

ذات مساء، لحقت بي المأساة، وأنا أفارقه:

كان صحن الدار يعج بنساء متشحات السواد؛ فاتن منزوية، تحتضن رأسها بين يديها. كان النحيب يقتل

الأنين، وينشر في أرجاء المزرعة نذائر الشؤم. يثرثر بعض الرجال قرب قن الدجاج؛ وهناك أقارب وجيران.

بحثت عن عمي العجوز، ولم ألمحه في أي مكان.

هل هو الذي وافته المنية؟...

قال لي أحدهم: ـ إنه في الغرفة. الحاجة بجانبه. لم يتحمل النبأ...

ـ أي نبأ؟...

ـ وسام...سقط في ساحة الشرف، هذا الصباح. وضع متفجرات في سيارته، وهاجم بها نقطة تفتيش إسرائيلية...

اجتاح الجنود البستان عند الفجر. وصلوا بشاحنات مسيَّجة، وحاصروا بيت الجد. كانت تتبعهم عن قرب حاملة دبابات تنقل جرافة. طلب الضابط أن يقابل العجوز. بما أن عمرو متوعك، قابلته بالنيابة عنه. أعلمني الضابط أن لدينا نصف ساعة لإخلاء الدار والسماح له بمباشرة تدميرها على أثر العملية الانتحارية التي نفذها وسام جعفري ضد حاجز تفتيش، بناء على التعليمات التي تلقاها من رؤسائه.

اعترضت قائلاً: ـ ماذا تقول؟ ستدمرون الدار؟

ـ لم يتبق لكم سوى تسع وعشرين دقيقة.

ـ هذا مستحيل. لن نسمح لكم بتدمير دارنا. ما هذه القصة؟ أين سيذهب الأشخاص الذين يعيشون فيها؟ هناك عجوزان شارفا على المئة، يحاولان قدر

المستطاع أن يعيشا الأيام القليلة المتبقية لهما. لا يحق لكم... هنا بيت الجد، أهم مرجعية في عشيرتنا. سوف تنصرفون من هنا، وفي الحال.

ـ ثماني وعشرون دقيقة سيدي.

ـ سنبقى في الداخل. لن نرحل.

قال الضابط : ـ هذا ليس شأني. جرافتي تخبط خبط عشواء. حين تنقض، تمضي حتى النهاية. لقد أنذرتكم.

قالت لي فاتن، وهي تجذبني من ذراعي : ـ تعال. هؤلاء الأشخاص، مثل آلتهم، لا يرحمون. فلننقذ ما بوسعنا إنقاذه، ولنرحل.

صرخت : ـ ولكنهم سيدمرون الدار.

تنهدت وقالت : ـ وما قيمة الدار حين تفقد الوطن.

أنزل بعض الجنود الجرافة من على حاملتها، وأبعد آخرون الجيران الذين راحوا يتوافدون. ساعدت فاتن العجوز على التكوم في كرسيه المتحرك،وركنتهُ بمأمن في الفناء. رفضت نجاة أن تأخذ معها شيئاً. وقالت إنها أملاك الدار، وكما كانوا في الماضي يدفنون السادة مع أملاكهم، فهذه الدار تستحق أن تحتفظ بأملاكها. إنها ذاكرة تموت مع أحلامها وذكرياتها.

أجبرنا الجنود على الابتعاد عن الموقع والوقوف على ربوة جرداء. عمرو منهار في كرسيه ـ أعتقد أنه لا يدرك ما يجري؛ ينظر إلى البلبلة من حوله، بدون أن

يلاحظها حقاً. حرصت الحاجة نجاة على أنفتها، وهي منتصبة خلفه، مع فاتن إلى يسارها، وأنا إلى يمينها. صاتت الجرافة نافثةً سحابة كثيفة من مدخنتها. مزقت جنازيرها الفولاذية التربة تمزيقاً وحشياً، وهي تدور حول نفسها. اجتاز الجيران الشريط الفاصل الذي حدده الجنود، وانضموا إلينا بصمت. أمر الضابط مجموعة من رجاله بالتحقق من عدم وجود أحدهم داخل الدار. ثم أعطى إشارة، بعد التأكد من خوائها، إلى سائق الجرافة. في اللحظة التي انهار جدار السور، جاش الغضب في داخلي، وانقضضت على الجرافة. اعترض أحد الجنود سبيلي؛ دفعته، وهاجمت الوحش الذي يدمر تاريخي. صرخت عالياً : "توقف"،... حذرني الضابط : " توقف". أوقفني جندي؛ وضربني على حنكي بعقب رشاشه، فتهاويتُ مثل الستارة التي ننزلها.

بقيت طيلة النهار على الربوة، أتأمل كومة الأنقاض التي كانت قصري، تحت سماء متلألئة، منذ سنوات ضوئية خلت، قصر الأمير الصغير الحافي القدمين. شيده جدي الأكبر بيديه، حجراً فوق حجر، وأبصرت فيها أجيال عديدة النور، بعيونهم الأكثر اتساعاً من الأفق، ورشفت من جنائنه رحيق آمال كثيرة. كانت جرافة واحدة كافية لتحويل الأبدية بكاملها، في دقائق معدودة، إلى هباء.

قرابة المساء، وفيما الشمس تتمترس وراء الجدار العازل، هناك، جاء أحد الأنسباء لاصطحابي.

قال لي: ـ لا فائدة من البقاء هنا. فقد وقعت الفأس في الرأس.

عادت الحاجة نجاة عند ابنتها في طوباس.

وجد عميد الأسرة ملاذاً عند أحد أحفاده في كفرٍ غير بعيد عن البساتين.

حبست فاتن نفسها في صمت منيع. اختارت البقاء قرب العجوز، في كوخ حفيده. لطالما أحاطت العجوز برعايتها، وهي تعرف كم هذه المهمة متطلبة. لن يصمد عمرو بدونها. سيعتني به الآخرون في بادىء الأمر، ثم يهملونه. ولهذا السبب، آثرت فاتن العيش في بيت الجد. كان عمرو طفلها. ولكن الجرافة انسحبت وحملت معها روح فاتن. أصبحت امرأة فاقدة الحيوية، زائغة وصموتة، ظلاً تنسى نفسها في إحدى الزوايا بانتظار الليل لتتوارى في عتمته. ذات مساء، عادت سيراً على الأقدام إلى البستان المنكوب، وقد استرسل شعرها خلف ظهرها ـ هي التي كان منديلها لا يفارقها ـ، وظلت واقفة الليل بطوله أمام الأنقاض التي ترقد تحتها جل حياتها. رفضت أن تتبعني حين ذهبت لإرجاعها. لم تترقرق دمعة واحدة في عينيها الخاويتين، ونظرتها الزجاجية، تلك النظرة التي لا تخدع، والتي تعلمت أن أخشاها. في اليوم التالي، لم نجد أثراً

لفاتن. قلبنا الدنيا رأساً على عقب بحثاً عنها؛ ولكنها تبخرت. انتحى بي الحفيد جانباً، إذ رآني أستغيث بالكفور المجاورة، وخوفاً من تدهور الأمور، اعترف لي:

ـ اصطحبتها إلى جنين. ألحت عليّ كثيراً. في كل الأحوال، لا أحد بوسعه أن يحول دون ذلك. لطالما جرت الأمور على هذا النحو.

ـ ماذا تقول؟

ـ لا شيء...

ـ لماذا ذهبت إلى جنين، وعند من ذهبت؟

هز حفيد عمرو كتفيه، ثم ابتعد قائلاً: ـ إنها أمور لا يفهمهم أشخاص مثلك .

في هذه اللحظة، فهمت.

عدت إلى جنين في سيارة أجرة، وفاجأت خليل في بيته. ظن أني أتيت لتصفية حسابات معه، فهدأت روعه. أحاول فقط الاتصال بعادل. وصل عادل على الفور. أخبرته باختفاء فاتن، وبالشكوك التي تخامرني حول الأسباب الحقيقية لهذا الاختفاء.

أكد لي عادل: ـ لم تنضم أية امرأة إلى صفوفنا هذا الأسبوع.

ـ حاول أن تتحقق لدى الجهاد الإسلامي أو الكتائب الأخرى.

ـ لا داعي لذلك... فنحن نجد صعوبة أصلاً في التفاهم حول الأمور الأساسية. ومن ثم، نحن لا نقدم لبعضنا البعض حسابات. كل يخوض جهاده كما يفهمه. إذا كانت فاتن في مكان ما، فمن غير المجدي السعي للحاق بها. إنها راشدة وحرة في أن تفعل ما تشاء بحياتها، وبموتها. لا وجود لمثقالين ومكيالين يا دكتور. عندما يقبل المرء أن يحمل السلاح، عليه أن يقبل أن يحذو الآخرين حذوه. لكل الحق في نصيبه من المجد. لا يختار المرء مصيره، ولكنه يختار نهايته. إنه أسلوب ديمقراطي للسخرية من القدر.

ـ أرجوك، ابحث عنها.

هز عادل رأسه، متأسفاً:

ـ ما زلت لا تفهم شيئاً يا عمُّو. عليّ الانصراف الآن. سيصل الشيخ مروان بين لحظة وأخرى. سوف يلقي خطبة بعد ساعة في مسجد الحي. يجدر بك أن تستمع إليه...

قلت سراً: هذا ما حصل. فاتن في جنين على الأرجح ليباركها الشيخ.

يغص المسجد بالمصلين. تحمي أحزمة من المسلحين حرم المسجد. رابطت عند زاوية الشارع،

ورحت أراقب الجناح المخصص للنساء. تحث المتأخرات منهن الخطى لدخول المصلى من باب جانبي خلف المسجد، بعضهن تسربل بالأسود، وبعضهن الآخر وضع مناديل فاقعة. لا أثر لفاتن. درتُ حول مجموعة من البيوت للاقتراب من الباب الجانبي الذي تحرسه سيدة بدينة. استنكرت وجودي في هذا المكان من المسجد الذي لا يجرؤ حتى المسلحون أنفسهم الاقتراب منه استحياءً.

صاحت بي: ـ الجهة الأخرى للرجال.

ـ أعلم يا أختي، إنما أنا بحاجة للتحدث إلى قريبتي فاتن جعفري. المسألة ملحة.

ـ لقد صعد الشيخ إلى المنبر.

ـ آسف يا أختي؛ لا بد أن أتحدث إلى قريبتي.

ثارت ثائرتها: ـ كيف سأجدها؟ في الداخل مئات النساء، وسوف يبدأ الشيخ خطبته بعد قليل. لن آخذ منه الميكروفون. إرجع بعد الصلاة.

ـ هل تعرفينها، يا أختي، هل هي هنا؟

ـ ماذا؟ لست متأكداً من وجودها هنا، وتأتي لإزعاجنا في هذه اللحظة. إنصرف وإلا ناديت المسلحين.

عليّ انتظار انتهاء الخطبة.

عدت إلى زاويتي، بحيث لا يغيب عن ناظري المسجد والجناح المخصص للنساء. صدح الصوت الساحر للإمام مروان، طاغياً في الصمت الكوكبي الذي يخيم على الحي. تكاد تكون الخطبة نفسها التي سمعتها في سيارة الأجرة المرتجلة في بيت لحم. بين الحين والآخر، يعلو تهليل المصلين كلما أفاض الخطيب في القول وتدفقت سيول البلاغة على لسانه...

فجأة، توقفت سيارة أمام المسجد؛ ترجل منها مسلحان يلوحان بجهازهما اللاسلكي. يبدو الوضع خطراً. يشير أحدهما إلى السماء بإصبع محموم. يتشاور الآخرون قبل الذهاب لإحضار أحد المسؤولين؛ إنه الرجل الذي يرتدي سترة مظليين، سجّاني. قرّب منظاراً من عينيه، ورصد السماء بضع دقائق. عمت البلبلة حول المسجد. راح بعض المسلحين يركضون في كل الاتجاهات؛ اقترب ثلاثة منهم مني، وتجاوزوني لاهثين... افترض أحدهم: " إذا لم نلمح طوافة، فهذا يعني أن الأمر يتعلق بطيارة مسيرة لاسلكياً". رأيتهم يهرولون عائدين أدراجهم بسرعة فائقة. فرملت سيارة أخرى أمام المسجد. صرخ ركابها ينادون الرجل المرتدي سترة مظليين، ثم تراجعوا بسيارتهم إلى الوراء

في دوي مقلق، وتوجهوا إلى الساحة. توقفت الخطبة. أمسك أحدهم بالميكروفون، وطلب إلى المصلين المحافظة على هدوئهم، لأن الأمر قد يكون إنذاراً خاطئاً. عادت سيارتان رباعيتا الدفع كالإعصار. بدأ بعض المصلين بالخروج من المسجد. لاحظت أنهم يحجبون عني الجناح المخصص للنساء. لا أستطيع الدوران حول مجموعة البيوت بدون المخاطرة بعدم رؤية فاتن في حال خرجت بدورها من الباب الجانبي. قررت أن أمر أمام المدخل الرئيسي، وأشق الجموع، ثم أصل مباشرة إلى جانب النساء... صرخ أحد المسلحين: " إبتعدوا من فضلكم، دعوا الشيخ يمر...". تدافع المصلون ليلمحوا الشيخ عن كثب، ويلمسوا قميصه. أنهضني ارتداد الموجة وسط الجلبة حين ظهر الإمام على عتبة المسجد. أحاول الانفلات من الأجساد المنخطفة التي تسحقني إنما لا أفلح. يركب الشيخ سيارته، ويلوِّح بيده خلف الزجاج المصفح فيما يستقر حارساه الشخصيان إلى جانبه... ثم لا شيء. ثمة شيء يخترق السماء، ويومض وسط قارعة الطريق، أشبه بالبرق؛ يصفعني ارتداد الصدمة مباشرة، مفرقاً الجمع الذي يبقيني أسير هيجانه. في أقل من ثانية، تداعت السماء، وانقلب الشارع الذي كان عامراً

بالورع، لوهلة، رأساً على عقب. اجتازت الدوار الذي أصابني جثة رجل أو فتى مثل وميض غامض. ما هذا؟... تجتاحني موجة من الغبار والنيران، وتقذف بي من خلال ألف شظية. يعتريني الإحساس الملتبس بأنني أتنسل وأذوب في لفح الانفجار... على بعد أمتار قليلة، تشتعل سيارة الشيخ. يحاول شبحان مضرَّجان بالدماء إخراجه من الحريق بأيديهم العارية، يفككان الحديد المشتعل، يحطمان الزجاج، وينكبان على الأبواب. لا أستطيع أن أنهض... أسمع عويل سيارة إسعاف... ينحني أحدهم عليّ، يعاين جرّاحي بسرعة، ثم يبتعد بدون أن يلتف. ألمحه يقرفص قرب كومة من اللحم المحروق، يجسُّ نبضها، ثم يومئ إلى المسعفين. يقترب رجل آخر، ويمسك بمعصمي قبل أن يدعه يتهاوى..." لقد قضي على هذا...". في سيارة الإسعاف التي تقلني، تبتسم لي أمي. أريد أن أمدَّ يدي لألمس وجهها، ولكن لا جارحة في جسدي تلبيني. أشعر بالبرد، أشعر بالألم، أشعر بالحزن. تدخل سيارة الإسعاف إلى باحة المستشفى وهي تطلق خواراً؛ يُفتح باباها على المسعفين؛ ينهضوني ويضعوني أرضاً في أحد الأروقة. تفشخ فوقي الممرضات المهرولات في كل الاتجاهات. تروح العربات النقالة وتجيء في رقصة

مُدوِّخة، مُحمَّلةً بالجرحى والرعب. أنتظر متصبراً أن يأتي أحدهم للاهتمام بي. لا أدري لماذا لا يبقى أحدهم قربي؛ يتوقفون، ينظرون إلي، وينصرفون؛ هذا ليس طبيعياً. هناك أجساد أخرى مصفوفة إلى يمين جسدي ويسراه. جمع بعضها حوله الأقارب، وأطلق العنان لنحيب النساء وعويلهن، بعضها الآخر مشوه لا يمكن التعرف إليه. وحده رجل عجوز يقرفص أمامي، يتمتم دعاءً، يضع يده على وجهي، ويغمض جفني. وفجأة، تتلاشى كل الأنوار وكل أصوات العالم. يستولي عليّ خوف مطلق. لماذا يغمضون عينيَّ؟... أدركت ما جرى حين لم أستطع أن أفتحهما: هكذا إذاً؛ انتهى كل شيء، لم أعد موجوداً...

في اختلاجة أخيرة، أريد أن أستعيد زمام أموري؛ لا عصب واحد في جسدي ينبض. لا شيء سوى ذلك اللغط الكوني الذي يطن، يجتاحني شيئاً فشيئاً، يحيلني عدماً... على حين غرة، في غياهب الأغوار، يتراءى بصيصاً متناهي الصغر... يتوه، يقترب، ترتسم هامته ببطء؛ إنه طفل... يركض، خطوته الخيالية تبعد الظلمات والعتمات... أركض، يصرخ صوت أبيه، أركض... ينبلج فجرٌ شماليٌّ على البساتين المحتفلة؛ فتبدأ الأغصان على الفور تبرعم، وتزهر، وتنوء تحت

ثمارها. يحاذي الطفل الأعشاب البرية، ويهجم على الجدار الذي ينهار مثل فاصل من الورق المقوى، موسِّعاً الأفق، ومظهراً الحقول الممتدة فوق السهول على مد النظر ...أركض... وها هو الطفل يركض، وسط القهقهات، والأذرع المبسوطة مثل أجنحة العصافير. تنهض دار الجد من أنقاضها؛ تنفض حجارتها عن نفسها الغبار، ترجع إلى مكانها في كوريغرافيا سحرية، تنهض الجدران، تتغطى الألواح الخشبية في السطح بالآجر؛ تنتصب دار الجد تحت الشمس، أبهى من أي وقت مضى. يركض الطفل أسرع من الأحزان، أسرع من القدر، أسرع من الزمن... ويهتف له الفنان: واحلم، إحلم أنك جميل، سعيد، وخالد ..ينطلق الطفل، منعتقاً من هواجسه، على خط التلال، خافقاً بذراعيه، وضاح المُحيَّا، مبتهج المقلتين، ويحلق نحو السماء، يصحبه صوت أبيه: بوسعهم أن يحرموك من كل شيء؛ أملاكك، أجمل سنوات عمرك، كل أفراحك، ومجمل إنجازاتك، حتى آخر قميص عندك ـ ولكنك ستحتفظ دائماً بأحلامك لإعادة إبداع العالم الذي صادروه منك.

صدر للمؤلف

في سلسلة فسيفساء

عن دار الفارابي وسيديا

أشباح الجحيم

سنونوات كابول

طبع في مطابع

مؤسسة مصطفى قانصو للطباعة والتجارة

بيروت – لبنان ــ هاتف وفاكس: ٤٧٥٩٠٥ ١ ٠٠٩٦١

أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٧


Twitter: @ketab_n

الصّدمة

في أحد مطاعم تل أبيب، تفجر امرأة شابة نفسها وسط عشرات الزبائن. في المستشفى، يجري الدكتور أمين، الجراح الإسرائيلي من أصل عربي، العمليات الجراحية الواحدة تلو الأخرى للناجين من التفجير. في الليلة التي تلي المجزرة، يُستدعى بصورة طارئة للتعرف إلى الجثة الممزقة للمرأة الانتحارية. تتداعى الأرض تحت قدميه إذ يكتشف أنها زوجته.

كيف يسلِّم المرء بالمستحيل، ويستوعب ما لا يدركه عقل أو خيال، ويكتشف بأنه تقاسم لسنوات طويلة حياة وحميمية شخص يجهل عنه الأهم؟ للإجابة عن هذا السؤال، لا بد من الدخول إلى قلب الحقد والدم والنضال اليائس للشعب الفلسطيني...

" ياسمينة خضرا، المتخصِّص في الروايات على خلفية إرهابية (...) يبرز موهبته السردية لرسم لوحة مذهلة عن بلد ينهشه الرعب".

محمد عيساوي، صحيفة الفيغارو

ولد ياسمينة خضرا، واسمه الحقيقي محمد مولسهول، عام 1955 في الصحراء الجزائرية، وهو يتمتع اليوم بشهرة عالمية بفضل رواياته، لا سيما بمَ تحلم الذئاب، وخداع الكلمات، والقريبة كاف، التي ترجمت إلى 22 لغة.

تعتبر سنونوات كابول والصّدمة الجزئين الأولين من ثلاثية مكرَّسة لحوار الطرشان بين الشرق والغرب، اختتمت بصدور أشباح الجحيم (جوليار، 2006).

نالت رواية الصّدمة جائزة المكتبات 2006، وجائزة مدارات 2006، والجائزة الكبرى لقارئات مجلة Côté femme، والجائزة الأدبية لتلامذة بورغونيا، بالإضافة إلى جائزة قراء صحيفة Télégramme وقد اقتبست إلى السينما في الولايات المتحدة.

ترجمة : د. نهلة بيضون

Photo : DR




ISBN 978-9953-71-249-9

9 789953 712499

لبنان

9 789961 704868

الجزائر